@ketab_n
Follow Me
2.3.2016

ميخائيل نعيمه

سبعون...

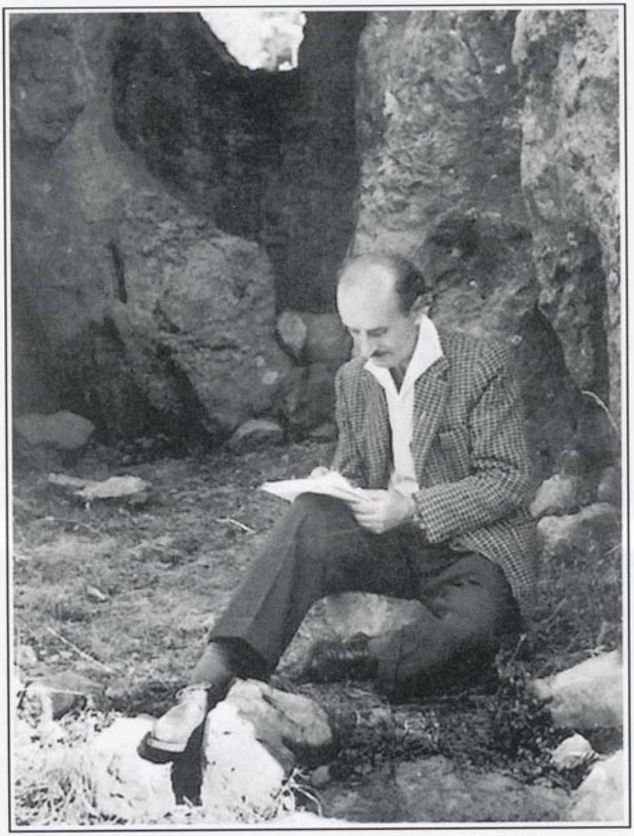

المرحلة الأولى

نوفل

ميخائيل نعيمه

سبعون...

حكاية عمر

١٨٨٩ - ١٩٥٩

المرحلة الأولى

١٨٨٩ - ١٩١١

نوفل

Twitter: @ketab_n

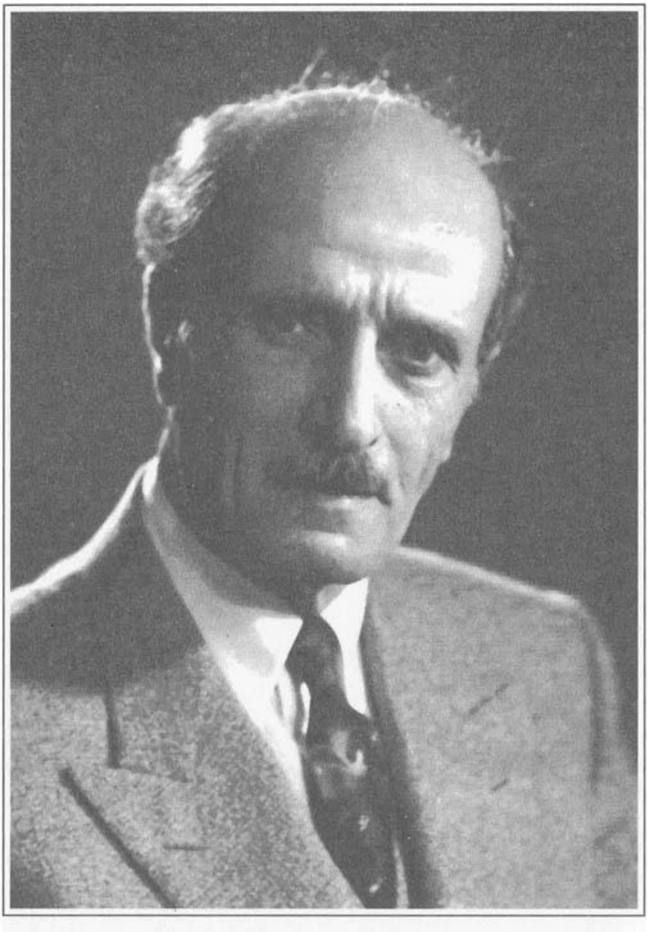

المؤلّف في السبعين

Twitter: @ketab_n

سبعون...

١

Twitter: @ketab_n

العنوان: سبعون Sab‘ūn

المؤلّف: ميخائيل نعَيمه Mikhail Naimy

الناشر: مؤسّسة نوفل Naufal

جميع الحقوق محفوظة

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، Hachette Antoine S.A.L., 2011

ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان

العنوان التجاري: سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست

البريد الإلكتروني: naufal@hachette-antoine.com

الطبعة الثانية عشرة: 2011

الطبعة الأولى: 1977

ر.د.م.ك.: 9953-26-023-0

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

باب الكتاب

سبعون سنة!..

يهون عليك لفظها. ويهون عليك عدّها - من الواحد حتى السبعين. ولا يستعصي عليك حصر شهورها، وأسابيعها، وأيامها، وساعاتها، ودقائقها، وثوانيها. ولكنه فوق طاقتك أن تعود بها القهقرى، ثم أن تعرضها لمحة لمحة حسب تسلسلها في الزمان والمكان، ثم أن تنتزع من كلّ لمحة جميع ما حملته إليك من موحيات وتخيلات وانفعالات، وجميع ما حمّلتها من حركات عفويّة وغير عفويّة؛ ومن وساوس ورغبات؛ ومن أحلام حلمتها في اليقظة والمنام، وملذات وأوجاع كتمت بعضها عن الناس وفضحت بعضها عن قصدٍ منك وعن غير قصد.

إنّك خادع ومخدوع كلّما حاولت أن تحكي لنفسك أو للناس حكاية ساعة واحدة من ساعات عمرك. لأنّك لن تحكي منها إلاّ بعض بعضها. فكيف بك تروي حكاية سبعين سنة؟!

كيف لبؤبؤ عينك أن يُعيد إلى شاشة ذاكرتك كلّ ما

Twitter: @ketab_n

التقطه على مدى سبعين سنة من الرسوم وأشباح الرسوم - وأن يعيدها بأحجامها وألوانها، وفي الظروف عينها التي التقطها فيها؟ إنّ ما يقع عليه بصرك في نظرة واحدة تلقيها من خلال نافذتك تفوق ما يعيه وجدانك وتستوعبه حافظتك. فما قولك بما أبصرته في خلال سبعين عاماً ممّا في الأرض من بشر وحيوان ونبات وسائل وجماد، وممّا في السماء من نجوم وأقمار وشموس ومجرات، وممّا في الكتب من حروف وكلمات وعبارات؟ ثم ما قولك بالأثر الذي تركته في نفسك جميع هذه المرئيات في اللحظة التي رأيتها فيها، وفي الأيّام التي تلتها؟

كيف لأذنك أن تردد لك جميع الأصوات التي سمعَتْها، وأن تعيد إلى ذاكرتك المشاعر التي نبّهتها فيك تلك الأصوات ما بين انشراح وانكماش، واطمئنان وقلق، ونشوة وقشعريرة، ومبالاة أو لا مبالاة؟

كيف تحصي كلّ خطوة خطتها رجلاك، وكلّ جسم لامسته يداك، وكلّ رائحة شمّها أنفك، وكلّ طعم تذوّقه لسانك؟ أم كيف تحصي السوائل والأطعمة التي دخلت جوفك وخرجت منه، وفي أي حال دخلته، وفي أي حال خرجت منه؟

هذه كلّها يا قارئي، وآلاف غيرها، هي الذرات أو

Twitter: @ketab_n

الذريرات التي منها يتألف عمرك وعمري. وأكثرها، كما ترى، يرسب في الأعماق حيث يتعذّر على الذاكرة الوصول إليه ساعة تشاء. إلاّ أنّ تعذّر الوصول إليه لا ينفي وجوده. إنّه أبداً هناك بكلّ تفاصيله ودقائقه. إنّه في كياننا الأعمق والأبقى. فنحن السجل الكامل لكل ما ينطبع على صفحة حياتنا من مؤثّرات. ونحن نسطّر ما في السجل. ولكننا قلّما نذكر ونفهم ما نسطّر. وإن ذكرنا وفهمنا فاليسير اليسير. وهذا اليسير الذي نذكره ونفهمه هو المفتاح لما أغلق علينا فهمه. وهمّنا الأكبر في حياتنا هو أن نحسن استعمال ذلك المفتاح.

وها أنا - ولا أدّعي أنني أحسنت استعمال مفتاحي - أُقْدم على مغامرة من أكبر المغامرات. وهي أن أُسيح بالقارئ سياحة قصيرة أو طويلة في الدنيا التي كانت نصيبي من عمري حتى اليوم. وليس قصدي من الكلمات التي مهّدت بها لهذه السياحة إلاّ أن أحذّر القارئ من الاعتقاد أنّ ما سيلاقيه في هذه الصفحات هو كلّ ما سجّلَتْه لي وعليّ السنوات السبعون التي عشتها حتى الآن على الأرض في هذه الدورة من حياتي. فلن يطالع من السجلّ الذي هو عمري أكثر من مقاطع قد لا تكون الأهم فيه. ولكنها تصلح للدلالة على محتواه، كما تصلح

Twitter: @ketab_n

الخريطة للدلالة على ارتفاع هذا الجبل وامتداده، وعلى طول ذلك النهر واتجاهه. لكنها لا تدلّك على ما في الجبل من أخاديد ومنحدرات، ومن تراب وصخر ومعدن ونبات وحيوان؛ ولا على عدد القطرات في النهر وما في قعره من حشائش وأوحال وأسماك، وما على جانبيه من رمال وأدغال، وما فوقه من فضاء وسماء.

ولماذا المغامرة وليس ما يُكرهني أو مَن يُكرهني عليها؟ ففي استطاعتي أن أكتب هذا الكتاب. وفي استطاعتي أن لا أكتبه. ثم إن من طبعي أن أسير على النهج المأثور عن المسيح عندما قال: «أعطوا ما لقيصر لقيصر. وما للّه للّه». فأعطي الناس من حياتي على قدر نصيبهم في حياتي - أو ما أظنّه نصيبهم. أعطيهم من زاد قلبي وفكري إذا ما خُيّل إليّ أن فيه زاداً صالحاً لقلوبهم وأفكارهم. أمّا حياتي «الخاصة»: من أين أرتزق؛ وماذا آكل وأشرب وألبس. وكيف أنام وأقوم وأعمل؛ ومَن هم أبي وأمي وإخوتي وأخواتي؛ وأجدادي وأعمامي وعمّاتي، وأخوالي وخالاتي؛ وخلاّني وأعدائي؛ وكيف عاملتهم وعاملوني، وماذا كان بيني وبين نساء أحببتهن وأحببني؛ ومتى حزنت وبكيت؛ ومتى فرحت وضحكت، - أما هذه الأمور كلّها، وكثير من

Twitter: @ketab_n

نوعها، فما ظننت يوماً أن للناس أي نفع في معرفتها. لذلك أهملتها الإهمال كلّه في كتاباتي. إلاّ في النادر من مقالاتي ومن رسائلي إلى أقرب المقرّبين إليّ من أصدقائي وأنسبائي.

لكنّ فضول قرائي - وهو فضول مغفور ومشكور - يأبَى الاكتفاء بمشاركتي في حياتي الفكرية. إنهم يريدون أن يعرفوا التربة التي نبتت فيها هذه الأفكار، والأجواء التي فيها تبلورت، والأسس التي تقوم عليها، والعقبات التي واجَهَتْها وذللتها، والتي واجهتها ولم تذلّلها بعد، وإلى أيّ حدّ تساير حياتي أفكاري. وإلى أي حد تغايرها. وذلك حق لهم عليّ فأنا وإيّاهم رفاق طريق - طريق الإنسان الهائم بالحياة، والباحث أبداً عن نفسه في رحابها اللامتناهية، وعن غايته منها وغايتها منه. وهم يعتقدون - خطأ أو صواباً - أنّني أخبر منهم بالطريق ومنعرجاته ومنزلقاته ومهاويه؛ وبالواحات الصغيرة المطمئنة على جنباته والتي قلّما يهتدي إليها المسافرون؛ ثم بالزاد الذي لا بدّ منه للسائرين في ذلك الطريق؛ ثم بالواحة الكبرى التي ينتهي إليها، والتي ما من سفر بعدها ولا مسافرين.

أمّا من أين لقرائي ذلك الإيمان بخبرتي فسؤال جوابه عندي وعندهم.

Twitter: @ketab_n

عندي - لأنّني في خلال ما يقارب نصف القرن قدّمت إليهم من نتاج قلمي أشياء وأشياء. وما هم الذين طالبوني بها. بل أنا الذي تطفّل بها عليهم.

وعندهم - لأنهم استساغوا الكثير ممّا قدمته إليهم. فكأنهم أحسّوه، مثلما أحسسته، معجوناً بدم الحياة التي هي حياتهم وحياتي، ومخبوزاً بحرارة قلبها الذي هو قلبهم وقلبي. فها هو قارئ يكتب إليّ من القاهرة:

«ولكنني أقول مخلصاً إنّ حبي لك يفوق حبي لكائن مهما كان. حتى ولو كان أبي... أمّا أنت يا ساحر فأب، وأخ، وصديق...»

وآخر من البصرة:

«إنّني مدين لك بالكثير... لأنت معلمي الأوّل، وستظلّ كذلك أبداً. ستبقى خالداً في روحي وموجوداً في قلبي. وستظلّ صديقاً لي...»

وهذه فتاة من حماه - سوريا - تكتب فتقول:

«أراني أسعد مخلوقة عندما أتصفّح مؤلفاتكم بلذّة وشغف. فإذا بي أسبح في عالم لا يفهمه إلاّ صاحب الحسّ المرهف...»

وأخرى من الموصل:

Twitter: @ketab_n

«وددت لو طُويت الأرض تحت قدميّ فأكون في حضرتك بشخصي، كما أنا الآن راكعة بروحي في محراب سموّك ونبلك. فأقبّل تلك اليد التي سطرت النور والهداية، والتي ستكون المشعل الذي اسير بهديه في مستقبل أيّامي، وتكون العزاء الذي منحني السلوى على ما مضى من عمري في الظلام».

وها هو كاتب أميركي يكتب إليّ من كاليفورنيا:

«الآن، وقد قرأت «مرداد» للمرة الثانية، أسارع لأؤكد لكم أنّه امتلك عليّ جميع مشاعري. فهو خزّان من الحكمة والشعر والنظرات البعيدة الغور وقد صيغت جميعها في قوالب من البلاغة التي لا تسرف في الكلام... إن رموزه ومعانيه تتحدّى الزمان».

وها هي مؤسسة للنشر في بومباي تسألني السماح لها بنشر «كتاب مرداد» في الهند وتصفه بأنّه «كتاب الساعة، بل كتاب الجيل، بل كتاب الأبدية». وأخرى في هولندة تستأذنني في ترجمة الكتاب إلى الفرنسيّة والألمانيّة والهولنديّة.

وها هو مهاراجا في الباكستان يكتب ليقول:

«كنت أطالع كتبكم. وما من يوم يمرّ إلاّ وأنتم في فكري. إنّ كلّ دقيقة أستغلّها في درس آرائكم تدنيني أقرب فأقرب من نفسي وتقصيني أبعد فأبعد عن أنانيتي... لقد قوّت مؤلفاتكم

Twitter: @ketab_n

إيماني بالإنسان والإنسانيّة...»

لست أريد أن أرهق القارئ بأمثال هذه الرسائل. فلديّ المئات منها. وقد جاءتني من شتى البلدان وشتى الأجناس. وهي تتدرج من التقدير الرصين إلى الإعجاب الذي يكاد يبلغ حدّ التأليه والعبادة. وأنا ما استشهدت هذا القليل منها إلاّ لأعترف لقرائي بحقهم في أن يعرفوا المزيد عن حياة هذا الكاتب الذي باتوا يثقون به أخاً وصديقاً ورفيقاً ودليلاً. أما قدمت إليهم من قلبي وفكري فما رفضوا التقدمة بل تقبلوها شاكرين؟ وهل يلام الذي أكل من ثمار شجرة إذا هو تفيأ ظلها كذلك؟

ثمة مبررات لهذه المغامرة غير التي ذكرت. منها واحد قد يكون محض أناني. وهو أنني، إذ أنكبّ على هذا الكتاب فأستعيد ذكريات ما كان من أمري في هذه الدنيا، سأكون كمن يعيش عمره مرّتين. ويقيني أنّ ذلك، وإن لم يُعِدْ إليّ نضرة الصبا وزهو الشباب، سيساعدني على تصحيح حساباتي مع نفسي، ومع الناس، ومع الكائنات التي كان لها في حياتي نصيب. ومن الخير للإنسان أن يتلفّت من حين إلى حين إلى الوراء إذ هو يتطلّع أبداً إلى الأمام. فما أكثر ما نحسب أنّنا تركنا هذا الأمر أو تلك المشكلة وراءنا وإذا بهما يترصدانا عند عطفة في الطريق أمامنا.

Twitter: @ketab_n

هناك مبرر ما أظنّه يخطر للقارئ في بال. وهو اللذّة التي يلاقيها الإنسان إذا هو تعرّى أمام إخوانه الناس من جميع «أسراره» وأوزاره. فبات وكأنّه البيت من زجاج - كل ما فيه مكشوف للعيان. إلاّ ما كان منه أبعد، أو أعمق، من متناول أبصار الناس وأفكارهم. فذلك وحده يبقى له بمثابة قدس أقداسه - لا يدخله أحد غيره.

ومبرر آخر - ولعلّه الأهم. وهو أنّني، مهما يكن شأني اليوم أو غداً في دنيا الفكر والقلم، ما برحت واحداً من الناس، تنعكس حياتي في حياتهم، وحياتهم في حياتي. وما قيمة ما كتبته وسوف أكتبه إلاّ في التجاوب بيني وبين الذين يقرأونني من الناس، وفي مدى التفاعل بيني وبينهم. ولو لم تكن بيننا أشياء كثيرة مشتركة لما كان هنالك تجاوب أو تفاعل. فطينتي طينتهم. وغريزتي غريزتهم. وأرضي أرضهم. وسمائي وهوائي سماؤهم وهواؤهم. وشعوري باللذّة والألم شعورهم. وما الفرق بيني وبينهم إلاّ في أنّني قد إستنتج من هذه الأمور كلّها غير ما يستنتجون، وقد أتكيّف بها وأكيّفها بغير الطريقة التي بها يتكيّفون ويكيّفون. ولولا ذلك الفارق في التكيّف والتكييف، وفي تقييم الأحداث والأشياء بحيث يطمئن واحدنا إلى ما ينفر

Twitter: @ketab_n

منه غيره، ويقبل على أشياء يدبر عنها سواه، لما كان من مسوّغ لتبادل النظرات والاختبارات إن بالقلم وإن باللّسان.

هذه السنوات السبعون التي طويتها على الأرض حتى الآن - والعقود الأربعة الأخيرة منها على الأخص - كانت حقبة عجيبة بما تمخّضت عنه من انقلابات عنيفة في نمط معيشتنا وتفكيرنا. وذلك نتيجة للاختراعات الهائلة التي تفتّق عنها عقل الإنسان ضمن حيّز جدّ ضيق من الزمان، ثمّ للتيارات العنيفة التي تفجّرت في دنيا السياسة والاقتصاد والاجتماع وكأنّها الحمم من البركان. حتى ليبدو لإنسان مثلي أن العالم الذي وُلد فيه هو غير العالم الذي يعيش فيه اليوم. وكنت أجزم بذلك لولا أن السلك الذي أدعوه «أنا» ما يزال يجمع بين ذلك العالم وهذا.

لَئن مررتُ بتلك الانقلابات والتيارات، وبالأحداث التي مَهّدَت لها، فلن يكون مروري بها مرور المؤرّخ والعالِم. بل مرور من يشوقه أن يستجلي معانيها الغامضة، وأن يتبين مدى تأثيرها على مجاري الحياة البشرية في المستقبل القريب والبعيد، وهل هي فاتحة عهد وخاتمة عهد، أم انها انتفاضة النزع. فهمّي من الإنسان لا ينحصر في ما يشيد ويهدم، أو في ما يخترع ويكتشف، أو في ما ينتج ويستهلك، إلاّ على قدر ما يساعده ذلك في تحقيق هدفه

Twitter: @ketab_n

من وجوده – ذلك الهدف الذي يتجاوز أقصى ما يتعطش إليه الآن من الجمال والمعرفة والحرية والخلود.

وقد رأيت أن أقسم العمر الذي أكتب عنه إلى مراحل ثلاث: الأولى من الطفولة وحتى نهاية دراستي في روسيا والثانية من بدء هجرتي إلى الولايات المتحدة وحتى عودتي منها. والثالثة منذ عودتي وحتى اليوم.

والآن، وقد فتحت لك باب هذا الكتاب على مصراعيه، فلنعد سبعين عاماً إلى الوراء – إذا كان في الزمان من «وراء» ومن «أمام».

م.ن.

بسكنتا ١٧ تشرين الأول ١٩٥٩

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أب في السماء وأب في أميركا

«قُل معي يا ابني: أبانا الذي في السماوات! ليتقدّس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض...»

وتأتي أمي على آخر الصلاة القصيرة والوحيدة التي علّمها المسيح تلاميذه، غير مبالية بما تنزله بها من تهشيم في اللفظ وقواعد اللغة. فقد عاشت عمرها وأحرف الهجاء عندها ألغاز لا يستطيع حلّها إلاّ «الراسخون في العلم». وما كان أقلّهم في ذلك الزمان...

وما إن تنتهي أمي من الصلاة «الربانيّة» حتى تمضي في دعاء طويل من أجل الذين لهم في قلبها وحياتها المنزلة الأولى:

«قل معي يا ابني: يا ربّ وفّق أبي في أميركا. إذا أمسك التراب فلينقلب في يده ذهباً. يا ربّ ردّه إلينا سالماً. يا ربّ خلّ لي إخوتي. يا ربّ خلّ لي خالي إبرهيم وخالي سليمان ووفقهما وارزقهما أولاداً. يا ربّ...»

Twitter: @ketab_n

وأردّد ما تقوله أمّي بلسان يتثاقل في حركاته بنسبة دبيب النعاس في أجفاني. وأطبق عينيّ على صور غريبة رسمتها كلمات أمي في مخيّلتي. صورة أبٍ قالت لي أمي إنّه ليس من لحم ودم، وإنّه يسكن السماء - ذلك الفضاء الأزرق حيث الشمس في النهار، والقمر والنجوم في الليل. فما أدري كيف أتخيّله أو أتخيّل مقرّه. ألعلّ بيته هناك يشبه بيتنا هنا؟ بل هو أكبر وأجمل. إنّه «حارة قرميد» من غير شك. وصورة أب من لحم ودم في بلاد يدعونها أميركا. فأتخيّله عملاقاً بشاربين أضخم بكثير من أيّ شاربين وقعت عليهما عيناي. وأتخيّل أميركا بلاداً وراء الأفق، يقفش فيها الناس التراب فيتحوّل ذهباً. أما الذهب الذي ما كنت بعد قد أبصرت له وجهاً فقد تخيّلته شيئاً ثميناً جدّاً. إلاّ أنّني كنت أعجب لأبي كيف سافر إلى أميركا ليأتي بالذهب ما دام في استطاعة أمي، بدعاء بسيط إلى أبي «الذي في السماوات»، أن تجعل التراب في يديه ينقلب ذهباً. فها هي أرض بيتنا من التراب، وسقفه كذلك. وها هو التراب حوالينا في كلّ مكان. وبكميات لا نفاد لها. أيكون تراب أميركا غير ترابنا؟ أجل. هكذا يجب أن يكون...

لئن حيّرتني تلك الصور فما كانت تحيّرني صور أخرى

Twitter: @ketab_n

أطبق عليها أجفاني في كل ليلة ساعة النوم. فها هي أمي. إنّني أعرفها. وإنني أحبها لأنها تحبّني. وزندها هو الزند الذي يطيب لي أن أغفو عليه. وجسمها هو الجسم الذي يحلو لي الاحتماء به، وعلى الأخص في ليالي الشتاء الباردات. فحرارته تغنيني عن النار. وحسبي منه ما يشيعه في نفسي من الحلاوة والاطمئنان. أمّا كيف أصبحت هذه المرأة أمي، ولماذا يكون لجميع الأولاد آباء وأمهات، وما معنى الأبوّة والأمومة - فأمور قلّما أقلقتني. إن لكل ولد أمّاً وأباً. وأبي في أميركا. وهذه المرأة هي أمي. إنها أمي وكفى.

وها هما أخواي الأكبر مني - ديب (وقد أصبح فيما بعد «أديب») وهيكل. إني أعرفهما كذلك. وأعرف أنهما أخوان لي لسبب بسيط. وهو أنّنا ننام ونقوم في بيت واحد. ونأكل من زاد واحد. ولنا أمّ واحدة تهتمّ بما نأكل ونشرب ونلبس، ولها مطلق السلطان علينا. تأمرنا فنطيع. وإن لم نطع تعرضنا لقوارص الكلم، أو للطمة على الخدّ، أو لقضيب من التوت يلهب أكفّنا أو أماكن أخرى من أجسادنا. وهذان الأخوان ينامان وفراشهما يلاصق الفراش الذي أنام عليه إلى جانب أمي. ذلك لأنها كانت تتفقدهما مراتٍ عدّة في الليل مخافة أن يدفعا عنهما اللحاف

Twitter: @ketab_n

ويناما بدون غطاء. أما لماذا كان لبعض أولاد الجيران أكثر من أخوين، أو لم يكن لهم إخوة على الإطلاق؛ أو كان لبعضهم أخوات ولم تكن لي ولا أخت، فمن الأمور التي كان يستعصي عليّ حلّها.

وهناك في زاوية أخرى من البيت ينام إنسانان آخران. إنهما جدّي «بو يوسف» وستّي (جدتي) أم يوسف وهما أكبر مني ومن أخويّ ومن أمي بكثير. وأنا أعرفهما وأحبّهما لأنهما يحباني. وأعرف لي جدّاً آخر وستّاً أخرى. هما جدّي «بوبراهيم» وستي «أم براهيم». ولكنهما، لأسباب لا أفهمها، يعيشان في بيت غير بيتنا. وأنا أحبّهما كذلك. ولكن ليس بقدر محبتي لجدي بويوسف وستي أم يوسف. وأنا لا أفهم كيف يكون لي جدّان وستّان، في حين أن في الحيّ أولاداً لا جدّ لهم ولا ستّ، وأولاداً لهم جد ولا ست، أو ستّ ولا جدّ.

أما الصورة التي كان لها كل ليلة من السحر في أجفاني فوق ما كان لصوت أمي الرتيب وهي تردّد: يا رب افعل كذا. ويا رب لا تفعل كذا - فصورة السراج القائم على نتوء في متوسط عمود البيت. لقد كان سراجاً من التّنَك (الصفيح)، مخروطي الشكل، في رأسه ذؤابة، ومن جانبه تبرز مسكة طويلة

Twitter: @ketab_n

مستديرة. وهذا السراج الذي لا يتسع إلاّ لأوقية وبعض الأوقية من زيت الكاز كان المعوّل الوحيد في إنارة البيت. وكنّا ندعوه «نوّاسة». ونعمّا الاسم. ففي القاموس: «ناس الشيء - تحرك وتذبذب». ونور نواستنا كان في ذبذبة دائمة. فآناً يشبّ فيندفع دخانه الفاحم متلوّياً أعلى فأعلى حتى يلامس جذوع السقف الدكناء، وآونة يدور يميناً ويساراً، وأخرى ينكّس رأسه كأنّ به دواراً. ورقصته هذه كانت مبعث دهشة دائمة لي بما ترسمه على جدران البيت وسقفه وأرضه وأثاثه من غريب الأشباح.

وما دمت في ذكر البيت وأثاثه فليعذرني القارئ إذا أنا توقّفت قليلاً لأصف له ذلك البيت الذي لم يكن غير نموذج لآلاف البيوت القروية المنتشرة على السفوح العالية من جبال لبنان، والتي تكاد تصبح اليوم خبراً من الأخبار.

إن الذين استوطنوا تلك السفوح منذ مئات السنين لم يستوطنوها طمعاً بخصبها وسعة العيش فيها. بل هرباً من جور حكّام، أو من شحّ أرض عزّ ماؤها وقلّ عطاؤها. فصخر هذه السفوح أكثر من ترابها، ومسالكها وعرة، وبردها قارس في الشتاء. لا متاجر فيها ولا مصانع. ولا أبواب للرزق غير واحد - باب المحراث والمعول والمنجل. ولكنها سفوح منيعة - أو هي

Twitter: @ketab_n

كانت منيعة في ذلك الزمان. ومناخها لا يعلو عليه مناخ. وفيها الينابيع، وفيها البلوط واللزاب والصنوبر والأرز والسنديان. ولقد نزلوها ولا مال في جيوبهم، ولا عدّة في أيديهم غير إيمانهم بأنفسهم وبقوّة سواعدهم. فكان طبيعيّاً أن يلجأوا إلى أقرب الوسائل وأرخصها في بناء مساكنهم من غير أن ينفقوا شيئاً من المال. وما كان أندر المال وأعزّه!

وأقرب الوسائل كان الحجر والشجر والتراب. فراحوا يبنون مساكنهم من الحجارة الصغيرة (الدّبْش) يغمسونها في الطين المجبول من التراب، ويسقفونها بجذوع الأشجار، ثم يغطون تلك الجذوع بالأخشاب، ثمّ بأوراق الشجر، ثم بطبقة من التراب يرطبونها بالماء ويحدلونها بمحدلة من حجر إلى أن تتماسك فلا تخرقها الأمطار إلاّ إذا ارتخت وتشقّقت. وعندئذ يعاد إلى حدلها، ولا ينفكون يحدلونها في الشتاء كلّما انسربت دلفة من السقف. وما أكثر ما يفاجأ بعضهم بالمطر أو بالثلج وإذا الدلف في كلّ جانب من جوانب البيت. ومن هنا مَثَلهم: من الدلفة إلى تحت المزراب.

كان لا بد لكل بيت من جسر يمتد شرقاً بغرب، أو قبلة بشمال، وعليه تُلقى أطراف الجذوع. وكان لا بد للجسر من

Twitter: @ketab_n

عمود يساعده في حمل أثقاله. والعمود هذا كان يقوم في منتصف البيت ويكون إمّا من الحجر أو من الشجر. وبناء تلك المساكن ما كان يكلف القوم إلاّ مشقّة قطع الأشجار، ورصف الحجارة، ونقل التراب. وهي أعمال كانوا يتعاونون في القيام بها، وعلى الأخص أبناء العائلة الواحدة. فقد كانت العائلة، كلّما تكاثر أفرادها وتشعّبت فروعها، تزيد في عدد مساكنها، فتبنيها متلاصقة أو متجاورة، وعلى نمط واحد، بحيث تغدو حيّاً من أحياء تلك القرية يُعرف باسم تلك العائلة. فيقال: حيّ أو «حارة» بيت نعيمه أو النعيمي، وحارة بيت الحداد، وحارة بيت أبي حيدر الخ. وقد يبلغ عدد المساكن المتلاصقة السبعة أو العشرة، وكلّها بعلوّ واحد وطول واحد وسطح واحد، ولكن لكل منها مدخله الخاص. وهذه البيوت المتلاصقة كان يطلق عليها اسم «الصايح». ولعلّهم عنوا بالكلمة أنّ واحدهم إذا صاح أو نادى في طرف «الصايح» سمعه الذين في الطرف الآخر.

كان «صايحنا» ذا ستة أبواب جميعها إلى الجنوب. وكنّا نملك منها ثلاثة. ويملك أبناء عمّ والدي اثنين. وتملك السادس - في أقصى الغرب - ولا تملك غيره من حطام الأرض أرملة عجوز اسمها «أم حنا». ومن فوق صايحنا كان يمتد صايح آخر يشبهه

Twitter: @ketab_n

ويتقاعس عنه بحيث يبدو صايحنا كما لو كان «فرندة» له. وذلك الصايح الفوقاني كان للنعيميين كذلك، وكان يزعجنا تراكض أولادهم على سطحنا وما ينتج عنه أحياناً من تساقط التراب على رؤوسنا وعلى زادنا عند الأكل. وثمة صايح ثالث إلى الشرق من الاثنين السابقين يملكه فرع آخر من النعيميين ويفصله عنهما ممرّ ضيّق. تلك هي «حارة بيت نعيمه» كما وعيتها أول ما وعيت. فكانت حدودها حدود العالم الذي أعيش فيه. وكان سكانها جميع سكان دنياي.

أعود إلى البيت الذي كان مسقط رأسي. لقد كان يتوسط «الصايح». وكان بابه كناية عن لوحين من الخشب السميك وقد شُمّرا معاً. وله سكر أو «سِكّرَة» تكاد تستعصي على الوصف: خشبتان سميكتان بعرض الكفّ وطول الشبر أو يزيد، متداخلتان في شكل صليب. إحداهما مسمّرة إلى الباب عند طرفه الشرقي والثانية متحركة من تحتها يميناً ويساراً ولمسافة خمسة أو ستة قراريط لا أكثر بحيث انها لا تفلت منها. في أعلى القسم المتحرك من الخشبة التحتانية خمسة ثقوب - اثنان من كل جانب وواحد في الوسط. وفي الخشبة الفوقانيّة خمسة مسامير متحركة ومركزة بطريقة تنزل معها في الثقوب الخمسة إذا هي صاقبتها

Twitter: @ketab_n

تماماً. وعند نزولها يصبح الباب موصداً. وهذه المسامير كانوا يسمّونها «السواقيط». والسرّ كل السرّ في معالجتها بحيث تصاقب الثقوب فتنزل فيها عند التسكير وترتفع منها عند الفتح.

ولكن الذي اخترع تلك «السكّرة» العجيبة لم يفته أن يخترع لها المفتاح. والمفتاح كان عوداً بطول الشبر أو أطول قليلاً. في رأسه من جهته العليا خمسة مسامير أو «أسنان» بدون رؤوس وموزعة في مثل شكل الثقوب. حتى إذا أدخلته في «السكّرة» رحت تعالجه بصبر ولباقة إلى أن تَدخل أسنانُه في الثقوب فتدفع السواقيط التي فيها إلى فوق. وهكذا تحرّر الخشبة التحتانيّة من الفوقانيّة وتسحبها بالمفتاح إلى الوراء بحيث يخرج رأسها من مقرّه في الحائط ويصبح فتح الباب ميسوراً. وهذه العملية المعقّدة كانت تستغرق في بعض الأحيان الدقائق والدقائق. حتى لتجعل القائم بها يكفر بربّه...

أما وقد فتحنا الباب بعد عناء، فهيّا بنا يا قارئي إلى داخل البيت. إنّه بيت، على ضعته، يضحك للضيوف. وأوّل ما تطأه قدماك من أرضه منخفض في شكل نصف دائرة قطرها نحو المتر. تلك هي «العتبة». وهي مغطاة بقطعة من الحصير البالي وقد تجمعت عليها الأحذية من مختلف الأحجام والأشكال. فالعرف

Twitter: @ketab_n

يقضي على أهل البيت وزوّارهم أن يخلعوا نعالهم في العتبة كيلا يحملوا إلى الداخل ما علق بها من تراب وأوحال. و «أم ديب» تتعشّق النظافة والترتيب.

حسبك، وأنت في العتبة، أن تلقي نظرة على البيت لتعرف شكله وكل ما فيه. إنّه غرفة مربّعة لا يتجاوز طولها وعرضها السبعة الأمتار، وعلوّها الثلاثة.

أوّل ما يلاقيك، عن يمينك، قاعدة خشبية ترتفع عن الأرض نحو المتر وعليها جرّتان من الخزف بينهما إبريق من جنسهما. ذلك هو «البنك». وأم ديب كانت تملأ جرّتيها مرّة أو أكثر في النهار حسب حاجتها إلى الماء للطبخ والغسل وتنظيف البيت. فتحمل الجرّة على كتفها وتنحدر في سلالم بدائية من الحجر الرملي إلى عينٍ تبعد عن البيت نصف كيلومتر وتنخفض عنه قرابة مئة متر. تحملها في الصحو والمطر، وفي حمارّة تموز وثلج كانون الثاني. ولعلّك، وأنت تتأمّل «البنك»، تسأل نفسك عن قطعة المرآة الصغيرة المغموسة في الجدار عن يمينه - ما القصد منها؟ إنها المرآة الوحيدة في البيت، وقد تأكلت الفضة على قفاها، فهي تشوه الوجوه أكثر ممّا تبرزها على حقيقتها. لكن المثل يقول: «الكحل خير من العمى».

Twitter: @ketab_n

وأوّل ما يلاقيك عن يسارك صندوق خشبي عالٍ يشكل زاوية مع الحائط. تلك الزاوية هي «المخدع». وهي الأحب إلى الشيوخ والعجائز في الشتاء، لأنها قرب الموقد، ولأنها محصنة من الرياح الباردة التي تدخل البيت كلّما فُتح الباب. ويلي «المخدع» الموقد. وهو نصف دائرة من الطين الأحمر تعلو عن الأرض نحو الشبر وعليها تركّز القدر للطبخ، وفيها يُوقد الحطب. وأمام الموقد نصف دائرة منبسطة، وبحروف بارزة تحبس الرماد والفحم من التسرّب إلى الطراريح وجلود الغنم التي حواليها. ذلك هو «المَطلِم» أو «الحارون». وإني لأذكر كيف كنّا نضرم النار تحت القدر في ذلك الموقد، حتى إذا خبا لهيبها وامتدّ دخانها إلى سقف البيت وفي كلّ جوانبه رحنا ننفخ فيها بكلّ ما في صدورنا من قوّة. فينعقد دخانها فوق رؤوسنا، وينتثر رمادها على وجوهنا وحوالينا، وتفيض بالدمع عيوننا. ولكننا لا ننفكّ نتناوب عليها إلى أن تعود فتندلع ألسنتها. ويتّصل الموقد بإفريز من لونه وبعلوّه. أمّا عرضه فنحو الشبر، وأما طوله فنحو الذراعين. ذلك المتكأ هو «الفريزة».

في الطرف الشمالي من الحائط الذي عن يمينك خزانة من الطين تنخفض عن السقف نحو الذراع، ولا تبرز إلى الخارج

Twitter: @ketab_n

بحيث تستلفت النظر. وأنت لا تبصر منها غير ثقب مستدير في أسفلها بقطر لا يتجاوز الفِتر. والثقب مسدود بِكُرة من القماش. تلك الخزانة هي «التابوت». وهي لخزن القمح في الشتاء يُهال إلى داخلها من فوق، ويُستخرج منها عند اللزوم من الثقب في أسفلها. أمّا سطحها المنخفض عن سقف البيت فيستعمل لخزن البطاطا والبصل والثوم.

وتنتقل عينك إلى حائط الصدر فتبصر في طرفه الأيمن ستاراً أبيض مسدولاً من السقف وإلى ما فوق الأرض بنحو الذراع، وبعرض ذراعين وبعض الذراع. إنّه يخفي وراءه فجوة في الحائط هي «المَفرش» حيث تُطوي وتُحفظ اللحف والفرش والمخدّات في النهار لتخرج منه في أوّل الليل وتُفرش على الأرض للنوم. منها ما هو للضيف ومنها ما هو لأهل البيت. والفراغ الذي تحت المفرش والذي يحجبه ستار آخر هو المكان الذي تخزن فيه خابية الدبس، (وإذا كانت أصغر من خابية فهي «الدكّوجة») و «مسامن الدهن»، والعدس والحمص والبرغل، والقليل من السكّر والأرز والبن الذي لم يكن بدّ لكل بيت منه. و «المسمنة» هي الوعاء من الفخار الذي كان يُحفظ فيه لحم الضأن من بعد أن يُهَرّم ويُمَلّح ويُغلى في «الدست» فيصبح «قَوْرَمة» أو «قاوِرْمة». وعدد المسامن في البيت الواحد كان

Twitter: @ketab_n

يتفاوت بنسبة وزن الخروف الذي يذبحه كل بيت في الخريف ليكون مؤونة الشتاء. أما زيت الزيتون الذي لم يكن من محاصيل المناطق العالية فكان سكّان تلك المناطق يبتاعونه بالأواق لا بالأرطال من الزيّاتين المتجولين.

لقد كان على أولئك الجبليين أن يدّخروا أقصى ما يمكنهم من المؤونة لستة شهور في الأقل. حتى إذا انقطعت مواردهم من حقولهم وكرومهم في منتصف الخريف وإلى آخر الربيع، وإذا حاصرهم الثلج في الشتاء، استطاعوا أن يعيشوا في عزلة تامّة عن باقي العالم. وتلك هي حال الكثير منهم حتى يومنا هذا برغم ما جاءتهم به المدنية الحديثة من تسهيلات في المواصلات.

بقي أن أدلّك على «الكُوارة». إنها ذلك البرميل الكبير من الطين، المنفوخ البطن، القائم عند الطرف الأيسر من «المفرش»، والمعدّ لحفظ الدقيق. في أعلاه فوهة واسعة يُهال منها الدقيق عندما يؤتَى به من الطاحون، وفي أسفله ثقب مستدير يُخرج منه الدقيق عند الحاجة. وعلى فوهته العليا يرتكز المعجن الذي يُستعمل للعجن ثمّ لحفظ الخبز المرقوق أو «المرحرح». وهذا المعجن المصنوع من الفخار مستدير الأطراف، منشرحها ومقعّر الجوف والقاع. وهو يتسع لمؤونة أسبوع أو أكثر من الخبز. والغطاء الذي عليه هو «الصينيّة» التي يُقدّم

Twitter: @ketab_n

عليها الخبز عند الأكل. وهي مصنوعة من قشّ القمح. واليد التي حبكتها يد جدّتي أمّ يوسف.

وأخيراً نظرة إلى ارض البيت. إنها مغطاة بالحصر المحوكة من القش الغليظ. ومن فوقها، هنا وهناك، بعض «الطراريح» والمساند تستعمل للجلوس، يضاف إليها في الشتاء بساط من الصوف، أو بساط من شعر المعزى. ومن تحت الحصر تراب ممهّد وأزرق اللون لأنّه ممسوح بماء ذُوّبت فيه طينة زرقاء. وأمّ ديب كانت حريصة أن «تمسح» بيتها مرّات عدّة في الأسبوع. ولون ذلك التراب هو عين اللون الذي تراه على جدران البيت الأربعة من الأرض وحتى علوّ متر منها. وما بقي «فمطروش» باللون الأبيض كما هو الجدار القبلي من البيت وهو الوحيد الذي يُرى من الخارج.

ها أنت قد أخذت صورة إجماليّة عن البيت الذي فيه وُلدتُ ومنه درجت وإليه كنت أتردّد حتى العام ١٩١١ . وأراك تعجب لذلك البيت كيف كان يتنفّس. فثلاثة من حيطانه لا تتصل بالخارج على الإطلاق. اثنان منها يفصلان ما بينه وبين المسكنين الملاصقين له. والثالث يدعم الجبل. وليس غير واحد يطلّ على الخارج. وهو الذي فيه الباب حيث أنت. فاعلم يا أخي أن الباب ما كان يغلق في الصيف حتى ليلاً. أمّا في الشتاء فقد كانت الفجوات التي بين

Twitter: @ketab_n

جذوع السقف والحائط من تحتها تأتينا بالهواء النقي إذ هي تسحبُ الدخان والهواء الفاسد إلى الخارج. وكنّا ندعوها «أنوالاً». ولعلّها الجَدّة العتيقة لمكيّفات الهواء الحديثة.

عجيب هو أمرك يا أخي. فأنت، وقد رأيت ما رأيت، تعود فتسألني بمنتهى الجدّ والدهشة:

«وأين الصالون في هذا البيت؟»

«إنّه حول الموقد في الشتاء. وحيثما كانت الطراريح والمساند في الصيف.»

«وأين غرفة المائدة؟»

«إنها حيثما وُضعت «الطبليّة» وعليها الأدام، وإلى جانبها الصينيّة وعليها الخبز. أما الملاعق فكان الخبز المرقوق يغنينا عنها في أكثر الأحيان. وأما السكاكين والشوك فما كان لها في تناول طعامنا من مكان.»

«وأين غرف النوم؟»

«حيثما شئت أن تمدّ الفراش واللحاف.»

«وأين المطبخ؟»

«إنّه الموقد داخل البيت في الشتاء، وخارجه في الفصول الدافئة من السنة.»

Twitter: @ketab_n

«وأين الحمّام؟»

«إنّه العتبة التي رأيت تُجرّد من الأحذية التي فيها ويوضع مكانها طست كبير (لَكَنْ) وفيه الماء الساخن، ويُغلق من خلفه الباب.»

«وبيت الخلاء؟»

«أينما شئت في العراء، وفي بساتين التوت التي تكتنف حيّنا وكلّ حي في الضيعة. أو عند أقرب ساقية – وما أكثر السواقي!»

* * *

أطلت الحديث عن البيت. وما غرضي من الإطالة إلاّ أن أعطي القارئ صورة صادقة عن النافذة التي أطللت منها على العالم، وعن ذلك القفص الضيّق والرحب في آن معاً الذي كان ملجأ طفولتي وصباي وقسم من شبابي، والذي فيه صلّيت أولى صلواتي إلى أبي «الذي في السماوات»، ورفعت أولى ضراعاتي من أجل أبي «الذي في أميركا». ورجائي أن أكون أحسنت التصوير من غير أن أرهق القارئ أو أشوّش ذهنه.

Twitter: @ketab_n

من ذكريات الطفولة

ليس من السهل على ايّ منّا أن يحدّد ذكرى بعينها وأن يجزم بأنّها «الأولى» من ذكريات طفولته، ثمّ أن يحدّد السنّ التي كان فيها عندما انطبعت في ذهنه تلك الذكرى. لذلك سأسوق إلى القارئ بعض ذكريات طفولتي دونما ترتيب في الزمان.

فأنا أذكر - في ما أذكر - نفسي محمولاً على كتف أمي إلى الكنيسة. أما كم كان لي من العمر ليهون حملي على الكتف فلست أدري. وأذكر البهجة التي أشاعتها في نفسي الشموع المضاءة في الكنيسة، ورائحة البخور، وأثواب الكاهن المزركشة. مثلما أذكر الانزعاج الذي سببه لي صوت أحد المصلّين ومنظر صلعته الهائلة، ثمّ منظر صورة في الحاجز القائم بين المصلّين والهيكل. لقد كانت صورة قاتمة الألوان تمثل رجلاً بلحية كثّة، وبوجه منقبض الأسارير، وعينين عابستين لا رحمة فيهما ولا شفقة. ولشدّ ما أذهلني، من بعد أن كبرت، أن اعرف أن تلك الصورة لم تكن غير صورة السيد المسيح كما أخرجتها ريشة أحد

Twitter: @ketab_n

الرهابين في دير يوناني أو روسي...

وأذكر ذات مساء، وقد عرفت أن أخويّ ذاهبان إلى الكنيسة، كيف رحت أتوسّل إليهما أن يأخذاني معهما. وعندما رفضا لعلمهما أنّني لا أستطيع سلوك الطريق الوعر إلى الكنيسة، صمّمت على اللحاق بهما. إلاّ أنّني ما لبثت أن أدركت عجزي. فأخذت أصيح وأعول وأنتحب. وارتميت على الأرض أنكتها بيديّ ورجليّ، والدموع تنهمر من عينيّ، وصوتي يبحّ ويتقطّع من شدّة النحيب، وبي غضب عارم من نفسي لاني ما أزال صغيراً. فمتى أغدو كبيراً؟ فأشفق أخي الأكبر علي، وعاد يلاطفني لأعود إلى البيت، فما كنت أزداد إلاّ نحيباً وإصراراً. وهنا فتقت له حيلة بارعة. فوعدني، إذا أنا عدت إلى البيت، أن يأتيني بجرس الكنيسة. وفعل الوعد فعل السحر في قلبي المتفطّر غيظاً. وعدت أدراجي، ونمت ليلتي تلك وأنا أتوقع أن أقوم في الصباح فأجد جرس الكنيسة بجانبي...

ما تزال ماثلة في ذهني ذكرى دقيقة رفعتني فيها أمي على ذراعيها ووقفت بي أمام المرآة التي وصفتُ في الفصل السابق، ثمّ قالت لي: «انظر. هذا مخوّل الصغتور». إنها المرة الأولى التي فيها رأيت وجهي. وأخذت أحدّق إلى ذلك الوجه فما أصدّق أنّه

Twitter: @ketab_n

وجهي. فآنأ اعبس وآونة أبتسم. ويزعجني من ابتسامتي أنها تبدو كئيبة. ومن بشرتي أنها سمراء. وكنت أودّها شقراء. ثمّ يزعجني أنّني ما أزال صغيراً فلا أستطيع الوصول إلى المرآة العجيبة إلاّ على ذراعي أمّي.

قلت إنّه كان لي خالان: إبرهيم وسليمان. وكانا قد هاجرا منذ سنين إلى مصر حيث كانا يتعاطيان بعض المقاولات. وكان إبرهيم أكبرهما وأقدرهما. فما عتم أن جمع ثروة لا يستهان بها وأصبح ذا مركز مرموق حيث كان في مصر. وأوفد أخاه إلى بسكنتا ليشرف على بناء «حارة قرميد» لهما. وتمّ بناء الحارة وتأثيثها وزخرفتها فكانت أفخم بيت في القرية ومن أولى الحارات المسقوفة بالقرميد الأحمر. وكانت غير بعيدة عن بيتنا. وإني لأذكر الشعور الغريب الذي تولاني يوم أخذتني أمي إليها من بعد أن تمّ تأثيثها وعاد خالي إبرهيم من مصر لتمضية الصيف في ربوعنا.

لقد أذهلني أن أصعد إلى الدور العلوي من تلك الحارة على درج من حجر منحوت يصوّن جانباً منه درابزون من الحديد، وتزيّن الدرابزون رمّانات من نحاس. وأذهلني أن أدخلها من بوّابة عالية في إحدى درفتيها مطرقة في شكل يد. وتتعاظم دهشتي إذ

Twitter: @ketab_n

أراني أدرج على ملاط نظيف، مصقول فأكاد أنزلق عنه. ثمّ إذ أراني في بهو كبير مليء بالمسلّمين بين رجال ونساء. جدرانه مزركشة بالخطوط الملوّنة، وسقفه مزخرف بالرسوم. فهناك العنب والتفاح والأزاهير والعصافير والحمائم. وهناك فوق «الواجهة» الزجاجية أسدان متقابلان. ويكاد قلبي يقفز من صدري، وعيناي من وجهي، عندما تقودني أمي إلى الصالون حيث المقاعد المخملية، والكراسي الهزّازة، والمرايا المتألقة، والسجاجيد العجميّة، والستائر المقصّبة والمذهبّة. فأقول في نفسي: «هذا بيت! ولماذا لا يكون لنا بيت مثله؟» وأشعر لأوّل مرّة بالفوارق بين حظوظ الناس، ويوجعني أن يكون حظّنا أقلّ بكثير من حظّ «بيت خالي»، ويسعدني في الوقت ذاته أن يكون لي خالان «عظيمان» مثل خالي إبرهيم وخالي سليمان.

ويدعوني خالي إبرهيم إليه، ويرفعني بيديه إلى حضنه، ويقبّلني ثمّ يسألني إذا كنت من «بيت نعيمه» أو من «بيت خَلَف» أي إذا كنت أنتمي لعائلة أبي أو لعائلة أمي. وتسطو عليّ هيبته: شارباه الكثيفان الممسدان، وتقاسيم وجهه الوسيم، والرجولة التي في وجهه. ويبهرني هندامه الفرنجي الذي لا يشبه في شيء هندام الرجال الذين عرفتهم. وبالأخص سلسلة ذهبيّة

Twitter: @ketab_n

تتدلى من عروة في صدريته. وأرتبك أشدّ الارتباك مخافة أن أجيبه بما لا يريد. وإذ يكرّر عليّ السؤال اعود فأستجمع وعيي وأجيب بصوت خافت: «أنا من بيت نعيمه». فيقبلني ثانية. وعندها يدور بيني وبينه حوار كنت قد لُقّنته من قبل وأتقنته وكان يعرف أنّني أتقنه:

«شو إسمك؟»

«دعبول»

«شو بتبيع؟»

«صابون»

«وين بتحطّ الغلّة؟»

«بالسلّة»

«بَلْكي حدا سرقها؟»

«شو أنا مجنون؟!»

فيضحك خالي ويضحك الحاضرون.

إلاّ أنّني، ونحن في طريقنا إلى البيت، أعود فأسأل أمي:

«لماذا ليس لنا بيت مثل بيت خالي؟»

«لأنّنا فقراء»

«وهُمْ؟» (أعني خاليّ وزوجتيهما وجدّتي التي كانت لا

Twitter: @ketab_n

تزال على قيد الحياة).

«هم أغنياء»

«ولماذا نحن فقراء؟»

«لأنّنا لا نملك المال»

«ولماذا هم أغنياء؟»

«لأنهم يملكون المال»

وأقول بعد سكوت:

«ولماذا لا يعطينا خالي مالاً فنبني لنا بيتاً كبيته؟»

فتنتهرني أمي: «اسكت يا صبي!»

أمّا المال الذي حدّثتني عنه أمي فكان أوّل عهدي به عندما أعطتني يوماً «نحاسة» لأبتاع بها قضامي من بائع متجوّل. والنحاسة قطعة نقدية كانت قيمتها خمس القرش التركي في ذلك الزمان. ومن الأكيد أنّني كنت في الرابعة أو دونها عندما وقعتُ ذات يوم في زاوية من خزانة صغيرة على ليرة ذهبيّة. فحسبتها نحاسة وانطلقت بها إلى أقرب دكان لأشتري ملبّساً. وكان صاحب الدكان ذا وجدان. فأعطاني قليلاً من الملبّس، وأخذ مني الليرة الذهبيّة، ليعيدها بعد قليل إلى والدتي ويحذرها من ترك ذهبها في متناول ولدٍ مثلي لا يميّز بين النحاسة والليرة

Twitter: @ketab_n

الذهبيّة. ولعلّني حتى اليوم لا اعرف أيهما أثمن: النحاس أم الذهب...

كنت أسمع من أفواه الكبار كلمات كثيرة لا أفقه لها معنى. منها البذيء، ومنها البريء، ومنها ما كان بين بين. وكنت، كلما التقطت كلمة جديدة، أروح أتحين الفرصة لاستعمالها لأدلّل على غزارة قاموسي وعلى أنّ في استطاعتي أن أتكلّم كما يتكلّم الكبار. وذات يوم كانت عند أمي جارتان، والثلاث كنّ يتحدّثن في شؤونهن البيتيّة. وكنت قبل ذلك بساعات قد التقطت كلمة جديدة. وكانت الكلمة «فَشَر». وهي تعني، كما فهمت فيما بعد، المبالغة في الكذب. وقالت أمي في عرض الحديث عن أولادها، وعني بالأخص، إنّني ولد «عاقل» – أي هادئ وغير شرير. فما كان مني إلاّ أن بادرتها بقولي «فشرت!» وكان أن فركتْ أمي أذني إلى حدّ أن صرخت من الوجع. وتراني حتى اليوم كلّما سمعت تلك الكلمة تلمّستُ أذني. أما لساني فما أظنّه فاه بها مرة أخرى من بعد تلك المرة.

وأذكر، عندما بدأت أولى مراحل الاستقلال عن أمي فأصبحت أقوم بحاجة نفسي وأتجوّل في البيت وحواليه بغير رقيب أو مساعد، أنّني وجدتني أحمل قرطاً في أذني اليمنى

Twitter: @ketab_n

فيقولون «بيت النعيمي» و «شخروب النعيمي». والذين تعلّموا الكتابة قبلنا كانوا يكتبونه «نعيمي». فكأنّه النسبة إلى النعيم في صيغة التصغير. إلى أن جاءنا معلم يدّعي الفهم فعلّم أخويّ اللذين سبقاني إلى المدرسة أن يكتبا اسمهما «نعيمه» على أنّه صيغة التصغير من «نعمة». وهكذا درجنا على كتابته. وهو في كل حال ليس «نَعِيمَه» كما يلفظه البعض في مصر أو غيرها من الأقطار العربيّة.

كان جدّي بو يوسف، كما أدركته، على عتبة الثمانين، وقور الطلعة، فارع القامة، عريض المنكبين، يعتمر طربوشاً «عزيزيّاً» (نسبة إلى السلطان عبد العزيز) ومن تحته عرقية، ويرتدي عباءة نصفية من الصوف البلدي ومن حياكة بسكنتا، وسروالاً أو «شروالاً» فضفاضاً من الخام الأزرق. وهو اللباس المألوف في ذلك الزمان لمعظم القرويين في جبال لبنان. وكنت أُعجب منتهى الإعجاب ببشاشته ولطفه وابتسامته الحلوة، وبالعروق الحمر في وجنتيه. ولقد أخبرني والدي أنّه - أي جدّي - كان من القدرة البدنيّة بحيث حمل مرة على ظهره حجر رحى، وانّه كان عفيف النفس، كريماً، لا يمسك حاجة عن طالب إذا كانت في حوزته.

مات جدّي بو يوسف وأنا دون السابعة. ولكن رسوماً عدّة

Twitter: @ketab_n

له بقيت في ذاكرتي. وكلّها عزيز عليّ - إلاّ رسماً سيأتي ذكره. من تلك الرسوم واحد أراه فيه جالساً على محدلة سطحنا وقد تجمّع حواليه عدد من الرجال النعيميّين جاؤوا جميعهم ليحلقوا لحاهم بعد أربعين يوماً من الحداد على أحد الأقرباء. فتأمّل طول لحاهم! وكان في العائلة رجل واحد يملك موسى. فكان «شلبيّ» العائلة كلّها. وابتدأ الدور بجدي، وكان حليق الرأس كذلك. فأخذ الشلبي يسنّ موساه مرّة على كفّه وأخرى على حذائه. ثمّ أقبل على رأس جدي يبلّل بقعة منه بالماء ثم يدلكها بالصابونة وينبري يحلقها. ويسيل الدم من جلدة رأس جدي خيوطاً حمراء قانية هنا وهناك وهنالك. وجدّي لا يتململ ولا يتذمّر، بل يمضي في الحديث مع الذين حواليه. فكأن الدم المتفصّد من رأسه ما كان غير الجزية المحتمة للشلبيّ وموساه يدفعها بخاطر طيب وبمنتهى الرضا.

ويتكرّر المشهد في لحية جدّي وفي لحى الباقين. فيصرخ هذا من الألم، ويستنجد ذلك بربّه أو «بالقرود السود» والحلاق ماضٍ في مهمّته الشاقة، يتقبّل الشكر والمذمّة باللامبالاة، وينفخ خدّيه، ويمسح بكمّ عباءته العرق المتصبب من جبينه، ويردد ضاحكاً «هذه لحًى للفأس لا للموسى».

Twitter: @ketab_n

ورسم أراني فيه نائماً إلى جانب جدّي، وقد التهبت لوزتاي، وانحمّ بدني حتى كأنّ في داخلي أتّوناً، وكأنّ حلقي بات مسدوداً، فلا أستطيع بلع ريقي. لقد كان جدّي، طوال ذلك الليل، يتحسّسني، ويضمّني إليه، ويمسّد وجهي وجبهتي ورأسي، ويردّد في أذني: «يا روح جدّك أنت. ليت الوجع في حلقي».

ما دمت في ذكر اللوزتين فلا بأس لو أنا توقفت قليلاً لأخبر القارئ كيف كانت تجري عندنا معالجتهما في حالة التهابهما. لقد كانت في «حارتنا» عجوز نعيمية ما أظنّ أن هناك مَن هو خليق بجنان اللّه الفسيحة أكثر منها. فلَكَم خفّفت من آلامنا - نحن الصغار - كلّما ابتلينا بالتهاب اللوزتين. وذلك بعمليّة في منتهى البساطة. فقد كانت تدخل سبابتها المشقّقة إلى فم المصاب من بعد أن تضع على رأسها قليلاً من البنّ المطحون. وتمضي تضغط على اللوزة بكلّ قوّتها إلى أن تفقأها. وإذا أبَى أحد الأولاد أن يطاوعها ويفتح فمه من تلقائه استعانت بالمفتاح الخشبي الذي وصفتُه لك سابقاً على فتح فمه، وأبقت المفتاح فيه ريثما تنتهي العمليّة مخافة أن يعض الولد إصبعها. رحمات اللّه عليك يا ستي أمّ داود!

Twitter: @ketab_n

أعود إلى جدّي بو يوسف - ولكن في الشخروب هذه المرّة. وسأكلّمك عن الشخروب فيما بعد.

نحن على البيدر. والسنابل التي على البيدر سنابلنا. أما الثوران اللذان يجران النورج فليسا لنا. لأنّنا، من بعد سفر والدي إلى أميركا، لم يكن في استطاعتنا اقتناء البقر إذ لم يكن لنا - وجدّي عاجز - مَن يقوم بسياستها. جدّي جالس على النورج وفي يده حبل مشدود إلى قرنَي الثور الذي من الخارج. وأنا في حضن جدّي. وأمامنا على مقدم النورج رفش لتلقّي الزبل إذا عنّ لأيّ الثورين أن يقضي حاجته. فما كان يجوز أن يختلط الزبل بالقمح. أما البول فما كان يؤبه به.

من فوقنا سماء مجلوّة وشمس ساطعة. وأمامنا صنّين الأبيض يتلألأ في حلّة من نور. وحوالينا أشجار تغني على أفانينها العصافير، وصخور تتعالى هنا وتتراكم هناك وتنفرج هنالك عن وادٍ سحيق، رهيب. ومن تحتنا النورج تسحن أسنانه - وهي من نفايات الحديد - أضلاع السنابل فيسمع لها «خشيش» يفعل في نفسي ما ليس تفعله أبرع الجوقات الموسيقيّة في نفس أكبر عاشق للموسيقى. وأتلذّذ بالغبار الناعم المتطاير من السنابل المسحونة، والمتساقط على النورج وعلى جدّي وعليّ فلا أبالي به يدخل فمي

Twitter: @ketab_n

وأنفي ويستقرّ على أجفاني. فدورة النورج الرتيبة، والأصوات المنبعثة من تحته، ووهج الشمس على الصخور والجبال من حوالي، والنسائم اللطيفة الصاعدة إلينا من الوادي، ومنظر الثورين يلوّحان بلا انقطاع بذنبيهما - كل هذه كانت تشيع في نفسي بهجة لا تدانيها بهجة.

وبغتة يرتفع صوت جدّي خافتاً، متقطّعاً، ناعماً. فتجري في بدني قشعريرة هي نقيض القشعريرة التي يبعثها البرد أو الخوف أو الاشمئزاز. إنها قشعريرة الغبطة تأتيك دافقة وعلى حين غرة. وأسمع جدّي يغني:

«يا نخلة البالدار ناطورِكْ أسَدْ
وتْكسّرت الأغصان من كِثْر الحسدْ
أنا الزرعت الزرع جا غيري حَصَدْ
يا حسرتي ردّوا القمح لعدالنا...»

لا أفهم معنى «النخلة» لأنّني لم أكن بعد قد رأيت النخل. وأتخيلها شجرة مثقلة بالثمار الشهيّة تتكسّر أغصانها من حسد الحاسدين. ولكنني أفهم الزرع والحصاد. فتؤلمني شكوى جدّي أنّه هو الذي زرع الزرع فجاء غيره وحصده. وتجرحني حسرته على قمحه وضراعته إلى الذين سلبوه إيّاه: «ردّوا القمح

Twitter: @ketab_n

لعدالنا...» وأتمنى لو كنت كبيراً ولي ساعد مفتول لأقتصّ لجدّي من أولئك القوم الأوغاد. ويرتحل جدّي عن هذه الفانية. وأكبر. ولكن شكواه لا تبرح تلاحقني أينما توجهت في الأرض. وكذلك حسرته. يبدو لي أن شكوى جدّي وحسرته هما شكوى الملايين من الناس وحسرتهم في كل مكان - وعلى الأخص في الشرق. فما أكثر الذين يزرعون فيأتي غيرهم ويحصد ما زرعوا! وما أكثر المتوسّلين إلى الذين يغتصبون زرعهم: يا حسرتي... ردّوا القمح لعدالنا!..

وينتقل جدّي بعد حين إلى «موالٍ» آخر ما زلت أحفظ منه هذين المقطعين:

«اللّه مَعَك يا لابس الأزرق!
اللّه يعين البيهواك مَدْبوقْ!
يا حسرتي ما عدت مترجّي
اللّه لا يقطع رجا مخلوق...
يا حسرتي ما عدت مترجّي
لولا الحيا من الناس لَهجّي
وزْرَعْت نخله بعدها فجّي
والغير جايي من تمرها يذوق...»

Twitter: @ketab_n

وتأخذني نشوة من عذوبة صوت جدّي يحمله النسيم بعيداً، بعيداً - إلى رأس صنّين. ويغريني أن أتخيّل «لابس الأزرق» الذي يناجيه - مَن عساه يكون؟ وكيف يكون حتى إنّ جدّي يخاطبه بقوله: «اللّه يعين البيهواك مدبوق»؟ ولكن نشوتي يخالطها شيء من الحزن. فهنا كذلك يتحسّر جدّي على غرس غرسه فجاء الغير يسابقه إلى جَنْي ثماره.

تلك الشكاوى والحسرات التي سمعتها في أغاني جدّي ووالدي، هي عينها التي أسمعها حتى اليوم من أفواه «المطربين» و«المطربات» في شرقنا العربي، أيكون أن قمح القوم عندنا لا يزال في أعدال غيرهم؟

قلت إنّ رسوماً عدّة لجدّي بقيت في ذاكرتي. وكلّها عزيز عليّ - إلاّ واحداً. ذلك أنّ جدّي كان مصاباً في سنيه الأخيرة بإسهال مزمن. وكنت أسمع جدّتي تحذّره من أكل أشياء وأشياء. ومنها العنب. وكان المسكين يحبّ العنب. وذات يوم مرّ بنا بائع عنب ولم يكن في البيت غير جدّي. فاهتبلها فرصة لابتياع بضع أواق. وما إن دفع ثمنها وانصرف البائع حتى سمع وقع أقدام جدتي. فأسرع وخبأ العنب. وكنت أرقب حركاته وهو لا يدري بوجودي. حتى إذا خرج وجدّتي من البيت ذهبت إلى حيث كان

Twitter: @ketab_n

العنب فنقلته إلى مخبإ آخر يتعذر على أحد الاهتداء إليه. والذي دفعني إلى فعل ما فعلت لم يكن غير حرصي على صحّة جدّي وعلى التخفيف عن كاهل جدّتي وأمي في خدمته.

وعاد جدّي بعد حين وحده، ومضى توّاً إلى حيث خبأ العنب. وإذا لم يجده راح يفتش جميع زوايا البيت وهو يردد بدهشة: «يا إسم الصليب! يا صبر أيّوب!» وكنت أشهد ما يجري وأتظاهر كمن لا علم له بشيء. وظنّ بي جدّي السوء. فسألني إذا كنت قد أكلت العنب. فأنكرت وزكّيت إنكاري بقولي: «لا شِفْت عنب. ولا ذقت عنب».

في ذلك الخريف مات جدّي. مات وفي نفسه شهوة العنب، ومع الشهوة الحيرة في اختفاء الأواق الثلاث التي ابتاعها منه ذات يوم من أيام ذلك الخريف. إِيهِ جدّي بو يوسف! ما أظنّ إلاّ أنّك غفرت من زمان لحفيدك المسمّى باسمك فعلته النكراء تجاهك. فهو لم يقترفها نكاية بك. معاذ اللّه! بل أقدم عليها رأفة بك، وبامرأتين كانتا تعولانك، وكان يحبّهما مثل محبته لك. وها هو يعترف لك اليوم بما كان ويودّ لو أنّه لم يكن.

مات جدّي بو يوسف - كما مات والدي بعد سنين - ميتة أترجى لنفسي مثلها. فقد أحسّ قبيل الغروب برعشة في

Twitter: @ketab_n

جسمه. فطلب إلى جدّتي أن تمدّ له الفراش وأن تغطّيه بأكثر من لحافه المعتاد. وبعد قليل فارقته الرعشة ولم يلبث أن استسلم للنوم. ولكنه نوم انتهى بعد ساعة أو أكثر إلى حيث لا نبض ولا استفاقة. وكان والدي قد عاد من غربته قبل ذلك بعام. فكانت عودته خير العزاء لوالده في آخر حياته، بل خير العزاء للاثنين. فالمحبة التي كانت تربطهما لم تكن تعلوها محبة. وقد جاوز جدّي من عمره الثمانين.

في جدّي بو يوسف وستي أم يوسف جمع اللّه النقيضين. لقد كان مهيب الطلعة، عامر البنية، ذكي الفكر والفؤاد، كريماً ضمن طاقته، مدبّراً حكيماً لأعماله وشؤون بيته. وكانت قصيرة القامة، زهيدة الجثة، بسيطة العقل والقلب، مبذّرة بغير حساب، ولا ذوق لها في ترتيب بيتها وتدبير شؤونه. لذلك أدرك جدّي في الحال البون الشاسع بينها وبين أمّي. فكان يقول لأمي كلّما سنحت الفرصة: «أنت أخت الرجال. يا ساعة البيضا اللي جيتينا فيها. لولاك بيتي خراب!» وكان على حق في قوله. فأمي كانت على جانب كبير من الذكاء الفطري، ورهافة الحسّ، وسلامة الذوق، وبعد النظر في تدبير بيتها وتربية أولادها. أمّا طموحها إلى تحسين حالها فلم يكن يعرف الحدود.

Twitter: @ketab_n

إلاّ أن ستي أم يوسف، على بساطتها، كانت تعمل وكأنّ أعصابها من فولاذ. فلا تشكو التعب، ولا تعرف الراحة إلاّ عند الأكل والنوم. في الربيع تصنع أطباق دود القز من زبل البقر والخرق البالية. وتساعد والدتي في تربية الدود منذ أن يفقس وحتى يوم «القطاف» - أي يوم جمع الشرانق عن «الشيح». وفي الصيف الذي كنّا نمضيه جميعنا في الشخروب كنت أراها في الحقل، وبين الصخور تقتطع أعشاباً بعينها لتجدل منها المكانس للبيت، وعلى البيدر تجمع رزماً من السنابل الطويلة، السمينة، لتحوك منها الصواني للخبز، أو تساعد في غربلة القمح، ثم في تصويله من بعد نقله إلى البيت. وقلّما رأيتها تخرج من البيت وتعود إليه إلاّ وعلى كتفها أو في يدها شيء - ولو ضمّة عشب للخروف أو عود من الحطب للموقد. فقد كانت تردّد دائماً على مسامعنا: «الإيد الفاضية مِجْويّه» أي ان اليد الفارغة يد نتنة. وكانت تؤكد لنا أن الذي يعود إلى البيت ولا شيء في يده ينتفع منه البيت «تعتَب عليه العتبة». وإذا لم يكن ما تفعله في البيت أو في الحقل كانت تأخذ مغزلها وتغزل الصوف الذي منه كانت تحاك جواربنا في الشتاء. أو انها كانت ترفأ ثيابها وثياب جدّي. أمّا ثيابنا نحن الأولاد فما كانت أمّي تؤمنها على الاعتناء بها.

Twitter: @ketab_n

إلى جانب أشغالها الكثيرة في ما يؤول إلى احتياجات البيت كانت ستي أمّ يوسف تقوم لدى قسم كبير من نساء القرية بوظيفة القابلة. وتلك الوظيفة كانت أحبّ إليها من أي وظيفة أخرى. فما إن تأتيها دعوة من فلانة أو أم فلان حتى تترك جميع ما بين يديها من أشغال - وإن تكن ملحّة - وترتدي خير ما عندها من ثياب، وتهرول إلى حيث يستعدّ جنين من الأجنّة البشريّة أن يهجر حبسه المظلم ليطلّ على دنيا نورها ظلام. ويا لفرحتها إذا انكشف الجنين الحبيس عن غلام. إنها لفوق فرحة الأم والأب.

وتمضي ستي تعتني بالمولود الجديد ووالدته. فلا تعود إلى البيت إلاّ لماماً في خلال يومين أو ثلاثة. أما مكافأتها على أتعابها فقلّما تجاوزت «الزهراوي» (ستة قروش تركية)، وكثيراً ما كانت حدودها «لوحاً» من الصابون الطرابلسي مشفوعاً بالدعاء المعتاد: «سلّم ديّاتك يا أمّ يوسف. اللّه يقدّرنا على مكافأتك». ومن الأمور التي كانت تباهي بها ستي أنها، طيلة السنين التي تعاطت في خلالها مهنة التوليد، لم يحدث أن مات وليد أو ماتت والدة على يدها.

كثيراً ما كان يعتكر الجوّ ما بين أمّي وستي لأسباب وجيهة

Twitter: @ketab_n

وغير وجيهة. وفي الغالب تكون أمّي البادئة. فقد كان يزعجها من ستي، رغم تقديرها لنشاطها، أنها لم تكن تأنف من أن يسخّرها الغير في قضاء شتى الحاجات، فتندفع فيها فوق اندفاعها في أشغال بيتها. وانها لم تكن من حسن الدراية والترتيب في شؤون البيت حيث كانت تتمناها أن تكون. وأنّها - ولعلّ ذلك الأهمّ - كانت تعطف على عمّةٍ لي وأولادها فوق عطفها على ابنها الوحيد وأولاده. أو هكذا كان يتراءى لأمّي. ولكني أخبرت أن أمّي، عندما باتت ستي طريحة الفراش وغير قادرة على القيام بحاجة نفسها في أواخر عمرها، كانت تخدمها كما لو كانت أعزّ الناس لديها. حتى إن ستي حاولت غير مرّة أن تقبّل يديها من شدّة امتنانها. ولَكَم ردّدت على مسامعها: «أنت أمي. أنت بنتي. ما لي غير اللّه وانت. اللّه يكافيك عني. اللّه يخلي لك جوزك وأولادك ويجبرك بآخره صالحه...»

كانت وفاة ستي إبّان الحرب العالميّة الأولى. ولم أدر بها إلاّ بعد نهاية الحرب. إذ أنّني كنت لا أزال في المهجر. وعندما جاءني الخبر ارتسم وجهها الطاهر امام عينيّ بأخاديده العميقة في الجبهة والخدّين، وأنفه الدقيق، وعينيه الصغيرتين؛ وتمثلت المنديل الأسود يغطي رأسها، ويديها الصغيرتين وقد خشّنهما شظف

Twitter: @ketab_n

العمل. فشقّ عليّ أن لا يتاح لي تقبيلهما قبل أن ينهشهما الدود. واكتفيت بأن خاطبتها في قلبي:

«سهّل اللّه طريقك يا ستي أمّ يوسف بعد مماتك على قدر ما كان شاقّاً في حياتك».

Twitter: @ketab_n

بسكنتا والشخروب

لبسكنتا والشخروب أثر في حياتي لا أستطيع حصره وتحديده. فلا بد من كلمة، ولو عابرة، عنهما.

أما بسكنتا فاسمها، في الغالب، سرياني. وهو يعني في رأي بعضهم «بيت السكن». وفي رأي آخرين «بيت القضاء». وهنالك من يقول إنّه مختزل من «بيت سنكن يتن». و «سنكن يتن» فيلسوف فينيقي يقال إنّه عاش قبل حرب طروادة، وإنّه اختار السكن في سفح صنّين. وليس يهمّني معنى الاسم بقدر ما يهمني المسمّى. وقد يهمّ القارئ أن يعرف اللفظ الصحيح للاسم. فنحن وأهل الجوار نلفظه بفتح أوله وتسكين ثانيه وكسر ثالثه - بَسْكِنْتا. ولأسباب أجهلها تصرّ إدارة البريد اللبنانيّة على كسر أوّله. فالخاتم الرسميّ يجعله بالإفرنجيّة **Biskinta** .

إلى الشرق من بيروت، وعلى بعد خمسين كيلومتراً وارتفاع ألفين وسبعمئة متر، ينتصب جبل صنين - أشهر جبال لبنان وأجملها. وهذا الجبل مغطى بالثلج نصف السنة يكوّن مع

Twitter: @ketab_n

الجبال والتلال القائمة عن جانبيه نحو الغرب فوهة هائلة كأنّها البركان. وهي أشبه ما تكون بعلامة استفهام يخرقها وادٍ رهيب يبتدئ في الشخروب وينتهي عند مصبّ نهر الكلب، ويُعرف قسم منه باسم «وادي الجماجم». وهو قريب من بسكنتا وفيه يمرّ طريقها إلى بيروت.

تتكوّن السفوح الشمالية في تلك الفوهة من صخور رمليّة تغطيها غابات شاسعة من الصنوبر. ومن تحت تلك الغابات تنتثر بيوت بسكنتا، متقاربة هنا، متباعدة هناك. بحيث أن الرقعة التي تشغلها، لو هي استُثمرت كلّها لبناء على نمط المدن الحديثة، لاتّسعت لمدينةٍ سكانها ثلاثمائة ألف نسمة ويزيد. أمّا ارتفاع البلدة عن سطح البحر فيراوح بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ متر، إذ أن الانحدار من أعلى بيت إلى أسفل بيت فيها يبلغ لا أقلّ من ثلاثمائة متر، وذلك على امتداد كيلومتر أو أكثر قليلاً.

تخترق بسكنتا من الشمال إلى الجنوب سواقٍ عدة، حفرتها على مدى السنين سيول الشتاء والأمواه المتساقطة من الجبال عند ذوبان الثلج في الربيع. وضفاف هذه السواقي عامرة أبداً بشجر الدلب الجبّار يخالطه في بعض الأماكن قليل من الحور والصفصاف والجوز. ويفصل بين الساقية والساقية سنام من

Twitter: @ketab_n

الأرض يرتفع وينخفض، ويتسع ويضيق حسب تكوين السفح. ولكنه كثيراً ما يحجب البصر عمّا بعده. لذلك يستحيل على الواقف في أوّل بسكنتا أن يبصر آخرها؛ وفي وسطها أن يبصر أوّلها وآخرها؛ وفي أسفلها أن يبصر أعلاها.

تغرق اليوم بسكنتا في جنائن من الفاكهة. فتبدو سطوحها الحمر كأنّها الياقوت في بحر من الزمرّد. وكانت حتى نهاية الحرب العالميّة الأولى تغرق في بساتين التوت. إذ كان معوّلها الأكبر على تربية دود القز. ولكنّ أهلها النشيطين، أسوة بغيرهم من سكان لبنان القديم، ما لبثوا أن استبدلوا الفاكهة بالفيالج حالما شعروا بأن سوق الحرير الطبيعي إلى البوار. والذي يساعدهم على الانصراف إلى تربية الأشجار المثمرة وفرة الينابيع المنبجسة من بطون جبالهم. وأشهرها وأغزرها نبع صنّين الذي يروّي قسماً كبيراً من الأملاك داخل البلدة وخارجها. وأملاك بسكنتا تمتدّ حتى رؤوس الجبال المحيطة بها. فما منها ضمن حدود البلدة فهو «الضيعة». وما كان منها خارج الحدود فهو «الجُرْد» (الصرد). ولأن معظمهم يملك أرضاً في الجرود، تراهم ينزحون في الصيف عن الضيعة إلى الجرد حيث يهتمون باستثمار أملاكهم ريثما يدركهم الخريف والبرد، فيعودون إلى الضيعة.

Twitter: @ketab_n

كانت بسكنتا في أيّام حداثتي، وحتى الاحتلال الفرنسي، مركز مديريّة. وكان سكانها نحو الألفين، والهجرة في عنفوانها. أما اليوم فسكانها في جوار الخمسة الآلاف - ثلثاهم من الموارنة، والثلث من الروم الأرثوذكس. وقد خفّت بينهم حدّة الهجرة، مثلما خفّت حدّة الطائفية، حتى لتكاد تحسبهم طائفة واحدة. أمّا في حداثتي فقلّما كان ينقضي عام لا تحدث فيه بعض المناوشات بين الشبان الموارنة والشبان الروم.

ولأنّ صنّين والجبال التي عن جانبيه كانت تحجب أبصارنا عمّا وراءها فقد كنت في صغري أحسب أن العالم كلّه ينتهي في بسكنتا، وأن لا شيء بعدها وبعد صنّين، وأنها أعظم ما في العالم، وصنّين أعلى جبال الأرض على الإطلاق. ولكَم آلمني فيما بعد أن أعرف أن بسكنتا بمن فيها لن تملأ غير جانب من ناطحة سحاب، وأن صنّين يكاد يكون أكمة بالنسبة إلى إفرست. ولكنني باقٍ على حبي للاثنين، وعلى إعجابي بروعة الجمال المخيّم فيهما وفوقهما.

والآن الى الشخروب!

الاسم تحريف طفيف لكلمة عربيّة فصيحة هي «الشُّرْخوب» ومعناها «عظم الفقار». وأغلب الظن أن

Twitter: @ketab_n

الشخروب دُعي كذلك لأنّ الطريق القديم الذي يمرّ في أسفله ويصل سهل البقاع ببسكنتا، مرصوف بالحجارة حتى إن الحافر والرِّجل يكادان لا يطآن فيه تراباً. وما رصفته أيدي الناس، بل يد الطبيعة، فهو يشبه السلسلة الفقريّة.

يقع الشخروب على بعد خمسة كيلومترات إلى الشرق من بسكنتا ويرتفع عنها ثلاثمائة متر. وهو بتكوينه يشكّل شبه مثلّث تحصره من الغرب والشرق ساقيتان تلتقيان إلى الجنوب في واديه، ومن الشمال سلسلة من الصخور الشاهقة تتخلّلها بعض الفجوات. ويبلغ أقصى اتّساعه غرباً بشرق نحو نصف الكيلومتر. ومثل ذلك، أو أقل، أقصى امتداده شمالاً بجنوب. وتنحدر أرضه انحداراً سريعاً إلى الوادي بحيث أن الصاعد من أسفله إلى اعلاه يحسّ كما لو كان يتسلّق سلّماً.

تكثر في الشخروب الصخور من شتى الأحجام والأشكال، وكلّها كلسيّ، رمادي اللون، صلب الفؤاد. منها الضخم المنبطح على الأرض حتى إن ظهره ليتسع لبناية كبيرة. ومنها المتدثّر بالتراب فلا يطلّ منه عليك غير قسم قد لا يجاوز حجم الرأس. ولكنك، إذا حاولت اقتلاعه، وجدته يمتد تحت الأرض إلى مسافات بعيدة. ومنها المنتصب كالمارد بقامة يبلغ ارتفاعها مئة

Twitter: @ketab_n

قدم وأكثر - كتلك الصخور التي تشكل حدود الشخروب الشمالية، والتي فتّتت العناصر شيئاً من قواعدها فبرز البعض منها في شكل طنف بإمكانك أن تحتمي تحته من الشمس والمطر. وهذه الأطناف الواسعة والعالية عن الأرض تتعشّقها طيور الخطّاف والسنونو لتبني في سقوفها أعشاشها العجيبة. فتراها في الربيع والصيف في حمّى من الحركة، حتى كأن أجنحتها البديعة لا تعرف التعب.

من تحت تلك الصخور الباسقة تمرّ قناة نبع صنّين. ولكَم جلَست في حداثتي على حافّة تلك القناة أبرّد في مياهها الصاقعة يديّ ووجهي ورجليّ. وأعد أوكار السنونو في الطنف العالي من فوقي، وأرقب تلك الأطيار البديعة، الوديعة، تبني أوكارها أو تزق فراخها. بل لكم نزعت عني ثيابي عند اشتداد الحرّ في الصيف، ومدّدت جسمي في تلك القناة ورحتُ أنتشي بمياه صنّين تترقرق من فوقي ومن تحتي وحواليّ فتغمرني بغبطة ما بعدها غبطة، وأنا على أكثر من اليقين بأني وحدي في ذلك العالم المسحور، لا عين تراني غير عيون الخطاف والسنونو والأعشاب عن جانبي القناة، ولا أصوات تقرع أذنيّ غير أصوات العصافير، وهينمات النسيم، وكركرة الماء في القناة.

Twitter: @ketab_n

إيه نماريد الشخروب بأطنافك البديعة، وأوكارك العجيبة، وقناتك الشادية، وظلالك الناعمة! يا لعذوبة ما همسته - ولا تزالين تهمسينه - في وجداني! وإني لعارف لفضلك. وعلى حبك لمقيم.

مثلما تكثر الصخور في الشخروب تكثر الأشجار البرية كذلك، كالبلوط والسنديان والبرقوق والزعرور والبطم وغيرها، وتكثر مع الأشجار الأشواك والأعشاب من شتى الأنواع. وهذه تزهر في الربيع. ولكلّ منها لونه الخاص وشذاه الذي يتفرّد به.

وكان زمان - كما أخبرنا والدي - لم يكن فيه ظل شجرة واحدة في الشخروب. لأن الأرض كلّها في سفوح صنّين كانت مباحة للمعزى وغيرها من الماشية. فما إن يحصد الناس زرعهم حتى تقبل المعزى فلا تترك في الأرض نبتة خضراء. ولَحَظ أحد أسلافنا مرّة فسيلة من البلوط في مكان يتعذّر على المعزى الوصول إليه. فقرّ رأيه ورأي إخوته على حماية الأرض من المعزى. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. ولكنّهم عندوا وأصرّوا على عنادهم. وكانت بينهم وبين رعاة المعزى مواقع. وكان النصر حليفهم. وإذا بأرضهم، بعد سنين، تُنبت الشجر. ومنه شجرة بلوط قريبة من الكوخ الذي بنوه ليكون مسكنهم في الصيف. وقد تواصوا فيما

Twitter: @ketab_n

بينهم بالحفاظ على تلك الشجرة لتبقى من بعدهم ذكرى لأولادهم وأحفادهم. وها هي تلك البلوطة - ونحن ندعوها «الشّبّوق» - لا تزال تظللنا حتى اليوم وقد طوت من عمرها القرنين. وأنا ما تفيّأت ظلها الوارف مرّة إلاّ دعوت لأرواح الجدود الذين حفظوها لنا بفيض من الرحمات والبركات.

لست أدري - ولا كان والدي يدري - ما الذي اجتذب أجدادنا إلى تلك البقعة من الأرض في سفح صنّين، ومتى كان ذلك. فهم، في ذلك الزمان البعيد، ما كانوا يجنون منها غير القليل من القمح يزرعونه حيثما وجدوا فسحات من التراب بين الصخور، ويوسّعون تلك الفسحات جهد المستطاع. فما اتّسع منها للمحراث حرثوه بالمحراث. وما لم يتّسع للمحراث نكتوه بالمعول. لقد كانوا في حرب دائمة مع الصخرة والشوكة والعوسجة. وكذلك كان والدي، وما نزال نحن حتى اليوم. إلاّ أنّ جهودنا المتعاقبة، المتواصلة، بدّلت الكثير في ملامح الشخروب. فحيث كنّا في عهد طفولتي وصباي لا نجني منه غير القمح وبعض الخضار كالبطاطا والبصل والخيار واللوبياء أصبحنا اليوم نجني من الفاكهة أجودها وأشهاها، ومن الخضار أصنافاً ما كانت تخطر لأسلافنا في بال. وذلك لم يتمّ لنا إلاّ ببذل جهود شاقّة في تحطيم الصخور، واقتلاع الأشجار البرية،

Twitter: @ketab_n

وتحصين التراب بالجدران، وتسويته بطريقة يصبح معها صالحاً لغرس الفاكهة وزرع الخضار. ولست أشكّ في أن جدّي بو يوسف لو عاد اليوم إلى الشخروب لضاع عليه الكثير من معالمه، ولما صدّق عينيه إذ يبصر فيه الجنائن، والأرض التي كانت وعراً فأصبحت ممهّدة كالكفّ.

أوّل عهدي بالشخروب كان لنا فيه كوخ مبني ومعقود بالحجر البرّي لم تهندمه يد بنّاء ولا شدّه أي طين بعضه إلى بعض. وكان غرفة واحدة مستطيلة يواجه بابها صنّين إلى الشرق. وكنّا نقتطع مؤخّرتها بحاجز من أغصان الشجر لإيواء الكباش التي كنّا نسمّنها في الصيف لنذبحها في الخريف ونصنع من لحمها «القورمة» أو «القاورمة» للشتاء. وكنّا ندعو ذلك الكوخ «القبو». وكان أهل الجوار يحسدوننا عليه لأن معظمهم كان يكتفي بخيمة من أغصان الشجر يأوي إليها في الصيف. حتى إذا حدث وأمطرت السماء قبل أن يرتحل إلى الضيعة ارتبك وتضعضع وما بقي يدري أين يختبئ ويخبئ حوائجه من المطر. وإلى جانب الكوخ كانت لنا مصطبة تحت البلوطة الكبيرة نجلس عليها في النهار. وخلف الكوخ كان التنور الذي فيه يخبز الخبز.

إلاّ أن القبو القديم لم يلبث أن تزعزع. فاستعاض والدي

Twitter: @ketab_n

عنه بقبو جديد أكبر منه وأحدث هندسة. حتى انّه كان يبدو لنا قصراً بالنسبة إلى القديم. فقد كان مؤلّفاً من ثلاث شقّات - بهو في الوسط مدخله قنطرة بدون باب، وعن جانبيه غرفتان في مثل حجمه. وهذا «القبو» الجديد الذي شيّد سنة ١٩٠٥ كان معقوداً كذلك ومبنيّاً بالحجر البرّي وبدون طين. وعندما أخذت جدرانه الخارجية تتداعى منذ أعوام قريبة اضطررنا إلى هدمها وإقامة جدران حديثة مكانها، وفتح الشبابيك والأبواب فيها، وإضافة رواق إليها. على أنّنا احتفظنا بالعقد واكتفينا بأن غلفناه بالطين. أما المصطبة الصغيرة التي تحت «الشبّوق» أمامه فقد باتت اليوم سطحاً واسعاً من الباطون المسلّح.

بالإضافة إلى الطريق القديم الذي لا يزال يستعمله بعض أهل الجوار يمتدّ اليوم في القسم الأعلى من الشخروب طريق حديث للسيارات. وهذا الطريق المعبّد بالاسفلت حتى نبع صنّين حيث المقاهي الصيفيّة التي يؤمّها الناس من لبنان وغير لبنان قد أفقد الشخروب جانباً كبيراً من روعة عزلته وسكينته، مثلما جنى على عصافير، حتى ليكاد هذا الصنف اللطيف من المجنّحات المغرّدات ينقرض وتقفر منه صخورنا وجنائننا وغاباتنا...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

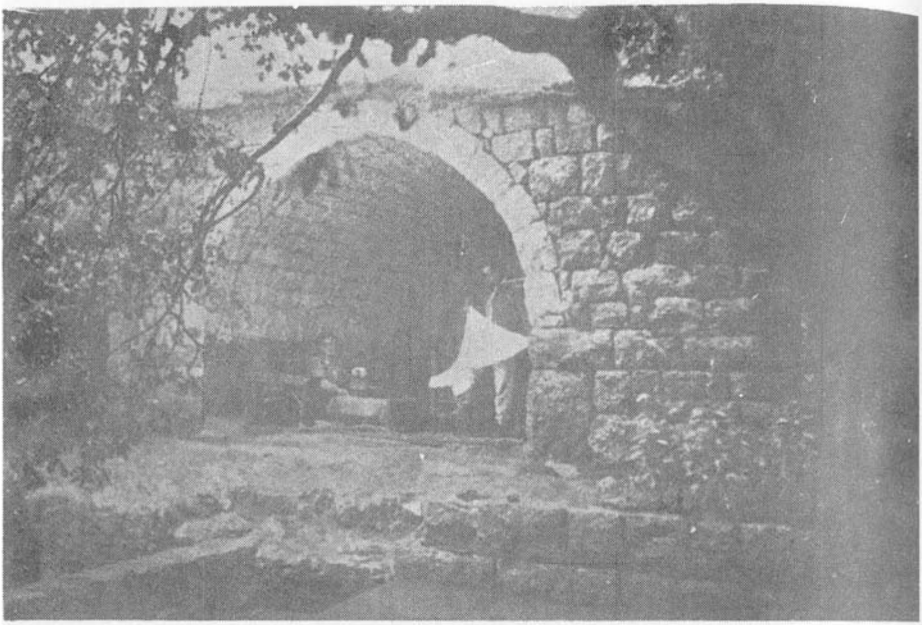

الكوخ أو «القبو» القديم في الشخروب

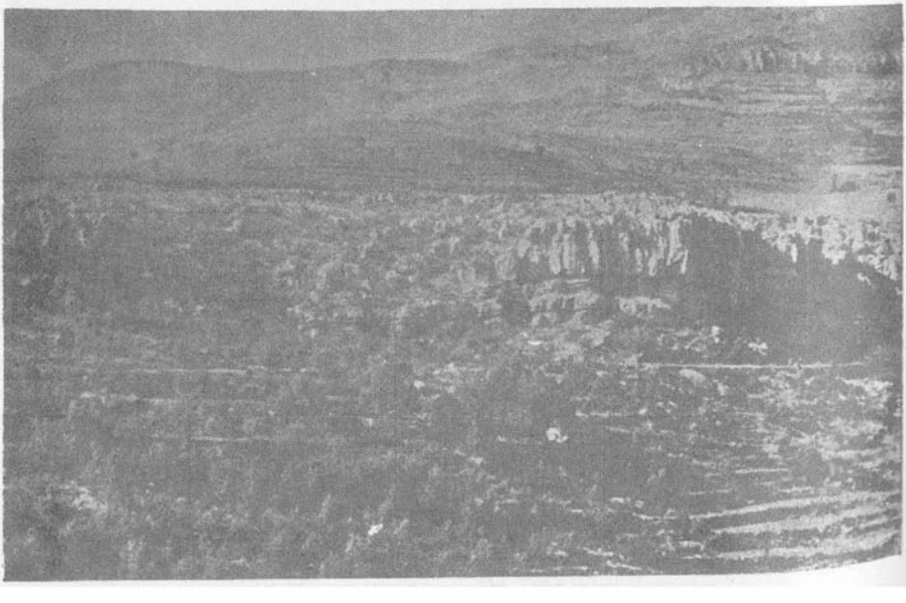

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

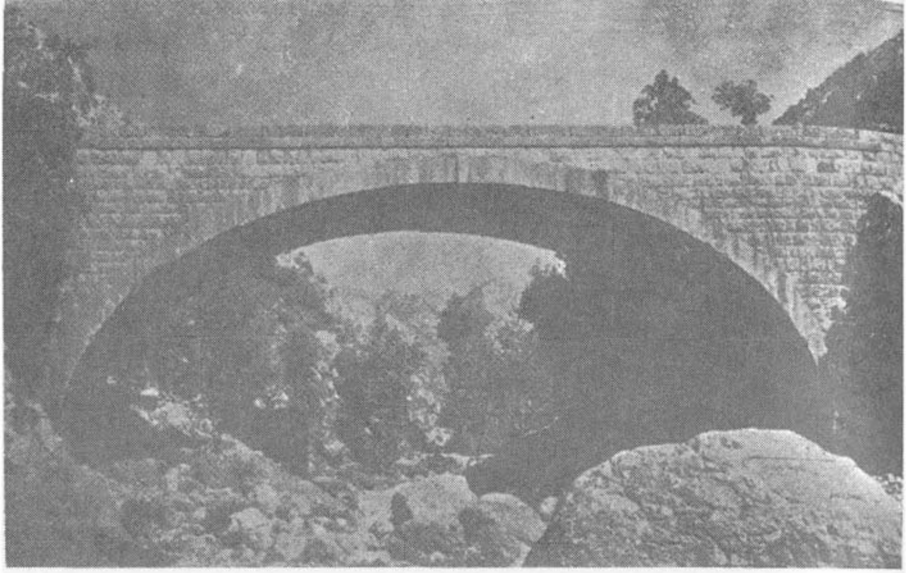

جسر وادي الجماجم

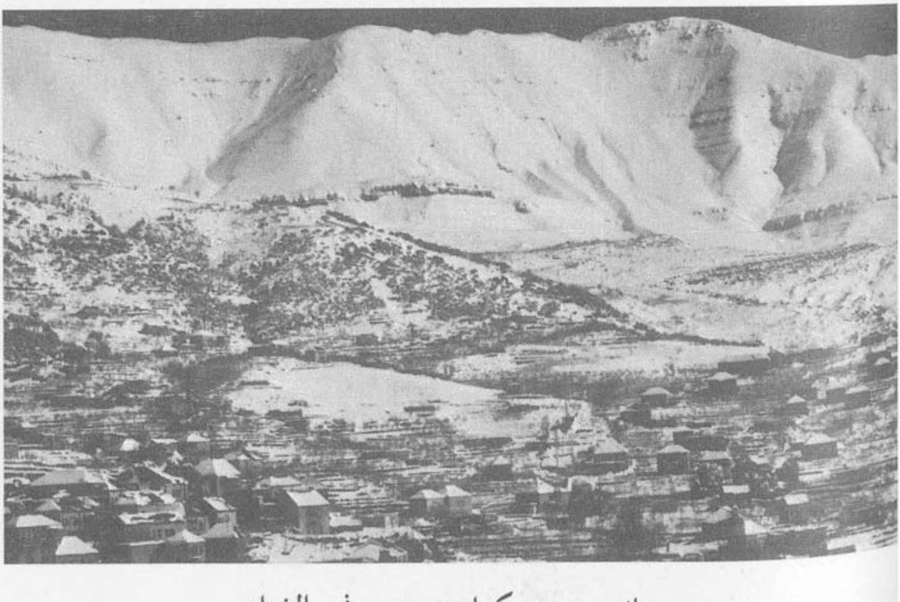

جانب من بسكنتا مع صنين في الشتاء

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

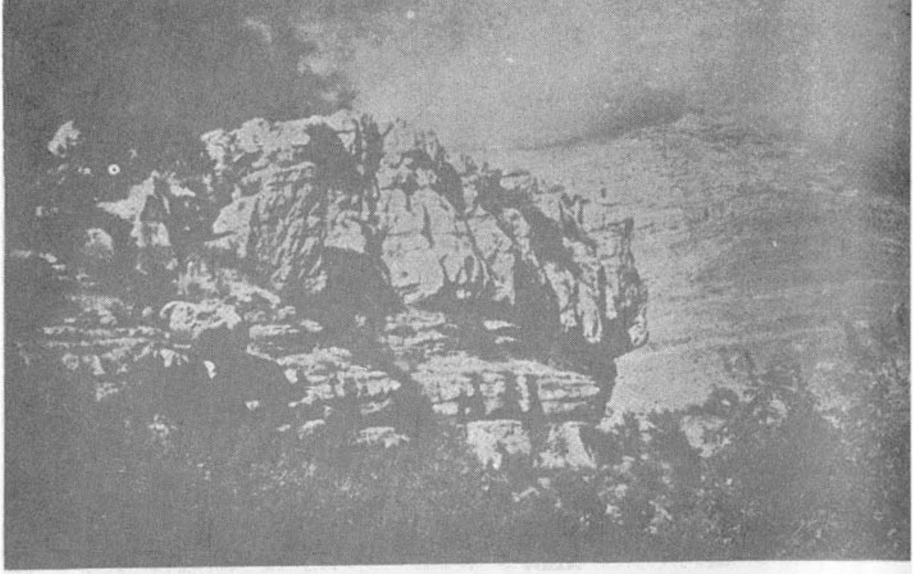

شواهق الشخروب

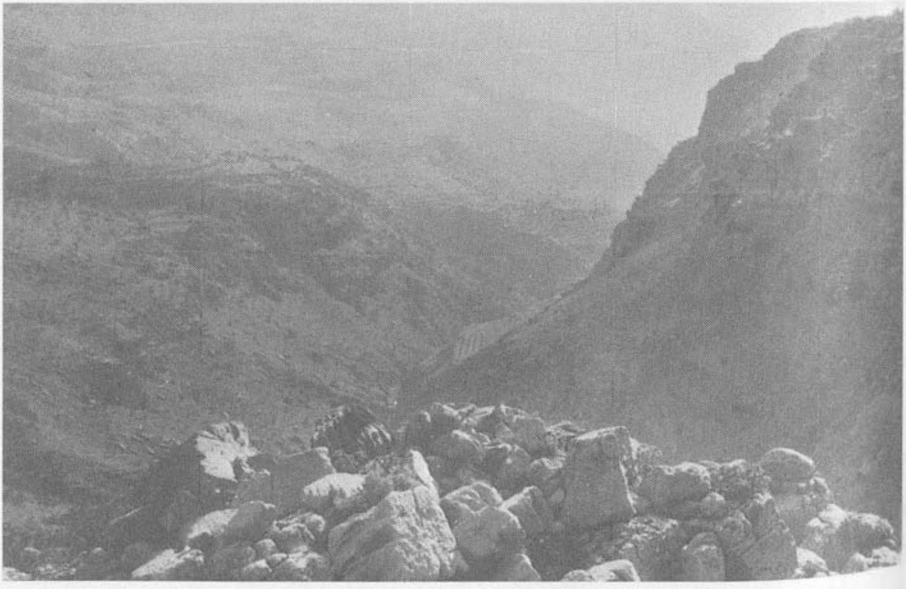

وادي الشخروب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

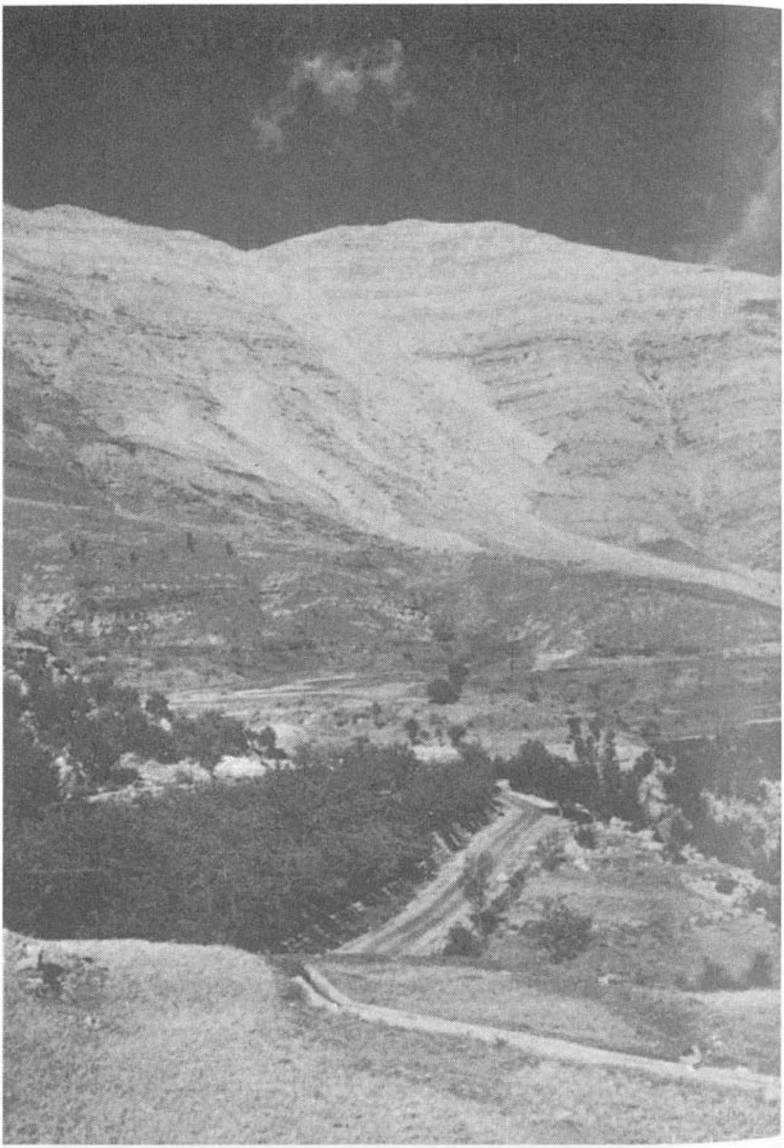

بستان الكرز - يسار الطريق - في الشخروب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه الصورة التي رسمتها لك عن الشخروب قد تعطيك فكرة عن تكوينه الجغرافي. ولكنها صورة ممسوخة ومشوّهة إذا أنت لم تسعفني بخيالك على استكمال ألوانها التي تستعصي على أيّ ريشة، ومعانيها التي هي اعمق من أن يغوص عليها أيّ قلم.

ماذا يجديك قولي إن الشخروب بقعة صغيرة في سفح صنّين تكثر فيها الصخور والأشجار والأشواك والعصافير، وأنت لم تعاشر، مثلما عاشرت، تلك الصخور والأشجار والأشواك والعصافير؟ ولا عرفت، مثلما عرفت، أنها تزخر جميعها بالحياة والحركة ليل نهار؟ ولا أبصرتها، مثلما أبصرتها، عند بزوغ الفجر، وفي وهج الظهيرة، وقبيل غروب الشمس، وفي ضوء النجوم والقمر؟ فلا أنت رأيت عصفور «النقّار» يتسلّق أضالع الصخور بأظافره الحادة، ولا أنت سمعته يغني أروع أغانيه إذ هو يمعن في التسلّق. ولا أنت تفيأت شجرة من شجرات الشخروب وسكرت بما يدور من وشوشات ما بين أوراقها والنسيم. ولا أنت أدمتك شوكة من أشواك الشخروب فوقفت تمسح بكفك ما سال من دمك ثم أخذت عصاك وانقضضت بها على الشوكة الجانية تهشّمها تهشيماً، كما كنت أفعل في صباي. ولا أنت رافقت،

Twitter: @ketab_n

مثلما رافقت، قطعان البقر والغنم والمعزى وهي سارحة في مراعيها، وسمعت، مثلما سمعت، خوارها وثغاءها إذ هي تعود في المساء إلى مرابطها وزرائبها.

وماذا أقول في القوافل التي كانت تسلك الطريق القديم في الشخروب قادمة من الشرق - من وراء صنين - من سهل البقاع، ومن غوطة الشام، وحتى من حوران البعيدة؟ قوافل الجمال والبغال والحمير تحمل إلى جبالنا الحنطة والتبن وغير ذلك من الموادّ الحيويّة التي كانت تفتقر إليها جبالنا. أتسمع، مثلما أسمع، شقشقة ذلك الجمل الذي زلّت به القدم على الحجارة الملساء في الطريق فهوى بحمله الثقيل إلى الأرض؟ أم تسمع حداء الحادي، وأجراس القافلة، وشكوى الشبّابة، وغناء المكاري في سكينة الليل؟

ثمّ ماذا يجديك قولي إن وادي الشخروب وادٍ عميق، وأنت لم تتزحلق على صخوره مثلما تزحلقت، ولا لفّتك ظلاله السحريّة مثلما لفّتني، ولا سمعت همسات سكينته مثلما سمعت؟

وأخيراً ماذا يجديك قولي إنّ صنين يبدو كما لو كان على مرمى حجر من الشخروب؟ فلا عيناك تشبّعتا مثل عينيّ بمناظر

Twitter: @ketab_n

أخاديده وأفاريزه ومنحدراته، وبرقصة الأنوار والظلال العجيبة على جبهته، وبجلال النسور تحلّق في أجوائه. ولا رجلاك تسلّقتا مثل رجليّ أضالعه حتى قمّته. ولا أنت أصغيت، مثلما أصغيت، إلى زمجرة أعاصيره وهينمات نسماته. ولا جلست، مثلما جلست، على الثلج في أعاليه والشمس من فوقك تكاد تشويك شيّاً. ولا وقفت على قمّته وشعرت كأنّك واقف على قمة الدنيا.

هل رأيت البدر يستريح على ذراع صنين؟ أم رأيت الشمس تبزغ من فجوة بين كتفيه ندعوها «معبور الغزال» ثمّ هتفت، مثلما كنا نهتف أيام حداثتنا: «شرقت الشموسة!» لقد كنا، ونحن احداث، نبتهج بشروق الشمس في الشخروب لأسبابٍ عدّة. أهمّها اننا كنّا ننهض - أو نُكره على النهوض - من النوم مع الفجر لنرعى ما عندنا من غنم. وكثيراً ما كنّا نحسّ لذعة برد حتى في عنفوان الصيف. لذلك كنّا في كل صباح نرقب بفارغ الصبر موكب الأشعة إذ هو يتسلّق التلال إلينا من شاطئ البحر فلا يدركنا إلاّ بعد ساعتين أو أكثر من بزوغ الفجر. وما ان تطلّ الشمس من فوق صنين حتى نأخذ نقفز من الفرح ونصيح: «شرقت الشمّوسة!» ونحسّ الدفء يتغلغل في أجسادنا. ومن ثمّ فشروق الشمس كان إيذاناً لنا بقرب انتهاء مهمّتنا. إذ أن الغنم

Twitter: @ketab_n

تنقطع عن الرعي حالما يشتدّ بها الحرّ.

هذه كلّها، وكثير غيرها يا قارئي، ألوان لا تكتمل صورة الشخروب بدونها. لذلك رجوتك أن تسعفني بخيالك. وأنا ما أطلت الحديث عنها إلاّ ليسهل عليك أن ترافقني في هذه الرحلة التي هي رحلة عمري. فالشخروب محطّة من أهمّ محطّاتها. فهو كان، وما برح، «الجُرد» الذي إليه نلجأ في الصيف لنستغلّ من ترابه ومائه وهوائه ما استطعنا من العافية وضروريات العيش. وقد شاء لي ربّان حياتي أن أستغلّ منه ما هو أثمن حتى من العافية ومقوّمات العيش.

Twitter: @ketab_n

الألفباء

سبقني أخواي ديب وهيكل إلى المدرسة. وكانت أمّي في كلّ صباح تعتني بهندامهما. فتسرّح شعورهما، وترتّب ثيابهما، وتقدّم لهما طعام الفطور - «الترويقة». ثمّ تزوّد كلاًّ منهما بحمّالة، وتوصيهما بأن يكونا قدوة لغيرهما في الدرس وحسن السلوك. و«الحمّال» كناية عن كيس يشبه المخلاة إلى حدّ بعيد، يُعلّق بالكتف اليمنى ليتدلى منها إلى الجانب الأيسر. وفيه توضع الكتب والدفاتر. أما الأقلام وهي من القصب البنّي اللون المعروف بـ «الغَزّار» فكانت تُحفظ في مؤخرة دواة نحاسية مستطيلة ذات رأس مربّع توضع فيه الليقة المشبعة بالحبر. وهذه الدواة، مشكوكة في الزنّار، كانت مدعاة فخر واعتزاز لحاملها. إذ هي تشهد له بأنّه بات قادراً على «تعليق الاسم» - أي على وصل الحروف بعضها ببعض بحيث تشكّل كلمات مقروءة. وإذا كان صاحبها من الذين برعوا في بري القلم كذلك فهو إذ ذاك عنوان النجابة والعبقرية. فبَري الأقلام كان فنّاً لا يتقنه إلاّ القليل من المعلّمين والتلامذة.

Twitter: @ketab_n

كانت الوالدة تخيط لنا «الحمّال»، مثلما كانت تخيط ألبستنا، وأهمّها القمباز الذي بات اليوم من الألبسة النادرة جدّاً في لبنان وسوريا. وأهمّها القمباز الذي بات اليوم من الألبسة النادرة جدّاً في لبنان وسوريا. وهو أشبه ما يكون بالجبّة تغلّف البدن تغليفاً لا تفريط معه بالقماش، وقد شُقّت من الأمام - من اعلى إلى اسفل - وشُدّت في وسطها بزنّار من جنسها. وكان القمباز، في الغالب، من نسيج وطنيّ يُعرف باسم «الدّيما».

أمّا الحذاء فكان إمّا «الشدّة» التي لا يتجاوز علوّها أسفل الكاحل. وإمّا «الطُّبُقْ» الذي كان له ساق يبلغ أسفل البطة. وكلا الحذائين كان يُرصف نعله بالمسامير القصيرة ذوات الرؤوس المستديرة، المحدّبة، حرصاً عليه من سرعة الفناء. والأحذية المسمرة كانت للصبيان من سنّ الثمانية، أو العشرة، فما فوق. وكم كانت رغبتي لجوجة في أن أغدو ذات يوم ولي «شدّة بمسامير»!

في جملة المهمّات الكثيرة التي كانت تقوم بها الوالدة تجاهنا كانت مهمة المزيّن كذلك. وإني لأذكر كيف كنّا نحاول التهرّب من عضّات مقصّها ولكن بغير جدوى. فتخرج رؤوسنا من تحت ذلك المقصّ وكأنّها الخرائط النافرة. فيها التلال، وفيها الأودية، وفيها المنفرجات القاحلة. ولكنّها، في الأقلّ، بريئة من

Twitter: @ketab_n

القمل. ولم يكن ذلك شأن الأغلبيّة من رؤوس أترابنا. وما كانت أمّي تقوم بمهمّة الحلاق لأولادها إلاّ توفيراً للقرش العزيز لعله يسدّ حاجة أهمّ بكثير من جزّ الشعر.

كنت اعلم أنّه سيأتي يوم يقال لي فيه: آن أن تذهب إلى المدرسة. وكنت أترقّب ذلك اليوم بشيء من اللجاجة والقلق. فقد كان يغريني أن يكون لي «حمّال»، وأن أشكّ دواة في زنّاري، وأن يكون في جيبي سكّين صغير أبري به قلمي، وأن تعتزّ بي أمّي التي كانت أغلى أمنيّة لديها أن ترى في بيتها كتباً ودفاتر وأقلاماً، وأن يقصد الناس أولادها ليكتبوا لهم الرسائل إلى ذويهم في المهاجر. فقد كفاها ما تحمّلته من مذلّة كلما شاءت أن تبعث برسالة إلى زوجها في كاليفورنيا. ولكنني كنت أسمع عن المدرسة أشياء وأشياء. فهناك القضيب. وهناك الفَلَق. وهو - ولن أعرّفه خيراً من القاموس - «عُود يربط حبل من أحد طرفيه إلى الآخر وتُجعل رجلا المجرم داخل ذلك الحبل وتُشدّان فيُضرب عليهما». وهناك النهوض باكراً، والانحباس الطويل ضمن جدران أربعة من غير أن يكون لك الحقّ في الخروج ساعة تشاء، وفي الضجيج واللعب كما تشاء.

وجاء ذلك اليوم. فاقتادني أخواي إلى المدرسة، وقد أمسك

Twitter: @ketab_n

كلّ منهما بيد من يديّ وراحا يبالغان في ملاطفتي. وكنت أمشي بينهما ذاهلاً عن الأرض تحت قدميّ، ومزهوّاً بحمّالي الجديد وفيه كرّاس الألفباء الذي انحدر من أخي الأوّل إلى الثاني ثمّ إليّ. وفي رأسي تدور أغرب التخيلات عن ذلك العالم السرّي الذي يدعونه المدرسة، وعمّا ينتظرني فيه من مفاجآت سارّة وغير سارّة.

أيكون أن أمّي ستفعل بي يوماً ما مثل ما فعلته بأخي هيكل منذ أيّام؟ لقد رأيتها بعينيّ تشدّه بحبلٍ إلى عمود البيت ثمّ تنهال عليه ضرباً بقضيب انتزعته من التوتة التي أمام البيت وهي تصيح به والغضب يتفجّر من عينيها ووجهها وصوتها: «بعد بتهرب من المدرسة؟ بعد بتهرب؟!.» والمسكين يُعول ويردّد: «التوبة. التوبة...» فلا تجديه توبته ولا شفاعة جدّه أو شفاعة جدّته. لقد كان أنزقنا طبعاً، وأكثرنا نخوة في القيام بمهمات نحسبها شاقّة، وأوفرنا حيويّة ونشاطاً. ولعلّه، لفرط حيويته، كان يكره الانحباس ضمن جدران المدرسة، وحصر فكره في أمور لا تلذّه على قدر ما كان يلذّه تسلّق الأشجار، والتفتيش عن أعشاش العصافير، والإقدام على المغامرات التي كانت تسبّب لأمّي الكثير من وجع الرأس والقلب. فما أكثر ما كانت تأتيها الأخبار: هيكل وقع من الصنوبرة أو التينة. هيكل هرب من المدرسة. هيكل شجّ رأس فلان ابن فلان.

Twitter: @ketab_n

كانت المدرسة في الدور الثاني من علّية تبعد عن بيتنا زهاء ثلاثمئة متر. وحتى اليوم لا تزال بقايا من حجارتها الدكناء ماثلة للعيان. ويا ليته كان لي أن أستنطقها عمّا كان بيني وبينها!

وكان في المدرسة معلمان وغرفتان للتدريس. إحداهما للصغار، والثانية للكبار. و «الكبار» كانوا من سنّ العاشرة فما فوق.

وكلتا الغرفتين كانت مجهّزة بمقاعد خشبيّة بالية لا ظهور لها ولا صدور. وأوّل ما آلمني من تلك المقاعد أن رجليّ عند الجلوس عليها ما كانتا تبلغان الأرض، بل تبقيان معلقتين في الهواء، فلا أستطيع تثبيتهما، وأمضي أدفع بهما يميناً ويساراً، وإلى الأمام وإلى الوراء، الأمر الذي اضطرّ المعلم إلى تذكيري أكثر من مرّة بأنّ على التلميذ «الشاطر» أن يجلس «هادئاً كالملاك». وكنت أريد أن أكون ملاكاً لو كان لي أن أسند ظهري وأثبت رجليّ.

من الأكيد أن وجهاء الطائفة الأرثوذكسيّة في بسكنتا كانوا يعتزّون بأنهم هيّأوا لطائفتهم مدرسة بغرفتين ومعلّمين من بعد أن كانت لهم مدرسة تنتقل من كنيسة إلى كنيسة. أما المعلّم فيها فرجل نصف أمّي لا يتقاضى أيّ راتب فوق «خبزه الجوهري». وهو الذي اغترف والدي من بحر علمه أقصى ما

Twitter: @ketab_n

استطاع في أوّل صباه. وكان ما اغترفه بضعة سطور من المزمور الأوّل لداود النبيّ. وقد تعلّم تهجئتها على النمط التالي:

طَهْ. واو . با . يا = طوبَى . لام . لام . را . جين . لام = للرجل الخ...

واكتفى والدي بذلك الحدّ من «العلم».

استقبلني معلّمي بمنتهى اللطف. وكان كهلاً دون الربع من القامة، في إحدى رجليه عرج، وفي يده قضيب، ولباسه من الطراز البلدي. وما إن أزفت ساعة الدرس حتى هزّ قضيبه وضرب به الطاولة أمامه، ثمّ قطب حاجبيه وصاح بنا: «اسكتوا!» فسكتنا. ولبثنا برهة ساكتين إلى أن جاءنا صوته ثانية يأمرنا بأن نفتح كراريسنا على الصفحة الأولى وأن ننغّم معه بملء حناجرنا:

ألف - با - تا - ثا - جين - حا - خا.

وأن نعيدها الكرّة بعد الكرّة. ومن بعد أن تعب وتعبنا راح يطلب إلى كلّ منّا إعادتها عن ظهر قلب. فمن أخطأ تناوله بالقضيب. ومن أجاد كافأه بقوله: «عافاك. اقعد!» وأذكر أن نصيبي منه في أوّل يوم من أيّام دراستي كان «عافاك يا شاطر» مرفقة بتربيتة على كتفي وأم رأسي. وكان من تلك الـ «عافاك» وتلك التربيتة أنّني لم أذق طعم قضيبه أو قضيب أيّ معلم سواه طوال سني دراستي.

Twitter: @ketab_n

وقد أشرفت مرّة واحدة على الفَلَق، وعلى يدٍ غير يده، وذلك عندما آثرت ذات أحدٍ أن أنطلق إلى الشخروب وأفتّش هناك عن أوكار العصافير بدلاً من أن أذهب إلى الكنيسة وأخدّش أذنيّ بصوت ذلك المصلّي الذي كان يزعجني منتهى الإزعاج. فمن بعد أن أمرني المعلّم بأن أنطرح أرضاً على ظهري، ومن بعد أن أحكم شدّ الفلق حول رجليّ، عاد فأشفق عليّ وتشفّعتْ بي لديه حسناتي الكثيرة في حسن السلوك والتحصيل، فاكتفى بأن أنّبني وكأنّه العزّة الإلهيّة تؤنّب أحد عبادها. واختتم تأنيبه بالسؤال: «بَعْد بتعيدها؟» فأجبته بصوت مختنق: «لا معلمي». وهكذا صنت جِلدي - وشرفي...

تلك هي المدرسة التي كانت مدخلي إلى عالم الحرف العجيب - ذلك الحرف الذي سحرني، ولا يزال، بما فيه من طاقة على الخلق لا نفاد لها. والذي لولاه لما كان هذا الكتاب، أو أيّ كتاب؛ ولما كان للإنسان أن يتعالى على الحيوان، وأن يطمح إلى قراءة الكتاب الذي هو نفسه قراءةً تفضح كلّ ما في الكون من ألغاز وأسرار. وأنا ما ذكرت تلك المدرسة إلاّ ذكرت أوّل تجربة كانت لي مع القدر. ويا لها من تجربة كان منها، بعد أن نبت لفكري جناحان، أنّني آخيت القدر وحالفته وآمنت بأنّه منّي وبأنّني منه. فهو صورتي وأنا صورته. وهو ما خفي عنّي منّي.

Twitter: @ketab_n

كنت في نحو السابعة من عمري. وكنت قد أنهيت كرّاس «طوبَى». وهو كرّاس فيه مختارات من مزامير داود النبيّ، وأوّلها المزمور الذي مطلعه: «طوبَى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكفرة». وكان من تقاليد المدرسة أن يُساق التلميذ الذي أنهى ذلك الكرّاس إلى أهله ويداه موثقتان إلى ظهره، فلا تُفكّ يداه إلاّ من بعد أن يقدّم أهله «الحلوينة» لمعلّمه وجمهور مرافقيه. و«الحلوينة» كانت في الغالب زبيباً وجوزاً ونحو ذلك. والعمليّة كلّها كانت بمثابة شهادة للتلميذ بأنّه قطع الشوط الأوّل من أشواط دراسته. وقلّ من كان يقطعه أو يقطع أبعد منه.

بعد أيّام من ظفري «الباهر» بالشهادة الطوباوية بكرت وأخويّ ذات صباح إلى المدرسة. وعندما أقبل البعض من أترابي رحت ألعب وإيّاهم على سطح المدرسة. ونحن كذلك، إذا بالشمس تطلّ علينا من وراء صنّين فتمتدّ ظلالنا على مدى السطح وأبعد. فخطر لأحدهم، وكان نصف أبله وأكبر مني بست سنوات، أن يطأ على خيال رأسي. فرحت، نكاية به، أحاول أن أطأ على خيال رأسه. وكان بيننا كرّ وفرّ، وأخذت الحماسة منّي كل مأخذ. وسجّلت ضدّه عدّة «إصابات». وعندما كان يسجّل إصابته الأولى تراجعت بخفة ورشاقة وإذا بي أهوي

Twitter: @ketab_n

من على السطح إلى الأرض، ومن علو يبلغ سبعة أمتار. والأرض التي تقبلتني كانت طريقاً عمومياً جعلت الأقدام ترابه بقساوة الصخر أو أقسى. وعندما التفت أخي الأكبر ولم يجدني سأل الولد الذي كنت ألعب وإيّاه عني فأجابه وهو يدلّه على المكان الذي سقطت منه: «نزل من هنا ليضع حمّاله تحت»...

واتفق في تلك الآونة مرور رجل من الجوار في الطريق. فتقدّم مني ووجدني بغير حراك. وللحال حملني - رحمات اللّه عليه - إلى أقرب بيت من المدرسة وأرسل في طلب والدتي. وعندما وصلت وقد ركبتها الرجفة وانعقد لسانها طمأنها بأنّني لا أزال أتنفّس، وأنّه تفقّدني فلم يجد أيّ كسر في الجمجمة أو اليدين أو الرجلين، ولا قطرة دم تنسرب من أنفي أو فمي أو أي مكان في جسمي. أما أنا فكنت في غيبوبة تامّة.

وتراكض الناس رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، فقرّ رأيهم - ويا ليتني دريت فيما بعد لمن كان ذلك الرأي - على أن يُذبح كبش في الحال، وعلى أن يخاط جلده الساخن حواليّ فلا يبقى فيه من منفذ إلاّ لأنفي وفمي. أما الحكمة في تلك العملية المبتكرة فكانت في أن تحفظ مجاري الدم مفتوحة، فلا يحدث احتقان في أي مكان بسبب الرضوض، وفي أن تساعد على التئام

Twitter: @ketab_n

التصدّع في العظام إذا كان هنالك من تصدّع. وكيفما كان الأمر فقد كانت عملية من أدهى العمليات وأبسطها.

لست أذكر كم طالت غيبوبتي وكم طال مكوثي في ذلك الكفن العجيب. وأذكر أني عندما أفقت ضايقني جدّاً أن أراني ملتفاً بجلد خروف، لا أستطيع تحريك أيّ عضل من عضلاتي غير لساني. وضايقتني رائحة ذلك الجلد ولزاجته. فتوسّلت إلى الذين حولي أن يعتقوني منه، وأن يردّوا إليّ حرّيتي. وهنا سمعت صوتاً عذباً يناديني: «مخايل! يا روحي أنت! هل تشكو وجعاً ما؟ ألا تريد أن تأكل؟ ألا تريد أن تشرب؟» وكان الصوت صوت أمي. فاطمأن قلبي بعض الاطمئنان ورجوت أن يفرجوا في الأقلّ عن عينيّ، ففعلوا. وأبصرت وجه أمي بجانبي. فزدت اطمئناناً. ولكنني تعجبت كثيراً عندما وجدتني في بيت غير بيتنا.

وجاء الفرج بعد يومين أو ثلاثة أيّام. وخرجت من جلد الخروف وما من أحد يصدّق أنّني سأخرج سليماً من كل عطب. وبالأخص والدتي. ولكنني نهضت من كفني وكأنّني ناهض من فراشي. ومشيت إلى البيت وكأن شيئاً ممّا كان لم يكن. فلا عظم ولا عضل به أقلّ عطب. حتى ولا خدش كخدش ظفر الهرّ في أيّ مكان من بدني...

Twitter: @ketab_n

عودة المهاجر

عاد والدي من المهجر وانا دون السابعة ببضعة شهور. ولا أذكر كيف استقبَلَنا وكيف استقبلناه. غير أنّني ما نسيت طعم البقلاوة التي جاءنا بشيء منها ولم أكن قبل ذلك قد تذوقتها في حياتي. فتمنيت لو يتاح لي أن آكل منها حتى الشبع. وعجبت لأمّي تقدّمها مع النقل إلى المسلّمين والمهنئين الذين بقي بيتنا يزدحم بهم لبضعة أيّام. وقَلّ بينهم مَن لم يكن يستفسر والدي عن نسيب له في المهجر. فوالدة تسأل عن ولدها الذي في الاكوادور. وزوج عن زوجته التي في الأرجنتين. وأخ عن أخيه الذي في الفيليبين. غير آبهين بالمسافات التي تفصل كاليفورنيا - حيث كان والدي - عن تلك البلاد. فقد كان القوم - إلاّ القليل منهم - لا يميزون بين مهجر ومهجر. فالمَهاجر كلّها عندهم «ماركا». وإذا ميّزوا قالوا «نايِرك» وهم يعنون بها الولايات المتحدة. و «البرازيل» ويعنون بها أميركا الجنوبيّة بأسرها. ثم يخيّل إليهم أن لا بدّ لمن في «نايِرك» أن يعرف جميع المهاجرين في

Twitter: @ketab_n

الولايات المتحدة. ولمن في البرازيل أن يكون على اتصال بجميع المهاجرين في أقطار أميركا الجنوبيّة والوسطى وفي الشرق الأقصى.

وأذكر أن والدي بهندامه الغربي، وقامته المديدة، وشاربيه العامرين، وحسن تقاطيع وجهه، وعذوبة البريق في عينيه جاء عند «حسن ظنّي» به - أي قريباً ممّا كنت أتخيّله. وما كنت أدري يوم عاد أنه عائد وفي قلبه جنازة وعرس في آن معاً. فقد هجر أبويه وزوجته وأطفاله الثلاثة قبل ستّ سنوات وبرفقته اثنتان من شقيقاته الثلاث. إحداهما - وهي الكبرى - متزوّجة. والأخرى - وهي الصغرى - عازبة. وهذه كانت في شرخ شبابها، وكانت أحبّ أخواتها إلى أخيها وأشدّهنّ تعلّقاً به. وجاءها الأجل المحتوم في سان فرانسيسكو بعد ستّ سنوات بالتمام من هجرتها. فأظلمت الدنيا في عيني والدي، ولم يُطق البقاء في بلادٍ ما أسْمَنَت جيبه ولكنّها فطرت فؤاده. وهكذا عاد ليبكي شقيقته الحبيبة مع والديه، ثمّ ليبكي فرحاً بلقاء زوجته وأطفاله.

علمتُ من بعد أن كبرت أن هجرة والدي لم تكن برأيه أو رأي والديه، ولكن بإلحاح من أمّي. فقد آلمها، وهي التي كانت تأبَى السير إلاّ في مقدمة القافلة، أن ترى عائلتها في ازدياد لا

Twitter: @ketab_n

يقابله أيّ ازدياد في موارد الرزق؛ ثمّ أن ترى الغير من أبناء بلدتها يركبون البحار إلى أميركا القصيّة ليعودوا منها بعد حين وقد تبدّل عسرهم يسراً، فيبنون لهم «حارات القرميد»، ويبتاعون بساتين التوت في الضيعة، أو الكروم والسليخ في الجرود؛ وأن تبقى هي وعائلتها «على الحصيرة». لقد كانت تريد لزوجها أن يستغني عن المحراث والمعول، ولأولادها أن يتعلّموا في أحسن المدارس، وأن يصبحوا ذوي جاه وسلطان، يحسدهم الناس ولا يحسدون أحداً من الناس.

إلاّ أنّ حظّ والدي من دولارات أميركا لم يكن بذي بال. فما استطاع أن يضيف إلى أثاث بيته غير كرسيين من الخيزران، وإلى ممتلكاته أكثر من فسحة من التوت كانت ضمن بستاننا الصغير وكان أحد أجدادنا قد وقفها على كنيسة مار جرجس التي كانت كنيستنا. وقطعة أُخرى من التوت كانت أمام بيتنا بالتمام، فكانت «المدى الحيوي» له. وكان يملكها أحد المرابين في البلدة. أما أملاكنا في الجرد فلم يطرأ عليها أي زيادة أو نقصان.

لم يلبث والدي طويلاً أن عاد إلى مهنة والده وأجداده – إلى المحراث. فابتاع – أوّل ما ابتاع – ثوراً فتيّاً كان، بالنسبة إلى بني جنسه، آية في الجمال من حيث صورته وبنيته وقدرته. وانشغف به

Twitter: @ketab_n

والدي وانشغفنا بانشغافه. فرحنا نتبارى في جمع ما يستلذّه الثور من الأعشاب وفي حكّ جلده بأظافرنا ما بين قرنيه، وتحت ذقنه وذنبه. فلا نكاد نودّعه عند ذهابنا إلى المدرسة في الصباح حتى نعود الظهر وبعد الظهر وكلّنا شوق إليه. لقد كان، على ما به من قوة خارقة، أليفاً ووديعاً ومسالماً للغاية. وكان اسمه «الغندور».

وذات يوم مرض الغندور. فانقطع عن الأكل والشرب. وذبلت عيناه، وقفّ شعره اللمّاع. فكاد والدي كذلك ينقطع عن الأكل والشرب، وطار البريق اللطيف من عينيه، وحلّت محلّه حيرة فاجعة. وتقاطر عليه «الخبراء» فما نجعت خبرة أيّ منهم في شيء. وراح الغندور يهزل ويهزل والدي معه. ولم أنس انتفاضته يوم جاءه أحد الجيران ونصح له أن يذبح الثور لعلّه يستردّ بلحمه بعضاً من ثمنه: «لَن يُجَرّ سكين على رقبته قبل أن يُجَرّ على رقبتي!» - قالها والدي بعنف وبمنتهى الجد والرصانة. وأذكر جوابه لعجوز ارتأت عليه، إذا هو شاء ألا يخسر الثور، أن ينذر قيراطاً منه أو أكثر لمار جرجس - عليه السلام. فقد التفت إليها بازدراء وامتعاض وقال: «إذا كان مار جرجس قادراً أن يشفي الثور، ولكنه لن يفعل إلاّ إذا كانت له فيه حصّة، فلا كان مار جرجس ولا كان الثور.» وكان أن شُفي الغندور بعد يومين.

Twitter: @ketab_n

لا أذكر أن والدي تناولني بكفٍّ غير مرّة واحدة. وذلك عندما كذبت عليه فقلت إنّني ذهبت إلى القداس ولم أذهب. فقد كان لا يطيق الكذب. ويحسب أن المقامر والفاجر والسكّير واللّص خير من الكذوب الذي تصدّقه وهو لا يصدق نفسه. فيصوّر لك ما لم يكن وكأنّه كان. أو يصوّر لك ما كان على غير ما كان. إنّه يشوّه الإنسان بتشويهه الكلمة التي هي الدعامة الأولى لعلاقة الإنسان بالإنسان.

وعلى قدر ما كان يكره الكذب كان يكره والدي الرياء والتملّق والمماطلة في الوعود. ولكَم كان يعجب للذين في ذمّتهم قرش لأحد الناس، وفي استطاعتهم دفعه، كيف لا يشعرون بخزيهم، وكيف ينامون، ثمّ كيف يصومون ويصلّون ويدّعون أنّهم من الدين في الصميم. فالدين في نظره كان الخُلُق الرضيّ وحسن المعاملة قبل أن يكون في تأدية الفروض والمراسم المألوفة. لذلك لم يكن يستنكف أحياناً من العمل أيام الآحاد والأعياد. فالعمل الصالح هو في ذاته عبادة صالحة. إلاّ أن والدي كان يحبّ الكنيسة ويحبّ الأتقياء من رجال الدين. فقد كان يروي لنا حكاية رواها والده عن دبّ سطا مرّة على حقل لهم كان مزروعاً حمّصاً فكاد يقضي عليه. وكان في البلدة راهب اشتهر

Twitter: @ketab_n

بتقواه وفضيلته. فذهب جدّي وشكا أمره إليه. وفي الحال أخذ الراهب قليلاً من الماء وصلّى عليه وأوعز إلى جدّي أن يرشّ به الحمّص. ففعل. وكان أن انقطع الدبّ من بعدها عن ارتياد الحقل...

عاد أبي إلى الشخروب وصخوره وأشواكه، وإلى ظلاله الحالمة في حضن صنّين، وهمّه الأكبر أن يبتزّ من تلك البقعة الصغيرة بحجمها، السخية بمفاتنها، الشحيحة بخيراتها، ما يقوّم به أود عائلته ويصون ماء وجهه فلا يبذله لأحد من الناس، وبالأخص للمرابين. وكانت همته كبيرة. إلاّ أنّه كان وحده. واليد الواحدة لا تصفّق. وأولاده الثلاثة ما يزالون قاصرين عن العمل. فأكبرهم في الحادية عشرة من عمره. ومن ثمّ فوالدتي لم تكن تسمح لأيّ منّا بمغادرة المدرسة قبل ابتداء العطلة الصيفيّة. «لست أريد لأولادنا أن يرثوا المهنة التي ورثتها عن والدك، وأن يكون حظّهم من دنياهم عاثراً كحظّك» - هكذا كانت تقول لوالدي على مسمع منّا. إلاّ أنّنا ما إن شعرنا بقدرتنا على معالجة المعول والمنجل حتى رحنا نساعد الوالد في الصيف بقدر ما كانت تتحمّله عضلاتنا الفتيّة. فنحصد معه القمح، ونحمله إلى البيدر، وندرسه، وننقله على ظهر حمارتنا إلى البيت في الضيعة.

Twitter: @ketab_n

وعند الزرع في أوائل الخريف نأخذ معاولنا ونطمر البذار خلف الوالد إذ هو يشقّ الأرض بالمحراث.

وإني لأغمض عينيّ في هذه الدقيقة فأرى ذلك الوالد الطاهر القلب والنيّة، العفيف النفس واللسان، يسوق بقراته أمامه، ويمناه ممسكة بالمحراث، ويسراه بالمنساس. وأرى التراب يفور عن جانبي سكّته. حتى إذا شقّ ثلماً في طرف فسحة من الأرض توقف عن الحرث، وأخذ الكيس الذي فيه البذار، وراح يبذر تلك الفسحة من بعد أن يرسم الصليب على وجهه ويقول بصوت خافت: «أنا البَعْزاق وأنت الرزّاق يا ربّي.»

لقد كان لي شيء من السحر في منظر والدي وهو يملأ كفّه بذاراً، ثمّ يأخذ ينثر البذار ذات اليمين وذات اليسار، وعيناه إلى الأرض تتفقدان توزيعه على سطحها، ورجلاه تتحركان ببطء، ووجهه وجه العابد يتمّم أقدس فرض من فروضه. ولا عجب فكلّ حبة قمح تنطلق من بين أصابعه الطويلة كانت تمثّل جانباً من أمله في الحياة لنفسه وللذين بقاؤهم كان أمانة في عنقه. وكان يعلم أن بعض تلك الحبات سيكون من نصيب النمل والفأر والطير. وبعضها سيسقط على الصخر فلا ينبت. وبعضها سيخنقه الشوك. ولكنّه كان يعلم كذلك أنّه، إذا لم تجافه

Twitter: @ketab_n

السماء، فسيعود إليه بذاره خمسة أضعاف في الأقل. ولكَم كان يردّد: «لو لم يكن اللّه يحبّ الفلاّح محبّة خاصة لما جعل هذه الكثرة من مخلوقاته عالة عليه».

لكنّ محراث أبي في الشخروب لم يكن وحده كافياً لسدّ حاجتنا إلى القمح فكان لا بدّ من الاستعانة بموسم القزّ لابتياع كمية إضافيّة تؤمّن لنا مؤونة السنة. «القمحات قبل فرض الصلاة». هكذا كان يقول والدي وجميع الناس في بسكنتا وغيرها من قرى لبنان. لقد كانوا يعملون ويعرقون ويأرقون، ويبذلون جهود الجبابرة في سبيل «المونة» أوّلاً وآخراً. فالرغيف كان معبودهم الثاني من بعد اللّه. بل لعلّه كان الأوّل، وكان اللّه المعبود الثاني. أما توابع الرغيف من أدام وكساء ومأوى فكانت بمثابة الأولياء الثانويين...

كان والدي يصعد مع بقراته إلى الشخروب في أوائل الربيع بعد ذوبان الثلج وحالما تصبح الأرض صالحة للحرث. ويبقى هناك وحده، وشبه ناسك، إلى أن تنضم إليه بقية العائلة عند انتهاء السنة الدراسية. وكنّا نوافيه كلّ يوم أو يومين بالزاد الضروري. وذات أحد من آحاد الربيع كان من نصيبي أن أحمل الزاد لوالدي. فوجدته يرعى بقراته على حافة الوادي، وسمعته

Twitter: @ketab_n

يغني أغنية ما فهمت منها كلمة واحدة. والذي سمعته كان كما يلي:

دَيْزي ، ديزي ، كِمّي يو أنْسَرْدُو.
أمْحا بِكْرَيْزي أُوْلْ فو دِيْ لَفْ أُوفْ يو.

واتفق لي أن سمعت تلك الأغنية منه مرّات عدّة بعد ذلك. ففهمت أنها أغنية انكليزية جاء بها من أميركا. ولكنني ما سألته يوماً عن معناها.

وساقَني قَدَري بعد سنين إلى الولايات المتحدة الأميركيّة. وإذا بي أسمع تلك الأغنية عينها من فم رفيق لي في الجامعة، وأسمعها على الشكل التالي:

Daisy, Daisy, give me your answer, do!

I'm half crazy, all for the love of you.

ومعناها:

دايزي، يا دايزي، أعطيني جوابك. أعطينيه!
فأنا نصف مجنون من فرط حبّي لك.

ما إن سمعت الأغنية من فم رفيقي، وأنا بعيد عن والدي وعن الشخروب آلاف الأميال، حتى أحسست قلبي ينعصر وعينيّ تغيمان، وحتى انتصبت أمامي صورة والدي على حافة

Twitter: @ketab_n

وادي الشخروب، ومشى صوته الحنون في قطرات دمي. فرحت أتخيّله في العالم الجديد، يتنقّل من مزرعة إلى مزرعة، ومن دسكرة إلى سكرة وعلى ظهره «كشته» المليئة بالخردوات، وفي حنايا ضلوعه نيران لاهبة من الشوق إلى والديه وزوجته وأطفاله، وإلى شخروبه الحبيب. ورحت أعجب له، وهو المفطور على الصدق والأمانة والقناعة، كيف استطاع العيش ست سنوات في بلاد كان من الصعب على المهاجر إليها أن يصيب أيّ قسط من النجاح إلاّ إذا كان على شيء من الدهاء والطموح والاستهتار بالصدق والأمانة في سبيل الكسب.

إي! لقد بدأت أرضنا «الواسعة» تضيق، وأخذت مسافاتها «الشاسعة» تتقلّص منذ أن نبت «العالم الجديد» لكولمبس في طريقه إلى الهند. فهل درى ذلك العاشق المتيّم عبر المحيطات والقارات أن ابتهالاته إلى حبيبته قد سمِعَتْها غير مرّة شواهق صنّين، وردّدها وادي الشخروب، وحار في فهمها، يوم كان في مستهل صباه، وحتى في عنفوان شبابه، هذا الذي يسجلها الآن بالمداد على القرطاس؟ ورجائي أن يكون قد جاءه جواب دايزي بالإيجاب فاستردّ نصف عقله المفقود...

لم يكن يؤلم أبي وخز الشوك، والصراع مع الصخر، بقدر

Twitter: @ketab_n

ما كان يؤلمه وخز لسان أمّي والصراع مع أطباعها. فقد كان صبوراً، وكانت لجوجة. وكان قنوعاً، وكانت طموحاً. وكان مسالماً، وكانت لا تهاب الخصام. وكان يميل إلى السكوت والتأمل، وتميل إلى الجدل والإرشاد والحركة. وكانت عاطفته أعمق من متناول لسانه، وعاطفتها تتفجّر من عينيها ومن أسارير وجهها، ومن لسانها. فكانت بينهما اصطدامات لعلّها أبشع وأوجع ما أحمله حتى اليوم من ذكريات صباي. إلاّ أنّهما، في الواقع، كانا يتمّمان واحدهما الآخر. فلولا طموح أمّي ولجاجتها وحسن تدبيرها لما تعلّم أيّ منّا أكثر ممّا تعلّم والدنا. أي: «طَهْ - واو - با - يا = طوبَى». ولولا صبر والدي الطويل ومقدرته العجيبة على العمل المضني وتحمل شظف العيش لما بقيت عائلتنا متماسكة تماسك الذرّات في الفولاذ، ولما كتب إليّ أخي أديب من الولايات المتحدة يوم بلغه خبر وفاة والدنا سنة ١٩٣٧: «لقد كنت أعبد التراب الذي يمشي عليه.»

ومرّة أخرى حملت «الزوّادة» إلى أبي في الشخروب وقد نسيَتْ أمي أن تضمّنها الكمية المعتادة من التبغ. فما إن فتحها حتى اربدّ وجهه وأخرج كيس التبغ من جيبه - ويدعى «الضّبْوَة» - وتفقّده فإذا فيه لا شيء غير القدّاحة والصوّانة والفتيل. وهذه

Twitter: @ketab_n

كانت الأدوات التي كان يستعيض بها عن الكبريت في إشعال لفافته. فكاد يطير صوابه. لقد كان يحبّ سيكارته محبته للخبز وأكثر. وكان يغريني كثيراً أن أرقب حركاته وهو يلفها على مهل، ثُمَّ يشعلها، ثُمَّ يأخذ يمتصّها بلذّة فائقة وينفث دخانها من فمه ومنخريه. ولأنّني كنت أعرف عظيم ولعه بالسيكارة فما عتمتُ أن قفلتُ راجعاً إلى البيت. وفي أقلّ من ساعتين عدت لأرى أسارير والدي تُشرق بالغبطة، ولأرى الدخان ينطلق كثيفاً من فمه وأنفه. والعجيب أنّه، على شدّة ولعه بالسيكارة، استطاع أن يطلّقها طلاقاً لا رجعة عنه. وذلك قبل وفاته بخمس عشرة سنة. وكان وداعه لها - كما أخبرني بعد عودتي من المهجر - وداعاً مؤثراً للغاية. ولا عجب فقد كانت رفيقته الوحيدة في خلواته، وفي أويقات راحته من العمل، وفي ساعات شدّته وكفاحه مع الهمّ والغمّ. لقد غلبها أبي وهو دون السبعين. ولا تزال لها عليّ سطوة وأنا في السبعين.

Twitter: @ketab_n

انقلب السحر على الساحر

في ذلك الزمان - زمان صباي الباكر - جاء بسكنتنا رجل غريب الزي يقود دبّاً وسعداناً. فما إن انتشر الخبر حتى تراكض الأولاد من كل صوب والدهشة التي ما بعدها دهشة تقفز من عيونهم وقلوبهم وأفواههم وكل حركة من حركاتهم لمنظر ذينك الحيوانين العجيبين. وتزداد دهشتهم عندما ينفخ صاحبهما في مزماره فينتصب الدبّ على قائمتيه الخلفيتين ويأخذ عصاً ويضعها على عاتقه ممسكاً طرفيها بيديه، ويروح يرقص وهو يزمجر ويكشّر. وتتعاظم دهشتهم أكثر فأكثر عندما يأتي دور السعدان فينبري يقوم بحركات عجيبة لا يستطيع القيام بمثلها إلاّ السعادين. ومنها أن صاحبه توجّه إليه مرّة بالسؤال: «وَيْن قيمة الصّبيّة؟» فما كان من السعدان إلاّ أن وضع يده على رأسه في الحال. وعندما سأله: «وين قيمة العجوز؟» تردّد السعدان هنيهة ثمّ وضع يده على قفاه الأحمر. ولا تسل عن قهقهاتنا وعن انخطافنا بخفة ذلك الحيوان وفطنته وحركاته.

Twitter: @ketab_n

ولكن الانخطاف الأكبر جاء عندما انتهى دور الدبّ والسعدان وجاء دور صاحبهما. فقد أخرج من جرابه ستة فناجين للقهوة وستّ حصيات صغيرات. ثمّ وضع على مشهد منّا تحت كلّ فنجان حصاة. ثمّ نفخ وتمتم وعزّم ورفع الفناجين وإذا لا شيء تحتها على الإطلاق. وراح الساحر يفتنّ في سحره، فيبدّل ويغيّر في وضع الفناجين والحصى ليتركنا في كلّ مرّة مشدوهين أشدّ من قبل. وجاءت الخاتمة تغطي كل ما سبقها. فقد أخذ الساحر حصاة ووضعها في أذنه. وإذا به يخرجها من عينه. ثم وضعها في فمه ليخرجها من أنفه. لقد كانت لنا عقول فطارت...

في مساء ذلك اليوم جمعت فريقاً من أترابي في الحي وقد صمّمت أن أدهشهم بسحري مثلما أدهشني ذلك الساحر. وكان الأمر عندي في منتهى البساطة. فقد جئت بحبة من الحمص بدلاً من الحصاة. وقلت لرفاقي، وليس يخامرني أقلّ الشكّ في صدق ما أقول: «انظروا، فإني سأضع هذه الحبة من الحمص في أذني هذه ثمّ أخرجها من تلك». وكان لي شيء من الاعتبار عند رفاقي. فما ساورتهم ريبة في مقدرتي على تنفيذ ما وعدت به. وفي مثل لمحة الطرف، وبثقة لا تعرف الحدود،

Twitter: @ketab_n

أدخلت حبّة الحمّص في أذني اليمنى ولبثت هنيهة أتوقع مرورها إلى أذني اليسرى. وكان يخيّل إليّ أنّني سأحسّ دبيبها في رأسي إذ هي تنتقل من جانب فيه إلى جانب. إلاّ أنّني ما أحسست شيئاً من ذلك. فقلت لعلّني لو دفعتها في أذني أبعد مما فعلت لمَشَت. فدفعتها. وعندما لم تتحرّك أخذت تساورني شكوك في سحري. وضايقني جدّاً أن أنخذل أمام رفاقي، وأن أفقد ما أتمتّع به في نظرهم من اعتبار خاص. فدفعت الحبة أبعد فأبعد إلى أن بات من المتعذّر استخراجها.

وغابت الشمس، وأقبلت الظلمة. فانفرط عني عقد رفاقي. وبقيت وحدي أتمنّى لو تنشقّ الأرض من تحتي وتبتلعني. لقد كانت خيبتي أمرّ من أن يصفها قلمي. ولم يكن بدّ من العودة إلى البيت. فعدت. وذهبت إلى فراشي في تلك الليلة وحبّة الحمص في أذني، وفي قلبي الصغير دياجير يتخلّلها حقد عارم على نفسي لأنّني لم أتمكّن من أن أفعل أمام رفاقي مثل ما فعله الساحر أمامي.

نحو منتصف الليل أيقظني من نومي وخز أليم في أذني. وما كنت أريد أن تعرف أمي شيئاً عن محاولتي الفاشلة. فسكتّ على مضض. وساعدني على السكوت بصيص مفاجئ من الأمل

Twitter: @ketab_n

بأن الوجع الذي شعرت به لم يكن غير البشير بأن الحبّة العنيدة قد انكسر عنادها، وأنها أخذت «تمشي». ولكنّ ذلك الأمل لم يلبث أن تلاشى بعد أن اشتدّ بي الوجع لدرجة أكرهتني على البكاء والصراخ. فاستفاقت أمي مذعورة. وعندما درت بحقيقة الأمر نهضت في الحال واقتادتني إلى الأقرب من طبيبين اثنين كانا يؤاسيان أوجاع بسكنتنا وجوارها. وحاول الطبيب بشتى الحيل أن يستخرج الحبة الجانية فلم يفلح. فازداد ذعر والدتي على قدر ما تفاقم وجعي وازداد صراخي. فانطلقت بي إلى الطبيب الثاني.

والطبيب الثاني كان أوسع حيلة من الأول. فأخذ يحقن الأذن بالماء الساخن إلى أن انتقعت حبّة الحمّص فهان عليه تفتيتها واستخراجها بالصّنّارة نتفة نتفة. وحالما انتهت «العملية» انتهت أوجاعي وعاد إليّ روعي. ولكنني بقيت في خوف من غضب أمي وقصاصها. وكان خوفي في غير محلّه. إذ أنها كانت أحكم وأحنّ من أن تزيد في طينتي بلّة. ولقد عرفت لأمي ذلك الجميل وقدّرته حقّ قدره. وشاءت الظروف أن تسعفني على ردّه ضعفين أو أكثر. وذلك في خلال شهر واحد. وإليك الخبر:

في تلك السنة كان قد جاءنا معلّم غريب إلى «المدرسة الخيريّة الأرثوذكسيّة» له بعض الإلمام بمبادئ اللغة الفرنسيّة. وشاء

Twitter: @ketab_n

المعلم أن يبهر أهل الضيعة بمعارفه. فراح يلقننا تلك المبادئ. وكان ذلك أوّل عهدي بالـ A.B.C. وبلغ بنا المعلّم تصريف فعل **Être** على شتى وجوهه وفي شتى حالاته. وكنت من الذين أتقنوا تلك التصاريف غاية الإتقان. ثمّ شاء معلّمنا الجديد أن يُجْري في نهاية السنة امتحانات علنيّة دعا إليها ذوي الأولاد ونفراً من «المتعلّمين» في القرية، وعلى الأخص أولئك الذين كانت لهم بعض المعرفة باللغة الفرنسيّة. وكانت والدتي في جملة المدعوّين. أمّا والدي فكان في الشخروب.

ونودي باسمي. فوقفت. ولكني كنت من ضآلة الحجم بحيث انّه لم يكن في إمكان الجميع أن يبصروني. فأوقفوني على كرسيّ، وطلب معلّمي إلى أحد «الضالعين» في الفرنسيّة أن يمتحني في تصريف **Être** فلم أجبن. ولم أتلعثم. ولم أخطئ مرّة واحدة. بل كنت أجيب بسرعة، وبصوتٍ عالٍ، وبثقة متناهية.

وانتهى الامتحان. وأقبل الناس على والدتي يهنّئونها وهي في غمرة من السعادة والاعتزاز. وأقبلت والدتي عليّ تمسّد الشعر على رأسي، وتربّت كتفي وتسترق غفلة من الناس لتقبّلني. وعندما خرجنا من المدرسة، وكانت قريبة من سوق البلدة، أخذتني بيدي إلى أقرب دكّان وقالت: «اطلب ما تريد». فكان جوابي:

Twitter: @ketab_n

«فستق عبيد!»

وفي ذلك الزمان - زمان صباي الباكر - كان لي مع السحر وقفة ثانية، ثمّ ثالثة. فقد عاد أحد أنسبائنا من البرازيل، وانتشر الخبر في البلدة أنّه جلب معه آلة عجيبة تغنّي من تلقائها. وتغنّي كما يغنّي الناس بالتمام - ميجانا وعتابا وأبو الزلف وأغاني غيرها لا عهد لنا بها. وقُيّض لي أن أرى تلك الآلة وأن أسمعها. فإذا بها صندوق صغير في أعلاه بوق كبير وبجانبه مسكة صغيرة ما إن تُدار باليد حتى يطفق الصندوق يغنّي. حقّاً إنّه السحر بعينه. إذ لم يكن من الممكن لأي الناس، مهما دقّ حجمه، أن يختبئ في ذلك الصندوق. إذن من أين الغناء؟

كان ذلك أول عهدي - وعهد بسكنتا - بالفونوغراف الذي لم يكن، هو الآخر، قد تجاوز سنّ الطفولة.

وكانت وقفتي الثالثة مع السحر يوم اقتادتني أمي إلى بيت أحد أبناء عَمّها العائد حديثاً من الولايات المتحدة. وكان بيتاً قديماً من طراز بيتنا. فلم يدهشني فيه شيء. وأدهشني بعد قليل، حتى كان يذهب بلبّي، أن أسمع طائراً يصيح: «كو - كو! كو - كو!» التفتّ وإذا على الحائط قبالتي علبة خشبيّة تدلّت منها سلسلتان، وإذا بطائر صغير يطلّ من نافذة في اعلاها وهو يردّد

Twitter: @ketab_n

بانتظام «كو - كو» وينحني باحتشام بعد كلّ ترديدة. ثمّ ينتهي بأن يعود إلى داخل العلبة ولا ينسى أن يغلق خلفه باب النافذة التي أطلّ منها. لم يخفف من دهشتي شرح صاحب البيت للمذهولين مثلي من الحضور أن الطائر في الساعة كان يقوم مقام الجرس. فإذا ردّد نغمته كذا أو كذا من المرات كان معنى ذلك أن الساعة هي كيت أو كيت من النهار أو الليل. فالأمر الذي حيّرني فوق حيرتي بصوت الطائر هو أنّه كان يقسّم الساعات بانتظام. فمن كان يوقظه في كل مرة؟ ومن كان ينبيه أن الساعة الآن هي الثالثة وليست الثانية عشرة؟ وكيف كان يفتح باب النافذة ثمّ يغلقه ويختفي وراءه؟ وماذا كان يفعل بين الساعة والساعة؟

سحر وأيّ سحر! وكيف لي أن أدري في ذلك الزمان أن ما حسبته سحراً لم يكن غير القطرة التي بها يبدأ الغيث ثمّ ينهمر؟: السينما - السيارة - اللاسلكي - الطيارة - الراديو - التلفزيون - الرادار - القنابل الذرية والهيدروجينيّة - الأدمغة الالكترونيّة، ثمّ الأقمار الصناعيّة! والذي كنت أدريه في ذلك الزمان هو أن السعادة كل السعادة في جيب مليء بفستق العبيد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المدرسة الروسية

الموسكوفي - نسبة إلى «موسكفا» أو موسكو - انقلبت في لغتنا الدارجة إلى «مسكوبي». وأصبحت بلاد الروس تُعرف عندنا بـ «بلاد المِسْكُبْ».

«جايي المسكب يفتح مدرسة بيسكنتا! اللّه ينصرو!»

انتشر الخبر في البلدة انتشار النور عند انبلاج الفجر. فاستقبلته الطائفة الأرثوذكسيّة بالتهليل والتكبير. ولا عجب. فقد كان من المسلّم به عند سكان لبنان في عهد المتصرفية أنّ روسيا هي الحامية التقليدية للروم، وفرنسا للموارنة، وبريطانيا للبروتستانت والدروز، وتركيا للمسلمين. إلاّ أن روسيا بزّت منافساتها بأنها راحت تفتح للروم مدارس مجانية في كل من فلسطين وسوريا ولبنان، وبأن مدارسها كانت تنسّق برامجها وإدارتها على أحدث طراز. ولم تكن تشترط على الأرثوذكس في أي بلدة ترغب في أن تكون لها مدرسة روسيّة إلا أن يتبرّعوا بتشييد بناء لائق بالمدرسة. أمّا المعلّمون والكتب والدفاتر والحبر

Twitter: @ketab_n

والأقلام والأثاث وتكاليف الإدارة فجميعهم وجميعها بالمجان.

وانبرى الروم في بسكنتا يتبرعون بسخاء. فمن لم يَجُد بماله جاد بعضلاته. وما هي إلاّ سنة وبعض السنة حتى تيسّرت لهم بناية ضخمة مسقوفة بالقرميد، وقائمة على حافة ساقية تعربد أفظع العربدة في الشتاء وتخرس منتهى الخرس في الصيف. وقد رتّبوا ساحة للّعب أمام البناء وفصّلوه بحيث أن الدور السفلي منه كان قبواً يتّسع لصف الصغار أو البستان. أما الدور العلوي فيتوسّطه بهو فسيح تقوم عن جانبيه ستّ غرف واسعة للتدريس، ومرقمة من الواحد حتى الستة.

كان ذلك في العام ١٨٩٩ . ولأوّل مرّة في تاريخها عرفت بسكنتا ما يمكن أن يدعى مدرسة مثالية. ولأوّل مرّة في تاريخها أقبل بناتها على الدرس أسوة بأبنائها. فقد كانتَ المدرسَة تضمّ خمسة معلّمين وثلاث معلمات، على رأسهم مدير تخرّج من دار المعلمين الروسية في الناصرة بفلسطين ودرس فنّ التربية والتعليم والإدارة المدرسيّة. ولأوّل مرّة شعرنا أنّنا في مدرسة لها برنامج ولها نظام. فبرنامج القراءة العربيّة كان يعتمد كتاباً من تأليف المرحوم جرجس همّام واسمه «مدارج القرَاءة». وهو كتاب في أربعة أجزاء تبتدئ بكرّاس الألفباء وتنتهي بمختارات من النثر

Twitter: @ketab_n

العالي والشعر القديم والحديث. وجميعها مصوّر. وإنّه لمن المؤسف حقّاً أن يصبح ذلك الكتاب نسياً منسيّاً وأن تخلفه في مدارس اليوم أصناف وأصناف من كتب القراءة جلّها دون مستواه بكثير.

وبرنامج القراءة هذا كان يماشيه برنامج متدرّج لتدريس صرف اللغة ونحوها بحيث ان المنتهي من المدرسة كان يحسن الاعراب إلى درجة لا بأس بها. لقد كانت تُبذل للغة العربيّة عناية خاصّة. ومثلها للحساب. فاللغة والحساب كانا في الدرجة الأولى. والجغرافيا والتاريخ ودروس الأشياء في الثانية. ومبادئ اللغة الروسية في الثالثة. فقلّ من تخرّج من المدرسة وكان يتقن القراءة الروسيّة أو يفهم إلاّ القليل القليل من مفرداتها وذلك على عكس باقي المدارس الأجنبيّة في لبنان التي كانت - ولا تزال - تهتم بتعليم لغاتها أكثر بكثير من اهتمامها بتعليم العربيّة.

ولم يفت واضعي البرنامج أن يخصّصوا فيه ساعات للرياضة البدنيّة، وللترتيل، وللنزهة في البرية يقوم بها التلاميذ والتلميذات مع معلميهم ومعلماتهم ولو مرّة في الأسبوع.

أمّا أوقات الدرس فكانت من الثامنة صباحاً حتى الظهر. ومن الثانية حتى الرابعة بعد الظهر ما عدا يومي الاربعاء والسبت حيث كانت الدروس تستمر حتى الظهر فقط. وأوقات الدرس

Twitter: @ketab_n

كانت مقسمة إلى حصص من خمسين دقيقة تلي كل حصة منها فترة استراحة ولعب لمدة عشر دقائق. وهذه الفترات كان يعلنها المدير بقرع جرسٍ صغير، وكانت أحبّ شيء لدينا. إذ أنها، في الواقع، كانت تجدّد نشاطنا بكسرها حدّة الانضباط ضمن أربعة جدران لمدة خمسين دقيقة، وبإتاحتها الفرصة لنا للتفريج عن أفكارنا ومشاعرنا وعضلاتنا المكبوتة في حضرة المعلّم والكتاب.

لقد أخذتنا نشوة من الاعتزاز بمدرستنا الجديدة. إذ كنّا نشعر أن من ورائها دولة عظيمة تهابها الدول. وها هي صورة القيصر نقولا الثاني وصورة زوجته القيصرة الكسندرا في إطارين مذهّبين تزيّنان صدر البهو الكبير. وها هي الطائفة المارونيّة التي تفوقنا عدداً لا تستنكف من إرسال بنيها وبناتها إلى مدرستنا. ثم إنّنا كلّما خرجنا إلى النزهة أو إلى الصلاة في الكنيسة خرجنا في صفوف طويلة منظمة لم يكن أحد يجرؤ على اختراقها. وقد حدث مرة أن أحدهم - وكان معلماً في المدرسة المارونيّة - سوّلت له نفسه أن يخترق الصف. فما كان من تلاميذنا الكبار إلاّ أن ردّوه بالقوّة على أعقابه من بعد أن أشبعوه لكماً وركلاً.

مرّة أو مرّتين في السنة كان يأتينا مفتّش روسي وبرفقته ترجمانه. وكان مجيئه حدثاً كبيراً في حياة المدرسة وحياة البلدة.

Twitter: @ketab_n

وممّا يُروى أن اسكافاً أرثوذكسيّاً عجوزاً، عندما سمع أن فارسين غريبين يجتازان سوق البلدة، وأنهما المفتش الروسي وترجمانه، ترك في الحال دكّانه وهرول إلى حيث الفارسان. فأمسك بلجام فرس المفتش وصاح باعلى صوته: «إنْتْ المِسْكُبْ؟؟ زيتو!!!» وقبّل ركاب الرجل، ورسم الصليب ثلاثاً، وهو كالمأخوذ لا يصدّق أنّه يبصر إنساناً من بلاد القياصرة. و «زيتو» كلمة يونانيّة تقوم مقام «يحيا» أو «يعيش».

أمّا الحدث الأكبر في حياة المدرسة فكان عيد القديس نقولاوس - شفيع الأمبراطور نقولا الثاني - في السادس من كانون الأوّل بالحساب الشرقي. ففي ذلك العيد كانت تقام الحفلات والزينات، ويُحرق الكثير من البارود. وتُطلق في الليل البالونات والأسهم النارية، وينسى الناس أنفسهم من شدّة الفرح، وأنهم يعيشون في ظل «الدولة العلية». ولكن الروس كانوا أفطن من أن ينسوا ما ينساه الروم في بسكنتا. فقد كانت المدرسة تحتفل في كل سنة بعيد جلوس السلطان عبد الحميد. وفي الاحتفال كانت تتلى الخطب الطنّانة والقصائد الرنّانة وكلّها يمجّد «سلطان البرّين، وخاقان البحرين، السلطان ابن السلطان، السلطان الغازي عبد الحميد خان»! وكانت تُرفع الضراعات، وتُرتّل الأناشيد. وها

Twitter: @ketab_n

أنا أنقل إلى القارئ بعض تلك الأناشيد، لا على سبيل التفكهة لا أكثر، بل ليعرف أيّ الجرائم كانت تُرتكب بحقّ أذواقنا وأفكارنا البريئة إذ يحملوننا على حفظ تلك السفاسف والترهات والأكاذيب وعلى تنغيمها أمام الجماهير.

فهذه واحدة:

«حمداً لـربْ العالمين   قـد قـرب الـفـتـح الـمبين
فانهض وقل للخاشعين: قوموا! وضجّـوا عـالـيـا!
يـا ربـنـا كـن واقـيـا   عبد الحميد الغازيا (اللازمة)
ملك سما وتَعَزّزا   وعلى الملوك تَـمَـيّـزا
وسطا وغازا، بل غزا   وغـدا الـبشير مناديا
(اللازمة)
فـي ظلّه كـلّ الأمـمْ   رتعتْ وأمستْ في نِعَمْ
والذئب بات مع الغنم   والطيـرُ أصبح شاديا»
(اللازمة)

وهذه ثانية:

«يـا سامعاً منّا الندا   يـا مـرويـاً منّا الـصـدى
إحـفـظ وأيّـد للـمـدى   عـبـد الحميد الأمـجـدا

Twitter: @ketab_n

ملك به ازدهت البلادْ والعدل بين الناس ساد
فأدمْه ربّي للعباد فخراً، نصيراً، منجدا
وأيّدنْ سلطانه وَثَبِّتن أركانَه
واحفظ وصن أعوانه أهل المعالي والندى»

وهذه ثالثة:

«في حفلة العيد البهي ننشد ألحان الدررْ
وفي حمى سلطاننا ننشر رايات الظفر
عيد سعيد زاهر بالمجد يبدو والسّنا
فيه ننادي كلّنا: زال العنا! زال العنا!»

ورابعة:

«يا ربّنا باري الورى ومَن يَرى ولا يرى
صُن المليك الأقدرا سلطاننا عبد الحميد

* * *

بحر يفيض بالنّدى بالجود قد تفرّدا
في عصره الكون غدا يتيه في زهوٍ جديد
إحفظ جميع آلِه بالفوز مع رجالِه
أدمْ سنا جلالِه في ذروة المجد المشيد»

Twitter: @ketab_n

وليذكر القارئ أن هذه الأناشيد لعبد الحميد الذي «في ظلّه كل الأمْ رتعت وأمست في نِعَمْ» كانت تقابلها أناشيد أشدّ مغالاة في تمجيد نقولا الثاني الذي «حلا لما علا بين الملا وقد جلا عنّا البلا». وأناشيد أفظع تنكيلاً بالذوق والصدق كنّا نرنّمها في الحفلات المدرسيّة احتفاءً بالزائرين. وهذا نموذج منها:

« أهلاً بمن قد زار والوَيل عنّا سار
فالتّعْس يَرْحلْ والحظّ أقبَلْ
كأسُ الصّفا قد دارْ يا أسْيادْ
يا أيْها الأسيادْ بوفدكم قد عاد
لَنا السّرُورُ تَمّ الحبورُ
وحَلّت الأسعادْ يا أسْيادْ »

* * *

هذا غيض من فيض ذلك النفاق السافر، الوقح، الذي كُنّا نُحمَل على الترنّم به غافلين عن أنّه السمّ يُدَسّ لنا في الدسم. ومن أين كان لنا في تلك السنّ المبكرة أن نعرف ما هي «الدولة العلية»، ومن هو سلطانها «عبد الحميد، ربّ الجنود، فداه جيدي»؟ أو أن نعرف شيئاً عن الدسائس التي كان يحوكها «امبراطورنا» نقولا الثاني وغيره من حكام أوروبا لدولتنا «العلية»،

Twitter: @ketab_n

وبعضهم لبعض؟ ثمّ من أين كان لنا أن ندرك أن العثمانيين والأوروبيين بالسواء لم يكونوا في ديارنا غير مغتصبين؟

لقد كلّفني فيما بعد جهداً ليس باليسير أن أنزع ذلك السمّ من دمي - سمّ الكلمة الفاجرة، المنافقة، المرائية التي تعلن - ولا تخجل! ولذلك كان أوّل همّي، في أوّل عهدي بالكتابة، أن أعلنها حرباً شعواء على النفاق في الأدب، وأن أصرّ على الصدق - على الإخلاص - في ما ننظم وننثر قبل أن أصرّ على رنّة القافية، وبريق الكلمة، ومتانة العبارة. فصحت في أول مقال نشرته:

«الإخلاص!!. ويا ليت لنا منه قدر حبّة خردل! كلمة أصبحت عندنا «كالخنفشار». وفضيلة لم يبقَ لها من مكان في حياة جُبلت بالرياء والمداهنة والتزلّف وحبّ المجد الفارغ.» (الغربال - طبعة خامسة - ص - ٤٦)

لعلّني - حتى في تلك السنّ الطريئة - كنت أشعر بشيء من ذلك، ولكنني لا أستطيع التعبير عنه. وإلاّ فمن أين ميلي المبكر إلى العزلة والانفراد والسكوت، حتى إن خالةً لي كانت تلقبني بـ «الستّ ساكتة»؟ فقد كانت تعجب لي أضجّ، ولا أقاتل، ولا أسترسل في اللهو كما كان يفعل زفاقي. لقد كنت، في الواقع، أنفر من

Twitter: @ketab_n

الضوضاء والعربدة والخصام. فإذا لعبت أخذتني حماسة اللعب. ولكن إلى حين. فلا ألبث أن أترك الميدان وأمضي أفتش عن خلوة على حافة ساقية، أو في ظل صنوبرة حيث يشغلني جُعَل يدحرج كرة من الزبل، أو نملة تجرّ حبة من الحبوب، أو عصفورة تبحث عن حشرة، أو سحابة صغيرة تجري في الجلد الأزرق، الشاسع، من فوق رأسي. أو خطوط وأشكال مبهمة أرسمها على الرمل أمامي. وكثيراً ما كان يخالجني الشعور في خلواتي تلك بأنّني أكثر من واحد. وكثيراً ما كنت أخاطب أولئك الذين كنت أتخيلهم معي، ولكن من غير أن أرفع صوتي.

لقد كان يؤنسني من رفاقي غير المنظورين أنهم لا يصخبون ولا يتشاجرون مثل رفاقي في المدرسة. وأنهم لا يستغربون دهشتي لكثرة الكائنات من حوالي، ولأشكالها وألوانها وحركاتها العجيبة؛ ولا يهزأون بسؤالي: أهذه كلّها خلقها اللّه مثلما خلقني؟ ولماذا؟ فذلك السؤال بدأ يلحّ عليّ حتى في صباي. وقد لاح لي غير مرّة في ساعات استرسالي مع تأمّلاتي الباكرة أنّني على وشك أن أظفر بالجواب. فكأنّه كان تحت لساني، أو وراء أجفاني...

لا أدري إذا كان وضعنا المادي في ذلك الزمان هو الباعث

Twitter: @ketab_n

على نفوري من الأعياد وما يرافقها من مظاهر البهجة المصطنعة. ولكنني إذا سرّني أن ألبس قمبازاً جديداً، أو طربوشاً جديداً، أو أن أحتذي حذاء جديداً في عيد الفصح أو الميلاد، فقد كان يحزنني أن أرى تفاوتاً في حظوظ الناس من بهجة اعيادهم. ففي حين ينفق بعضهم عن سعة، ويباهي بما ينفق، يتحايل البعض الآخر على تستير فاقته ويحاول أن يظهر في مظهر مَن جاءه العيد بالفرح. وإذا أنفق على العيد فمن دريهمات احتبسها بالحرمان والتقتير ليوم العيد. وذلك الشعور بالحزن أو الانكماش في الأعياد لازمني في صباي وشبابي وإلى أن باتت الأعياد عندي أياماً لا تتميّز بشيء من باقي أيّام السنة. فربّ يوم كان نكرة بين الأيام في التقويم السنوي، وجاءني، مع ذلك، بالأفكار النيّرة والأعمال المثمرة. وآخر كان علماً بين الأيّام ولم يأتني بغير التوافه، أو بأشياء طعمها في الفم طعم الرماد.

لم تكن ترهبني الدروس والفروض مهما تكاثرت وتعقّدت مثلما كانت ترهب الأغلبيّة من رفاقي. فقد كان يسعفني على التحصيل ميل فطري إلى الدرس، وتيقّظ فكري لما يقدمه المعلم من شروح، وذاكرة حادة في ذلك الزمان، ونزعة عنيفة إلى التفوّق. فما كنت أطيق أن يكون في صفّي من هم أكثر حظوة

Twitter: @ketab_n

مني في عين المعلم؛ ولا أطيق أن توجّه إليّ كلمة لوم أو تأنيب. لذلك قلّما دخلت الصفّ إلاّ واثقاً من أنّني استوفيت درس مثالتي. وإني لأذكر حتى كيف غلبني النعاس ذات ليلة قبل أن أحفظ عن ظهر قلب صلاة «أبانا» بالفرنسية، وكان قد كلّفنا حفظها ذلك المعلم الذي جاءنا بمبادئ الفرنسيّة، وقد نوهت عنه في فصل سابق. نمت وبي أشدّ الحنق على نفسي لأنّني سأذهب في الصباح إلى المدرسة وأنا لا أستطيع أن أردّد ترديد الببغاء Notre Père من أوّلها إلى آخرها. وكان أن حلمت تلك الليلة أنّني في الصف، وأنّ المعلّم أخذ يدعو رفاقي واحداً واحداً لتلاوة تلك الصلاة فلم ينجح ولا واحد. وعندما جاء دوري نهضت فتلوتها بدون هفوة. وكان في الصباح مثلما حلمت في الليل بالتمام.

هناك حلم آخر لا بأس لو أنا ذكرته الآن. فهو يعود إلى الفترة عينها يوم كنت بين السادسة والسابعة. فقد أسعدني الحظّ أن بتّ أملك سكّيناً صغيراً بشفرة واحدة. وكنت مزهوّاً بسكيني لا أنفكّ أتحسّسه في جيبي، أو أقلّبه في يدي، أو أبري به عيداناً لحاجة ولغير حاجة. وإذا بي أفقده ذات مساء فأكاد أفقد رشدي وقلبي. وأمضي أفتش عنه في كلّ مكان ولكن بغير جدوى. فأنطلق إلى فراشي ونفسي في ظلمة كظلمة الليل التي تلفّني.

Twitter: @ketab_n

وألجأ إلى الوسيلة الوحيدة الباقية في متناول فهمي - إلى الصلاة. فأضرع بمنتهى الحرارة والإيمان إلى المسيح أن يدلّني على ضالتي الغالية. ولا يخذلني المسيح. بل يريني في المنام سكّيني المحبوب وقد انغرس بعضه في الرمل بجانب فسحة من الأرض في حيّنا كنّا نتّخذها ساحة للّعب. وفي الصباح الباكر، حال نهوضي من النوم، أذهب إلى ذلك المكان فأجد السكين حيث أبصرته، وكما أبصرته، في المنام.

من بين جميع دروسي كانت اللغة العربيّة أحبّها إليّ. فما إن أحسستني قادراً على قراءة الكتابة غير المشكولة وتفهّمها حتى استهواني أن أوسّع قاموسي جهد المستطاع بحفظ مفردات جديدة، وبالأخص تلك التي كنّا ندعوها «لغويّة» - أي مفردات تحتاج إلى الشرح والتفسير. واتّفق أن وقعت في مكتبة خالي على نسخة من «مجمع البحرين». فهالني ما فيها من الكلمات «اللغوية» والأمثال العربيّة. فاقتنيت دفتراً كبيراً ورحت أنقل إليه ما أستسيغه من تلك المفردات لأعود إليها من حين إلى حين فأحفظ ما أمكنني منها لاستعماله عند أوّل فرصة تتاح لي. واتفق أن توفي أحد أنسبائنا في البرازيل. فأقاموا جنازاً عن نفسه في الكنيسة عندنا. ووجدتها فرصة مؤاتية لإظهار براعتي اللغوية فاهتبلتها؛

Twitter: @ketab_n

وألقيت تأبيناً حشوته بالكثير من الكلمات «اللغوية» التي نهبتها من «مجمع البحرين». ولأنّني كنت بين الحادية والثانية عشرة، ولأن السامعين كانوا يجهلون العربيّة الفصحى فقد كان وقع التأبين عليهم بالغاً حدّ الدهشة، وكان اعتزازي ببلاغتي فوق كلّ حدّ ...

منذ ذلك الحين بدأت أحسّني «كبيراً»، وفارقني الشعور بأني مجرد «وَلَد» أو «صبي»؛ وبتّ أنظر إلى نفسي نظرتي إلى إنسان تترتّب عليه مسؤوليات جسام فلا يليق به أن يبذّر وقته في الطيش واللعب. وتفاقم ذلك الشعور من جانبي عندما أُخبرت في صيف ١٩٠٢ أنّني، تقديراً لتفوّقي في دروسي وسلوكي، سأكون أحد المحظوظين من طلاب المدارس الروسيّة الكثيرة في لبنان وسوريا وفلسطين الذين أتيح لهم الالتحاق بدار المعلّمين الروسية في الناصرة بفلسطين.

إذن سأكون مدير مدرسة يوماً ما. وسيكون تحت إمرتي معلمون ومعلمات. وسأخطب في الحفلات. وسأخفّف عن كاهل والديّ بعض اعباء المعيشة. وافرحتي!

Twitter: @ketab_n

نحن والطبيعة

على قدر ما كانت تحنو علينا الطبيعة كنّا، ونحن صغار، نقسو عليها؛ وليس من يحاول، ولو بكلمة عابرة، أن ينبّهنا إلى قدسيّة المخلوقات وجمالها، وإلى عظيم شأنها في حياتنا المادية والمعنويّة.

فما إن نبصر ضبّاً حتى ننهال عليه بالحجارة. فإذا نجا من حجارتنا واندسّ برأسه في ثقب من الثقوب، وبقي ذنبه خارجاً، أمسكنا بذنبه ورحنا نعالجه إلى أن نظفر به حيّاً. وعندها نأخذ في تعذيبه فنشدّ خيطاً من القنّب حول عنقه ونوثق إلى الخيط أثقالاً نكرهه على جرّها. وننتهي بقتله وصبغ أكفّنا بدمه. فقد كنّا نؤمن أن الكفّ إذا صبغت بدم الضّبّ باتت لا تشعر بضرب قضيب المعلّم. على أنّني لا أذكر أني صبغت كفي مرّة بدم ضبّ.

وكنّا نصطاد الضفادع، لا لنأكل أفخاذها كما يفعل الناس في بعض البلدان، بل لنفتنّ في تعذيبها. فنفتح أفواهها لنملأها

Twitter: @ketab_n

بصاقاً، أو نشدّ برجليها إلى أن نفسخها شطرين، أو ندسّ قشّة مجوّفة في مؤخّرتها ونأخذ ننفخ فيها إلى أن تنتفخ الضفدع في شكل كرة هوائيّة، وفي النهاية تنشقّ.

وكنّا إذا تقاتل كلب حارتنا وكلب حارة أخرى فانهزم كلبنا لا نتورع عن القضاء على الكلب الذي أذلّ كلبنا، ولكن بطرق شيطانية من شأنها أن لا تترك أيّ دلالة على الجناية والجناة. فقد كنّا نأخذ شظايا من الزجاج ونسحنُها كما يُسحن الملح، ثمّ ندسّها في قطعة من العجين ونخبزها ونطعمها الكلب الجاني في غفلة من أنصاره. فيفعل الزجاج بمعدته وأمعائه فوق ما يفعله السمّ. وينتهي المسكين في غمرة من الآلام المبرّحة.

تلك نماذج من ضروب القسوة التي كنّا نرتكبها ضدّ مخلوقات لا ذنب لها إلا أنّها أضعف منّا، وأنها لا تملك من الحيلة مثل ما نملك. ولعله من الإنصاف لنفسي القول إنّني لم أُشارك مرّة في تعذيب مخلوق لمجرّد التسلّي بعذابه كما كان يفعل أترابي. ولكنّني كنت أشهد التعذيب يتمّ على يد غيري، فأقشعر ولا أهرب، وأتقزّز ولا أحتجّ. وقد يكون اني كنت أحسب قشعريرتي جبناً، وتقزّزي ضعفاً تجاه «بطولة» رفاقي.

أما المخلوقات التي كان يطيب لي تعذيبها غير حاسب أنّني

Twitter: @ketab_n

أسيء إلى نفسي وإليها فهي العصافير. وما ذلك إلاّ لاعتقادي أن قتلها وأكلها «حلال». هكذا أفهمني الكبار. وإذ ذاك فاقتناصها مباح مهما تكن الوسيلة. وأحبّ تلك الوسائل إلى قلبي وقلوب رفاقي، وكذلك أقربها إلى متناولنا، كان التفتيش عن الأعشاش حالما تبدأ العصافير بالتزاوج في الربيع. حتى إذا امتلأت الأعشاش فراخاً واكتست الفراخ بالريش، وباتت على وشك أن تهجر العشّ، «قبشناها» وذبحناها وشويناها وأكلناها متلمّظين، ومعتزّين بنباهتنا وقدرتنا على اختطاف تلك الفراخ من أمّها وأبيها اللذين أفنيا ربيعاً من حياتهما في التمهيد لولادتها وتنميتها كيما تصبح قادرة على الطيران والعيش مثلهما، وكيما تبقى العشيرة التي تنتمي إليها من العصافير معزّزة الأركان في الأرض.

وللاهتداء إلى الأعشاش كانت لنا سبل غاية في الدهاء. فإذا أبصر واحدنا عصفورة في منقارها قشة أو شيء من الطحلب ونحو ذلك أدرك في الحال أنها منهمكة في تعمير عشّ لها. وإذ ذاك فما عليه إلاّ أن يرقب حركاتها واتجاهاتها من مكان لا تبصره فيه ولا تشعر بوجوده. لأنها إذا أحسّت عينَ الرقيب راحت تدور في كلّ اتجاه إلاّ الاتجاه الصحيح. ولا تنفكّ كذلك إلى أن يفرغ صبر الرّقيب فينصرف: ولكنّها إذا اطمأنّت إلى أنها في مأمن من

Twitter: @ketab_n

رقيب يتتبّع حركاتها انطلقت لتوّها إلى حيث تشيد وكرها، فتركت هناك القشّة التي في منقارها وعادت تفتّش عن سواها. وعندئذ فما على الرقيب المتخفّي إلاّ أن يذهب إلى الشجرة التي حطّت عليها أو الثقب الذي دخلته في تلك الصخرة أو هذا الحائط، ليكتشف العشّ. وعليه أن يقوم باستكشافه قبل أن تعود العصفورة ثانية وتبصره. لأنها إذا أبصرته وأدركت أنّه اكتشف الوكر هجرته وراحت تبني غيره في مكان آخر. ولكنها لا تهجره من بعد أن تبيض فيه وترخم على البيض.

وإذا اتفق لأحدنا أن يرى عصفوراً يغنّي وحده في أعلى شجرة، وسمع في غنائه ما يشبه النشوة، تأكّد من أنّه ذكَرٌ يناجي أنثاه الراخمة في العشّ ويطمئنها إلى أنّه لا يزال أميناً لها ووفيّاً بواجباته الزوجيّة والأبويّة. وعندئذ كان عليه أن يرافق بانتباه تنقلات ذلك الذكر إذ انه لا بدّ في النهاية من أن يطير إلى الوكر إمّا ليحمل بعض الطعام لرفيقته، أو ليقوم مقامها كيما يتاح لها أن تفتش لنفسها عن قوتها الضروري.

وإذا أبصرنا عصفورة تحمل في منقارها حشرة من الحشرات عرفنا أنها منهمكة بزقّ فراخها. فما كان علينا إلاّ أن نختبئ حيث لا ترانا، وأن نرقب حركاتها بمنتهى الصبر والتيقّظ. حتى

Twitter: @ketab_n

إذا ولجت ثقباً أو حطّت على شجرة ثمّ لم تلبث أن عادت مسرعة ولا شيء في منقارها عرفنا أن وكرها في تلك الشجرة أو في ذلك الثقب. فذهبنا إليه نتفقّد الفراخ فيه ونعدّها. فإذا كانت فراخه لا تزال زغباً قلنا إنها «عَ اللّحّيم» وتركناها و شأنها إلى أن تكبر. وإذا كان زغبها قد بدا كالإبر قلنا إنّها «عَ المسلاّت». وإذا كانت قد اكتست بالرّيش فتوشك أن تطير قلنا إنها «عَ الطّيّيْر». فانتزعناها من العشّ بدون شفقة، ولعبنا بها قليلاً، ثمّ انتهينا بذبحها وأكلها مشوية على النار.

أمّا إذا أعيانا الاصطبار ريثما تفرغ العصفورة من بناء عشّها، ثم من البيض، ثمّ من احتضان البيض، ثمّ من زقّ الفراخ إلى أن تصبح «عَ الطّيّيْر» فقد كنا نلجأ إلى شتى الحيل لاصطياد العصفورة ذاتها. ومن أدهى تلك الحيل «العَنْبوقة» أو الأحبولة، وهي لا تُستعمل إلا من بعد أن تفرغ العصفورة من البيض وتعكف على احتضانه. و «العَنْبوقة» خيط طويل في رأسه أنشوطة. وهذه الأنشوطة كنّا نبسطها على حافة الوكر من بعد أن ننفّر العصفورة منه، ونبسطها بطريقة لا تثير القلق في ربّة الوكر. حتى إذا استقامت لنا تلك العملية الدقيقة أخذنا بالطرف الآخر من الخيط، واختبأنا في مكان قريب، ورحنا نرقب بفارغ

Twitter: @ketab_n

الصبر عودة العصفورة إلى الوكر. فما إن تعود وتستقرّ على البيض حتى نسحب الخيط بخفة وسرعة ولباقة فتنزرد الأنشوطة حول رجليها، وما هي إلا لحظات حتى تصبح في قبضتنا.

قمت بهذه العملية الدقيقة مرّة واحدة في صباي. ولا تسل عن عظيم بهجتي عندما شددت بالخيط الذي في يدي وإذا العصفورة تهبط من العشّ إلى الأرض مذعورة منتهى الذعر ومرفرفة بجناحيها في محاولة يائسة للإفلات من «عنبوقتي». لقد علقت المسكينة برجليها الاثنتين. ورحت أجرجرها على التراب إلى أن باتت في متناول يدي. وقلبي يقرع أذني قرعاً ويكاد يطير من بين ضلوعي. وعيناي تشتعلان بنار الظفر إذ أنا أبصر الرّيش الملوّن، الناعم، على بطن ضحيتي وصدرها ينفرج هنا وهناك، وأبصر جناحيها البديعين يتخبطان بدون جدوى. فلا أصدّق أنها بعد لمحة ستكون في حوزتي، أتأمّلها عن كثب، وأمسّد الرّيش على رأسها وظهرها ثمّ أحملها حيّة إلى البيت ليشهد ببراعتي الرفاق الذين سألقاهم في الطريق وأخواي الأكبر مني، ثمّ أذبحها وأنتفها وأشويها وأتلمّظ بلحمها وعظمها.

ولكن الخيبة المريرة كانت تنتظرني. فما كدت أفتح أصابعي الملهوفة، وأمدّ يدي المرتجفة لأقبض على طريدتي حتى انقطع

Twitter: @ketab_n

الخيط وطارت العصفورة وهي لا تصدّق أنها نجت من قبضة عزرائيل. وأنا لا أصدق أن بهجة الظفر التي ألهبت دمي ستنقلب بين لمحة ولمحة أصابع من حديد تقبض على قلبي فتعصره عصراً، أو حسكاً سامّاً يمشي في شراييني فيمزّقها تمزيقاً، أو ظلمة في عيني أكاد لا ابصر معها سبيلي إلى البيت، وأكاد أؤثر لو تنشقّ الأرض وتبتلعني...

يا لغفلة الصبا ما أكثر أفراحها وأتراحها، وما أعجب الينابيع التي منها تنبجس آهاتها، وتتدفّق قهقهاتها!

مرة كنت وأخي هيكل نرعى بقراتنا بالقرب من الشخروب بين صخور تكدّست بعضها فوق بعض كأنها خرابات حصون أسطورية، أو أنقاض معابد سحيقة في القدم. وقد تعلّقت جميعها على شفا واد بعيد الغور، رهيب الجنبات. كنت في نحو العاشرة وأخي في نحو الثانية عشرة. وإذا بطائر كبير يحوّم فوقنا ثمّ لا يلبث أن يزمّ جناحيه ويدخل فجوة واسعة في وسط صخرة عالية على بعد خطوات منّا. وإذا بنا نسمع قضقضة وصفيراً ينبعثان من الفجوة. وما هي إلاّ دقيقة حتى يخرج الطائر من الفجوة ويحلّق بعيداً بجناحيه العظيمين. فتنقطع القضقضة ويهدأ الصفير.

«هنالك وكر!» - قالها هيكل بصوت مَن اكتشف كنزاً لا

Twitter: @ketab_n

يعادله كنز، أو سرّاً ما بعده سرّ. وبلمحة الطرف وثب إلى حيث الصخرة الرهيبة. ومن بعد أن تسلّقها مرّة أو مرّتين بعينيه طفق يتسلّقها بيديه ورجليه. وأنا أرقب حركاته مشدوهاً وغير مصدّق ما تبصره عيناي. لقد كانت الصخرة تنتصب عموديّاً قرابة عشرة أمتار، والفجوة التي فيها ترتفع عن الأرض لا أقلّ من خمسة أمتار. ولم يكن في الصخرة موطئ لقدم أو ممسك ليد، ما خلا بعض النواتئ والتجاويف هنا وهناك، وما خلا نبتة بريّة تتوسط المسافة بين الأرض والفجوة.

«هيكل! هيكل! لا تطلع. انزل. انزل...»

لقد أخذتني الرجفة، وطفر الدمع من عينيّ. إنها مغامرة ستنتهي بكارثة من غير شكّ. وماذا عساني أفعل في تلك البريّة الوعرة إذا سقط أخي وتحطّم، وأنا وحدي، وليس من يسمع صوتي، ولا قدرة لي على حمله؟ والبقرات؟..

«لا تخف. لا تخف!» ومضى يتسلّق غير آبه بتوسّلاتي وبالدموع في صوتي المرتجف. حقّاً إنّه لَبَطل. إنّه يصنع العجائب. ها هو يتسلّق أعلى فأعلى. ها هو يمسك بالنبتة البرية. ها هو يدخل الفجوة ليطلّ منها بعد لحظات وفي يديه فرخان كبيران يلوّح بهما ويقول: «انظر. انظر. أبإمكانك أن تتلقّاهما

Twitter: @ketab_n

بيديك إذا أنا رميتهما؟»

«هات!» - ويهوي أوّل فرخ فأتلقّاه وأضعه على الأرض. ويهوي الثاني فأتلقاه وأضعه بجانب أخيه. إنهما من الكواسر، غريبا الشكل، شرسا النظرات. والريش في جلديهما كالمسلاّت. وهما بحجم «الفرّوج» الكبير من الدجاج. والمدهش أنهما، على ضعفهما، يحاولان الدفاع عن نفسيهما بمنقاريهما الواسعين، وبمخالبهما.

إلاّ أن منظر الفرخين العجيبين، وإن استهواني هنيهة، لم يصرفني عن خوفي على مصير أخي. لقد صعد بأعجوبة. فكيف ينزل؟

«يا رب. يا رب! يا مار جرجس! يا ست السيدة!..» ويخطر لي أن أقف تحته - عند أسفل الصخرة. حتى إذا زلّت قدمه، أو خانته كفّه، تلقّيته كما تلقّيت الفرخين العجيبين. أو، في الأقلّ، كسرت من حدّة ارتطامه بالأرض. ولكن... ما هذا؟ أمر لم أحسب له أيّ حساب... إنها الأم - أم الفرخين العجيبين - تعود. وإذ ترى أخي ينحدر من الصخرة تهجم عليه وتصفّق فوق رأسه بجناحيها العظيمين - بل هي تضربه بجناحيها. فهل يحتفظ بوعيه؟ هل يصمد لهجمات الأمّ المفجوعة بولديها؟ وأنّى

Twitter: @ketab_n

له أن يصمد وهي تبتعد وتقترب - ترتفع وتهبط - وقد جنّ جنونها فما بقيت تبالي بحياتها؟

ويدوم الصراع لحظات أحسبها دهوراً. وتتم العجيبة. فأخي على الأرض بجانبي. وليس في يديه ورجليه الحافيتين أي أثر حتى لخدش. وتخسر الوالدة المعركة فتطير بعيداً تاركة بين أيدينا المجرمة فلذتين من كبدها أنفقت الأيّام والليالي في بناء وكر لائق بهما، وفي احتضان البيضتين اللّتين منهما نقفا، وفي اقتناص الحجال والأرانب والوطاويط قوتاً لهما. وقد ظنّت وكرها أمنع من أن يقتحمه أيّ عدوّ منهما تمادى به الجهل والغرور. يا ويلها! فهي لم تحسب حساباً لولدين عفريتين جازف أحدهما بحياته لا لشيء إلا لحبّ المجازفة. وحرمها طفليها الحبيبين لا طمعاً بلحمهما - فقد كان يعرف أن لحمهما غير مستساغ. ولكن طمعاً باكتشاف المجهول، والتغلّب على القصيّ. وها هو الثاني منهما يروي للناس مأساتها ومأساة طفليها اللذين، بعد يومٍ، قضيا جوعاً أمام عينيه من بعد أن أعجزه الاتيان بالطعام المناسب لهما. وهو يروي المأساة شاعراً أنّها مأساته. ويتمنّى لو يعود الزمان القهقرى لعلّه يفرغ في قلب الولد الذي كانه في العاشرة بعض ما في قلبه وقد بات في السبعين. ولكن هيهات. فالزمان لا يتقهقر ولا يتقدّم. ونحن

Twitter: @ketab_n

الذين نمشي إلى الأمام أو إلى الوراء على قدر ما تتّسع مداركنا أو تضيق، وعلى قدر ما تمتدّ محبّتنا للمخلوقات أو تتقلّص.

ومأساة أخرى من هذا القبيل تطالبني بتسجيلها. إنها مأساة حجلة رأيتها ذات مساء على صخرة منفردة بينما كنت في طريقي إلى الكوخ في الشخروب، وعلى كتفي الجفت. وكنت حديث العهد بالصيد، وأقصى ما أصبو إليه أن أصطاد حجلاً. وأحسب أنّني كنت في نحو الرابعة عشرة.

أخذت أسترق خطاي في اتجاه الطائر الجميل الواقف على الصخرة، وجفتي في يدي مرفوع الزناد، وقلبي يكاد يتوقف عن النبض. ولكن الطائر الحذر أبصرني فلم يسمح لي بالدنوّ منه على مرمى الخردق. بل انتقل إلى صخرة أخرى ضمن دائرة بصري. وأدهشني ذلك منه لما كنت اعرفه عن الحجل انّه إذا شعر بخطر الصياد طار بعيداً واختفى حيث لا تبصره العين. وكرّرت محاولتي ثانية وثالثة ورابعة. فكانت النتيجة واحدة. عندها أدركت أن الحجل الذي كنت ألاحقه بغير جدوى لم يكن سوى أنثى مقيدة بفراخ صغيرة لا تطاوعها أمومتها على الهرب بعيداً عنها وتركها تحت رحمة مخلوق لا يضمر لها إلاّ الشرّ. وكنت أعرف أن الحجلة الأمّ إذا أحسّت الخطر على فراخها التي لا

Twitter: @ketab_n

تستطيع الطيران بعد، صفرت لها صفرة الخطر فاختبأت الفراخ في الحال تحت الحجارة وانقطعت عن الصوت والحركة حتى ليمرّ الإنسان بها فيحسبها بعضاً من تلك الحجارة.

عندئذ أقلعت عن مطاردة الأم وتوجهت إلى الصخرة التي أبصرتها عليها أوّلاً. وبي شوق متأجّج إلى التقاط أكبر عدد من الفراخ. لا لأذبحها وأشويها كما كنت أفعل بفراخ العصافير. بل لأربّيها وأنعم بجمال ألوانها، ورشاقة حركاتها، وعذوبة أصواتها بعد أن تكبر وتصبح داجنة. لقد كنت - ولا أزال - أحبّ الحجل فوق محبتي لجميع الطيور التي تقطن أو ترتاد جبالنا: إنّه طائر لا يبرح الأرض التي استوطنها مهما قست عليه عناصرها في سائر فصول السنة، ومهما أمعن الصيادون فتكاً بأبناء جنسه.

وجدت بالقرب من الصخرة كومة كبيرة من الحجارة المتفاوتة الحجم. فلبثت هناك أرهف سمعي وأحدّق ببصري فلا أسمع صوتاً ولا أبصر غير الحجارة. وكانت الأم ترقبني من بعيد وفي قلق أكيد. وبدا لي كأنّني في نزال مع تلك الأم المذعورة ومع فراخها المختبئة في مكان ما بالقرب مني. أأرضى بالهزيمة؟ أأعترف أمام نفسي أن الحجلة وفراخها أوسع حيلة وأوفر فطنة منّي؟ لا. لن يكون ذلك. مفتاح الظفر الصبر. ومع الصبر

Twitter: @ketab_n

الانقطاع عن أي حركة - حتى عن التنفس لو كان ذلك في الإمكان. فلا بدّ للفراخ - في النهاية - من أن تخرج من مخابئها وقد عيل صبرها. أجل. ليكن صبري أطول من صبرها.

وتنقضي دقائق طويلة وكأنّني الحجر - لا نَفَس تلتقطه أُذن، ولا حركة تبدو لعين. وأخيراً - صفرة خافتة جدّاً. لعلّ أذني تخدعني... لا. فالصفرة تتجدّد وتعلو هنا - هناك - هنالك. إنها آتية من كومة الحجارة. إنها من تحت ذلك الحجر. وأمضي إلى الحجر فأرفعه وأقبض في الحال على حجل صغير ما أظن عمره يتجاوز الأسبوع. ويتكرر الصمت والصبر والهجوم، وأعدّ الفراخ التي التقطها ووضعتها في جراب الصيد فإذا بها أحد عشر فرخاً! إنّه «لتوفيق» باهر. فوق ما كنت أتوقّع بكثير، بكثير. وإنّه لنهار «مبارك» حقّاً. وأعود إلى الكوخ مزهوّاً بصيدي الوفير أمام الشمس التي توشك أن تغطس في البحر، وأمام السماء والأرض، وأمام نفسي، وأمام تلك الحجلة المسكينة التي كانت ترقبني من بعيد واهمة أنها وصغارها أوفر حيلة مني. لقد كان صبري أطول من صبرها وصبر صغارها. وكانت استراتيجيتي أبرع من استراتجيتها واستراتجية بنيها. وما همي كيف يكون حالها، وبماذا ستشعر وتفكر، عندما تعود إلى كومة الحجارة وتنادي: «إليّ يا

Twitter: @ketab_n

أبنائي وبناتي الأحبّاء!» فلا يستجيب لندائها غير أربعة أو خمسة منها؟ (تربّي الحجلة بين ١٢ و ٢٠ فرخاً).

في ذلك المساء وضعت الأحد عشر فرخاً في صفيحة كبيرة من بعد أن كسوت قعرها بالصوف وغطيتها بغربال مخافة أن تهرب الفراخ، ومخافة أن يؤذيها البرد في الليل. ونمت وأنا أرسم الخطط للنهار الآتي: سأصطاد لها الجنادب. وسآتيها بالأعشاب الندية. فقد قيل لي إن الحجال تحب لحم الجنادب والأعشاب الطريئة. وتأكل القمح كذلك. وجميعها موفور في الشخروب. ولكنني عندما أفقت في الصباح الباكر، ورحت أتفقّد الصفيحة، وجدتها فارغة ...

وإنّه ليحيّرني حتى اليوم كيف أفلتت الفراخ من الصفيحة، وماذا حل بها في ذلك الليل. لقد فتشت، وفتش غيري كثيراً، فلم أقع، ولا وقعوا، على أيّ أثر لها. ولكن أثر المأساة التي سبّبتها لها ولأمّها لم يُمْحَ - ولن يمحى - من نفسي.

Twitter: @ketab_n

نكبة وهجرة

في غرة أيار من مستهل القرن العشرين جاءنا أخ جديد أسميناه «نجيب». وفي خريف ذلك العام - ١٩٠٠ - جاءنا من مصر نعي خالي الأكبر إبرهيم. فكان موته كارثة لأخيه في مصر ولوالدته وأخواته في بسكنتا، وبالأخصّ لأمّي التي كانت تحبّه فوق محبّتها لنفسها، وكانت تعقد عليه آمالاً كباراً بشأن مستقبل بنيها. فكان تفجّعها عليه ولا تفجّع الخنساء على صخر. وقد بلغ بها التفجّع حدّاً أهملت معه نفسها وبيتها وبنيها بما فيهم طفلها الرّضيع الذي لم يكن له من العمر غير ستة شهور. فما كانت ترضعه إلاّ لماماً، وتركته لي أحمله من مكان إلى مكان لأسلّيه عن ثدي أمّه، واهتمّ بتنظيفه، وأضجعه في فراشه ساعة يغلبه النوم.

لقد هالني من الموت أن يكون له مثل ذلك السلطان على الناس. أفلست أسمعهم في شتى المناسبات يردّدون: «كلّنا غلّة الموت» - «الدائم اللّه» - «الموت رحمة» - «الموت حقّ»؟ فما داموا يعرفون أن كلّ حيّ للموت، وأن لا دائم إلاّ اللّه، وأن الموت

Twitter: @ketab_n

حقّ، فما بالهم، كلّما مات حيّ من أحيائهم، ينفشون الشعور، ويلّطمون الخدود، ويمزّقون الثياب، ويذرفون الدموع، ويعولون ويندبون ويعاتبون، ثم ينتهون بأن يلفّوا أجسادهم وقلوبهم بالسواد، فلا تند عنهم بسمة، ولا تُقرع في بيوتهم كأس، ولا يُسمع نغم غير أنغام النواح والانسحاق؟

ها هي أمّي. لكأنّها غير أمّي من بعد أن جاءها نعي أخيها. أين مشيتها المتزنة، الرشيقة، المتكبرة؟ إنها تمشي كمن يحمل أثقال الأرض والسماء على منكبيه. أين عيناها الواسعتان، الذكيتان، الحالمتان؟ إنهما بركتان من الدم، وأجفانهما مقرّحة بالدمع. أين تلك الحمرة اللطيفة المتفشية في وجهها الحنطي؟ لقد استحالت صفرة ممتقعة كالتي تعلو وجه المريض المزمن. أين العتوّ في أنفها المحدودب احديداباً لطيفاً عند نهايته؟ إن ذلك الأنف بات الآن عنوان الذلّ والانكسار. أين العذوبة في صوتها الصافي، الحنون؟ إنّه صوت أبحّ، جافّ. لا أذكر أني حزنت لموت خالي. وأذكر أني بكيت لبكاء أمّي، وحزنت لمظهرها.

وتمضي السكرة وتأتي الفكرة. لقد مات مَن مات. وهنالك أحياء لا بدّ من الاهتمام بمعاشهم. كانوا ستة فأصبحوا سبعة. وقد يصبحون ثمانية وتسعة وعشرة - وأكثر. من يدري؟ وأشواك

Twitter: @ketab_n

الشخروب لن تدرّ الحنطة، وصخوره لن تنضح بالشهد والزيت، وبستان التوت في الضيعة لن ينتج من الحرير ما يملأ خزانة العائلة بالقروش. فأين المخرج؟ - أميركا!

وبقلبٍ دامٍ تتخذ امي قراراً بسفر أخي أديب إلى الولايات المتحدة - ولمّا يطر شارباه. إنّه في خريفه السادس عشر. لقد سافر أبوه قبله ولم ينجح. فلعلّه يكون أوفر حظّاً من أبيه. فهو متعلّم وأبوه أمّي. ولعلّه يعود بعد سنين لينتشل العائلة من القاع إلى الذروة كما فعل البعض من أبناء بسكنتا. ويذعن والدي للأمر على مضض. إنّه يتمنّى لو يبقى ابنه الأكبر بجانبه يساعده في أعماله الشاقة في الشخروب. ولكنّه يكتفي بأخي هيكل الذي تنكّر للمدرسة من صغره. وكان يؤثر أشقّ الأعمال اليدويّة في الهواء الطلق على الانحباس ساعة ضمن الصفّ. تبقى مشكلة «الناولون» - تذكرة السفر. وكان يبلغ نحو عشرين ليرة ذهبية. ويستدين والدي المبلغ من خالي سليمان الذي عاد من مصر بعد وفاة أخيه. ويسافر أخي أديب على بركات اللّه برفقة نفر من أبناء بسكنتا وبناتها، وهو أصغرهم سنّاً.

إنها لحقبة عجيبة حقّاً تلك التي شهدها لبنان منذ العقد الأخير من القرن الماضي وحتى نهاية العقد الثاني من القرن

Twitter: @ketab_n

الحاضر. لقد كانت حقبة مليئة بالمغامرات والبطولات التي تهزأ بأغرب ما في الأساطير. ولعلّ أوّل من تنبّأ بها قبيل حلولها رجل من بسكنتنا. فقد كان القدامى يروون لنا حكاية مجنون يحمل قصبة ويطوف أحياء البلدة في كل يوم منادياً بأعلى صوته:

«رجالكم. نسوانكم. أولادكم. دجاجكم - عَ البحور! عَ البحور!»

وتمّت نبوءة المجنون. فقد راحت بسكنتنا - راح لبنان - يزحف إلى البحر ليركبه إلى دنيا بعيدة ما كان يعرف عنها شيئاً على الإطلاق. إذ أن الأغلبية الساحقة من مهاجريه الأوّلين كانت من الذين لا عهد لهم بالحرف، فلا يعرفون إذا كانت الأرض مستديرة أو مسطحة، وأين تقع منها البلاد التي إليها يقصدون، ومن هم سكانها، وكيف يعيشون، وأيّ اللغات يتكلمون، وما هي طباعهم وموارد رزقهم، والأديان التي بها يدينون. ولا هم أبصروا يوماً باخرة أو قطاراً من قريب. فقد كان أكثرهم من الذين نبتوا وتأصلوا في الجبال. وقلّ بينهم من زار مرّة بيروت او غيرها من المدن الساحليّة. وجلّ ما في الأمر ان أسماء كثيرة لشتى المهاجر شاعت بينهم: المتحدة. المكسيك. كولومبيا. بوليفيا. البرازيل. الأرجنتين. أوستراليا وغيرها وغيرها. حتى الفيليبين والهند الصينيّة!

Twitter: @ketab_n

لقد كان يكفيهم أن يزمعوا على السفر. أما وجهة السفر فكانوا يسترشدون غيرهم في اختيارها. فيعقدون المؤتمرات ويعرضون ما أمكنهم من المَهاجر، وفي النهاية يختارون بلداً سبقهم إليه بعض أنسبائهم، أو قيل لهم إنّ الارتزاق فيه أسرع وأيسر ممّا في سواه. وكثيراً ما كان «الناولون» يفرض عليهم اختيارهم بالنسبة إلى ارتفاعه هنا وانخفاضه هناك. فأكثرهم كان يستدين «الناولون» برهن أملاكه لأحد المرابين. لذلك كان همّهم الأكبر أن يوفوا دينهم من المال الذي يكسبونه في بدء هجرتهم. ولكم كنت أسمع الرجال والنساء في حداثتي يتساءلون عن غيّابهم فتقول امرأة لأخرى:

«كيف حال ابن عمّك؟» (أي زوجك) أو «كيف المحروس؟ انشا اللّه عَمْ يكتب؟ انشا اللّه موفّق؟»

فتجيبها الأخرى:

«الحمد للّه. ردّ الناولون». أو انّه «لم يردّ الناولون بعد».

ولأن السفر بين بسكنتا وبيروت كان يجري بواسطة المكارين مرّتين في الأسبوع، فقد كان يوم الاثنين ويوم الخميس من الأيّام المشهودة في البلدة. إذ يندر أن يمرّ واحدهما من غير أن يكون هناك راحلون ومودعون. ويا لساعة الرحيل ما كان أشدّ هولها!

Twitter: @ketab_n

بغال وحمير تجلجل. ومكارون يصيحون: «يا اللّه! زحمتنا الشمس!» ورجال ونساء - شيب وكهول وشبان وأطفال - تغتسل خدودهم بالدمع، وترتجف الكلمات على شفاههم أو تتجمد في حلاقيمهم. أيدٍ تلفّ اعناقاً؛ وصدور تتلاصق بصدور؛ ورؤوس تستلقي على أكتاف وتأبَى الانسلاخ عنها؛ وشفاه عطشى، غرثى تحطّ على الوجنات - على الجباه - على الذقون - على العيون فتمتصّ منها وتمتصّ، ولا ترتوي ولا تشبع؛ وأصوات مخنوقة تردّد: «دخلك ما شبعت... خلّيني اشبع». وكيف يشبع أب أو أم من تقبيل أولادهما وهما يرحلان عنهم إلى حيث لا يعلمان. ويرحلان غير واثقين من أنّهما سيعودان إليهم يوماً ما؟ كذلك قل في الزوجِ مع زوجه، والأخ مع أخيه، والولد مع والديه، والصديق مع صديقه.

إنها أعشاش تُبعثَر، وأرحام تُقَطّع، وأفئدة تُفَتّت، وأكباد تُمَزّق. وما من معزٍّ لها إلاّ الأمل - ذلك البلسم الربّاني الذي لولاه لكانت هذه الدنيا زنزانة هائلة للمحكوم عليهم بالإعدام، أو جُبّانة رهيبة ليس فيها نبض حياة أو بصيص نور. فما من مهاجر أدار ظهره في هذه البلاد لأهله وجباله إلاّ وهو يمنّي نفسه بالعودة إليهم وإليها بعد سنين، وفي حالة أفضل من تلك التي فيها

Twitter: @ketab_n

هجرتهم وهجرها. فكان، كيفما صفقته الرياح، وأينما استقر – ولو في أقاصي الأرض – يحسّ أسلاكاً خفية، جبارة، تشدّه إلى الذين عنهم نزح، وإلى الوعور والسهول والجواء التي منها انطلق. وكان أبداً يردّد في قرارة نفسه: «غداً أعود. غداً أعود».

وتمشي القافلة. فيتعالى الصياح، وتتفجّر المدامع، ويشتدّ النشيج، ويترنّح الهواء بالأيدي الملوّحة بالمناديل، وترتفع الأدعية إلى السماء «اللّه يوصّلكم بخير ويردّكم بخير. اللّه يوفّقكم. اللّه يرافقكم!» فلا المودّعون يجفّ لهم جفن، ولا المسافرون. ويبقى أولئك يرافقون القافلة بأبصارهم وقلوبهم وأدعيتهم، ويبقى هؤلاء يتلفتون إلى الوراء وبودّهم لو يحملون معهم جميع من تقع عليهم عيونهم، وجميع ما يدخل في نطاق سمعهم وبصرهم. إلى أن تغيب القافلة عن النظر وتتلاشى رنّة جلاجلها في السمع. ويعود المودّعون إلى بيوتهم وكأنّهم عائدون إلى المقابر. ويمضي المسافرون في سبيلهم وكأنّهم ماضون إلى المشانق. وصنّين لا يبالي. والشمس من فوق قمته لا تبالي. والسماء من فوق الاثنين لا تبالي. أو هكذا تبدو جميعها للذين لا يحسنون قراءة ما في أساريرها، وترجمة ما في لحظاتها. وحول المسرح الذي تمثّلت عليه تلك المشاهد لا تنفكّ تحوم نتف ممّا تساقط من أفواه النظارة:

Twitter: @ketab_n

«البحر داخله مفقود. والخارج منه مولود»
«من يدري مَن يعود منهم، ومَن لا يعود؟»
«البعد جفاء. اليوم يبكون وغداً يسلون»
«ما كان أحلانا وأهنانا قبل أن تُفتح دروب أميركا!»
«حرق اللّه عظام الذين فتحوها!» الخ الخ.

يا ويل عظامك في لحدها يا كولومبس - إذا كان في لحدك بقية من عظام! حتى أنت لم تنجُ من السخط والنقمة واللعنة. وصخور لبنان شاهدة على ما أقول. وأيّ عزاء لأم في لبنان أن يقال لها إنّك أهديت إلى العالم القديم عالماً جديداً، ما دام عالَمك الجديد قد سلخ من بين ذراعيها ولدها الزاحل عن قلبها، وبالأخصّ إذا اتفق وبات عالمك الجديد مدفناً لولدها؟ إن النّعمة التي أسبغتها على النّاس ما لبثت أن انقلبت نكبة في حياة الكثير منهم. ألم تكن نكبة لسكان العالم الذي اكتشفته؟ وقد تتكشف بعد حين عن أفظع نكبة للعالم كلّه بشقّيه القديم والجديد. مَن يدري؟..

تمشي القافلة. وحشاشات من فيها تتلفّت أبداً إلى الوراء: إلى وجهٍ حبيب. إلى بيت بعينه. إلى شجرة أو صخرة أو خيمة على كتف ذلك أو ذيّالك الوادي. إلى بقرة أو عنزة أو أتان. إلى

Twitter: @ketab_n

هذا الشِّعب المصعّد في الجبل، أو تلك العين الثرثارة، الدافقة من بين ضلوعه. ويتملّص الفكر بين الفينة والفينة من قبضة هذه الأشياء فيشرد إلى هناك - إلى ما وراء البحار الشاسعة، حيث العالم الجديد - حيث «المجهول» الهائل الملفّح بالضباب الكثيف. ويحاول الخيال أن يخترق الضباب فيرتدّ أبداً واهن القوى، منكس الأعلام. ولا يجد تعزية إلاّ في الاستسلام: «كريم هو اللّه. لتكن مشيئته!»

وتبلغ القافلة بيروت. فيتلقفها السماسرة - سماسرة السفر. وسماسرة البيع والشراء. فلا بدّ قبل كلّ شيء من استبدال الزيّ الفرنجي بالزّيّ الوطني لتحلّ البرنيطة محلّ الطربوش أو اللبّادة، والسترة محل العباءة، والبنطلون محل القمباز أو الشروال، والحذاء بغير مسامير محل الحذاء بمسامير. ولا بدّ من استبدال النقود الأجنبيّة بالنقود التركية. ثمّ لا بدّ من تحديد وجهة السفر وابتياع «الناولون». وهذه كلّها أمور يحسنها السمسار وليس يحسنها المهاجر الأمّي الهابط من الجبال.

وأخيراً يتلقّف البحر المهاجرين ليلفظهم بعد نهارات وليال طوال، مثقلة بشتى الامتهانات والإهانات، والغموم والهموم، والأوجاع والأوصاب. يلفظهم كما يلفظ الصدف والحطام

Twitter: @ketab_n

والنفايات. هذا على ضفاف الهدسن. وتلك في بوسطن. وآخر في ريو دي جانيرو أو في السانت. ورابع في هافانا. وخامس في سِدْني. وسادس في مانيلا. إلى آخر ما هنالك من موانئ في غربي الأطلسي وشرقي الباسيفيكي وجنوبيه. فلا تلبث تلك الأجساد والأرواح الهائمة أن تدرج في طلب الرزق. تطلبه في كلّ مكان. في البراري الموحشة والغابات المظلمة. في المدن القريبة والدساكر البعيدة. تطلبه بالمعول إذا لم يكن من وسيلة غير المعول. وتطلبه بالتجارة إذا تيسّر رأس المال لفتح حانوت. ولكنّ معظمها يطلبه بـ «الكشّة».

وما أدراك ما هي «الكشّة»؟ إنها الحقيبة السحرية الحاوية من كلّ فنّ خبراً. فيها الأزرار والكشاتبين والبَكَر على أنواعه والإبر والدبابيس على أنواعها. وفيها المرايا والمقصّات والسلاسل والساعات. وفيها المناديل الملوّنة والجرابات والقمصان، والبخور والعطور. وفيها التراب عن قبر المسيح، والماء المقدس من نهر الأردن. وفيها الصلبان المصنوعة من الصدف في بيت لحم وفي قلبها صورة كنيسة القيامه. وما لي أعدد ما فيها من الأصناف وهي أكثر من أن تُعَدّ؟ إنها «الكشة» وكفى. يحملها المهاجر على ظهره من مكان إلى مكان ويمضي يطرق الأبواب حيثما وقع عليها. فينفتح بعضها له ويبقى بعضها مقفلاً. والتي تنفتح له لا

Twitter: @ketab_n

يندر أن تنغلق بلمحة الطرف حالما تبصر ربّة البيت الطارق وتدرك أنّه «توركو» أو «ديغو» فتصرفه بنبرة غضبى وبوابل من الشتائم. وقد تطلق عليه كلبها. ولكنّه لا يقنط، ولا يبالي بالعضلات المكدودة، المستغيثة، في يديه وكتفيه، وفي ظهره ورجليه. ولا بالجوع والعطش يضجّان في معدته. وحسبه من الأبواب التي يطرقها أن يلج منها ثلاثة أو خمسة في نهاره، وأن يبيع بعض ما في الكشّة. فالنّاولون لا بدّ من دفعه. ولا بدّ من إمداد الذين خلّفهم في الوطن ببعض المال.

إي. إن فضل الكشّة على لبنان لفوق ما يخطر في بال لبنان. ولو أنّه أدرك فضلها لأقام لها أروع تمثال من زمان، وعلى أرفع ذروة من ذراه. فمنها - في الأساس - هذه السقوف المرجانيّة المنتشرة على هضابه وسفوحه الزمرّدية. ولها اليد الأولى والطولى في فكّ قبضة الإقطاعية البغيضة عن خناق لبنان. فما إن أخذت الأموال تتدفّق من المهاجرين على المقيمين حتى راح هؤلاء يبتاعون الأرض التي اقتطعها العهد البائد لكبار الأمراء والمشايخ. فخراج بسكنتا الواسع كان، منذ أقلّ من قرن، يملك معظمه الأمراء اللمعيون. وقد أدركتُ خمسة من ذريتهم في أوّل صباي. أما اليوم فقد باتوا جميعهم أثراً بعد عين. وليس من ذريتهم من

Twitter: @ketab_n

يملك شبراً واحداً من تراب بسكنتا وجبالها. وما تبقّى من مساكنهم - وهو قليل - لا تتجاوب اليوم جدرانه باستعطافات أبناء بسكنتا وبناتها «يا ستي!» و «يا سيدي!». فالذين يملكونه هم الذين كان جدودهم أجراء أو شركاء عند الأمراء. لقد تمّت الأعجوبة بفضل الكشّة أوّلاً.

فالمجد للكَشّة!

Twitter: @ketab_n

الغربة الأولى

كان عالمي رحماً مغلّفة بظلمات ضمن ظلمات. فأصبح سريراً صغيراً من خشب يغمره النور في النهار والظلام في الليل. ثمّ بيتاً صغيراً سطحه من تراب وأرضه من تراب. ثمّ حيّاً في ضيعة. ثمّ بخراجها الممتدّ إلى أعالي الجبال المحيطة بها. وها هو - وقد آن موعد سفري إلى الناصرة - يمتدّ بعيداً، بعيداً - إلى فلسطين. وأين يا فلسطين - يا أرض الميعاد التي تدرّ لبناً وعسلاً؟ أين أنت يا حُلُم موسى وسبيّة يشوع بن نون، ويا حبيبة داود وسليمان، ويا ملهمة إشعيا وكاتب سفر أيوب، ويا مسرحاً تعاقبت عليه أدوار أنبل حياة وفصول أفجع مأساة منذ مأساة عدن؟ وأين أنت يا ناصرة النجّار يوسف وخطيبته مريم التي منها بطل تينك الحياة والمأساة؟ للّه ما أبعدك يا أرض اللبن والعسل، وأبعد ناصرتك! وهل فيكما ما يغني هذا اليافع الذي لم يكمل بعد عامه الثالث عشر - هل فيكما ما يغنيه عن وكره المتواضع، وعن أهله، وعن شخروبه؟

Twitter: @ketab_n

قيل لي إنّه لا بدّ للسفر من تذكرة نفوس تعطيها المحكمة، وإن الذهاب إلى المحكمة والإياب منها يستغرقان يوماً بكامله. وإنّه لا بدّ للحصول على التذكرة من شهادة ولادة. ومن أين شهادة الولادة؟ - من الكاهن.

ذهبت إلى الكاهن. وكان عجوزاً متهدّماً جلّله الشيب، وتأصّلت العداوة بينه وبين الضاد. فلا هو يطيعها. ولا هي تطيعه. ولذلك - ونكاية بها - كان يلفظ ذاءها سيناً، وذالها زاياً، وقافها همزة. والأنكى من ذلك أنّ واو العطف وفاءه ما كانتا تخرجان من فمه إلاّ مكسورتين. وذلك ما لم يستطعه أحد من الأوائل أو الاواخر. قلت للكاهن العجوز:

«أريد شهادة ولادة يا أبت».

فحدجني مستغرباً من تحت نظّارتيه وأجاب:

«شهادة ولادة؟! وكيف لي أن أذكر متى وُلدت؟»

قلت: ألم تقم أنت بعمادتي؟

قال: بلى.

- إذن شهادة عمادة من فضلك.

- لست ربّ العزّ يا ابني لأتذكّر تاريخ عمادتك.

- أليس لدى الكنيسة سجلاّت؟

Twitter: @ketab_n

- أيّ سجلاّت؟! نعمّد من يولد، ونجنّز من يموت، ونزوّج الذين يريدون الزواج. لماذا السجلاّت؟ وأيّ نفع منها؟

- ولكنني على سفر. ولا بدّ لي من شهادة ولادة. فما العمل؟

- اذهب إلى أمك أو أبيك أو جدّتك. لعلّهم يذكرون متى وُلدت. وتعالَ فنرى في أمر الشهادة.

عدت إلى أمك أو أبيك أو جدّتك. لعلّهم يذكرون متى وُلدت. وتعالَ فنرى في أمر الشهادة.

عدت إلى البيت مدحوراً. وسألت أمّي عن اليوم الذي فيه وُلدت. أو عن الشهر والسنة في الأقلّ. فكان جوابها حيرة أدهى من حيرة الكاهن:

- تقبر امّك ان شا اللّه. من أين لي أن أذكر حتى الشهر والسنة؟ أعرف أنّك وُلدت في «الذبيح» (موسم ذبح الخرفان المسمنة). وان والدك سافر إلى أميركا يوم كان لك من العمر عشرة شهور فقط.

- وفي أي سنة سافر والدي؟

- لا أذكر يا ابني. وأذكر أنّه مكث في أميركا ستّ سنوات بالتمام. سافر في تموز وعاد في تموز.

Twitter: @ketab_n

وانقلبت إلى والدي أسأله:

- في أيّ سنة سافرت يا والدي إلى أميركا؟

- نسيت يا ابني.

- وفي أيّ سنة عدت منها؟

- لا أذكر. وأذكر أنّني عدت بعد وفاة شقيقتي مرتا في سان فرانسيسكو. وأنّني وصلت لبنان في تموز وهجرته في تموز. وأن غيبتي عن البيت والبلاد طالت ستّ سنوات بالتمام.

- ألا تذكر تاريخ مولدي - الشهر - السنة؟

- أذكر أنّك ولدت في موسم «الذبيح»، وأنّه كان لك من العمر عشرة شهور عندما سافرت. وأنّنا عمّدناك يوم عيد مار مخايل. وأسميناك باسم جدّك واسم صاحب العيد.

يا لها من حلقة مفرغة! عدت إلى الكاهن لأخبره بما كان بيني وبين أبي وأمّي. فتبسّم وقال:

- ولماذا هذه «الكركبة» كلّها؟ كم يقول أبوك وأمك وجيرانك إن لك من العمر؟

- يقولون إنّني بين الثانية عشرة والثالثة عشرة.

- إذن اطرح ١٢ من ١٩٠٢ وضع تشرين الأوّل أو تشرين الثاني - وهما شهرا «الذبيح» - والتاريخ الذي تريد منهما على

Twitter: @ketab_n

أن يكون قبل عيد مار مخايل بأيّام. وإليك القلم والدواة وورقة. فاكتب الشهادة التي تريد، وأنا أختمها بخاتمي وأوقعها بتوقيعي.

وكان أن كتبت شهادة ولادتي بيدي. إلاّ أنّني لا أذكر التآريخ التي اعتمدتها فيها. ولم يكن يدور في خلدي آنذاك أن تاريخ ولادتي، بما فيه اليوم والشهر والسنة، سيُطلب مني بعد سنين في مناسبات كثيرة. وأنّني في كلّ مناسبة سأضطرّ أن أعطي معلومات لست واثقاً من صحتها؛ وقد يناقض لاحقها سابقها. فيضطرب وجداني وأخشى أن أزجّ بنفسي في مأزق من حيث لا أقصد، ومن حيث أبغي الصدق لو كنت أعرف ما هو.

ويبقى اللغز لغزاً. ويبقى يعذّبني حتى بعد عودتي من الولايات المتحدة عام ١٩٣٢ . ويشاء القدر بعد سنين من عودتي أن أقع في البيت على كتاب مهمل أغراني شكله القديم وشكل الحرف العربي الذي فيه. فهو لا يشبه الحرف المألوف عندنا. فتحته فإذا هو كتاب «تاريخ كنايسي شريف مختصر».

وإذا بي أقرأ على الورقة التي تلي الغلاف هذه التقدمة:

«برسم ديب وهيكل ومخايل يوسف مخايل نعيمه. انشا اللّه يقروه في السرور والصحة والعافية ويكونوا مرتشدين إلى الإيمان كما قال الربّ يسوع المسيح آمن بالرب تخلص تعالوا إليّ

Twitter: @ketab_n

أيها الأطفال لأن لكم ملكوت السموات. قد أعطي لهم في دير الروم الأرثوذكس المسكوبية. والربّ الإله يديمكم. تورخ ٢٢ (الشهر غير مفهوم) سنة ٩٣ في سان فرنسيسكو أماركا الشمالية».

وإذا بي أقرأ في مكان آخر من الكتاب ما يلي:

«قد انتقلة شقيقتنا مرتا إلى رحمة اللّه في حظيران ٢٢ غربي سنة ٩٦ وكان الدفن في ثلاثة وعشرون.

سنت	ريال	
٦٠	٦٢	كلفية طلعة المرحومة شقيقتنا مرتا
٠٠	١١	أجرة حكيم»

لقد انحلّ اللغز العظيم. فوالدي غادر أميركا في حزيران سنة ١٨٩٦ من بعد أن مكث فيها ستّ سنوات. فيكون قد سافر إليها عام ١٨٩٠ . وسافر في تموز يوم لم يكن لي من العمر غير عشرة شهور. إذن أنا أطللت على هذا العالم في شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) من العام ١٨٨٩، في موسم «الذبيح» وقبل عيد شفيعي ميخائيل، رئيس الأجناد السماويّة، الذي يقع في الثامن من تشرين الثاني. ولكم أثارني فيما بعد أن أعرف أن هذا الاسم المركّب بالعبريّة من «ميـ - كا - ئيل» يعني «مَن يشبه اللّه» أو

Twitter: @ketab_n

«مَن مثل اللّه»! بقي أن أهتدي إلى اليوم الذي ولدت فيه من شهر تشرين الأوّل. وقد اهتديت إليه في الحلم. فقد أفقت ذات صباح منذ سنوات وليس في ذهني من جميع الأحلام التي حلمتها تلك الليلة إلاّ صورة رقم وشهر بالانكليزية (17 October) . وألحّ عليّ شعور قويّ بأن ما رأيته هو تاريخ مولدي، وأن لا معنى له غير ذلك. وليقل القارئ ما شاء.

* * *

تذكرة النفوس! إنها في يدي. وهي تشهد لي بأنّني ولدت في بسكنتا من أبوين أرثوذكسيّين، وبأنّني حنطي اللون، عسلي العينين، مستقيم الأنف، وبأن لا علامات فارقة في جسمي، وبأن طولي كذا وكذا، وبأنني لبناني ومن رعايا الدولة العثمانيّة...

إذن لقد بتّ أحمل سمة أو «دمغة» كما يحمل الكثير من السائمة. وبدون هذه السمة لا أستطيع أن أتجاوز حدود بلدي الصغير. فالأرض ليست أرضي إلاّ بمقدار. وأنا لا أستطيع التنقّل فيها إلاّ بمقدار. ولن أفلت أبداً من اسمي، ومن مسقط رأسي، ومن تاريخ ولادتي، ومن أبويّ، ومن رعويتي لدولة من الدول. إنّني بعد اليوم أحمل علامات كثيرة تميّزني من باقي الناس أينما ذهبت. وبدون هذه العلامات لا أستطيع العيش بين الناس. ليكن

Twitter: @ketab_n

كذلك. فالمهم أن نبلغ الناصرة.

ودّعت الأهل والشخروب في اوائل أيلول من العام ١٩٠٢ وهبطت بيروت برفقة خالي. وقد زوّدتني والدتي قبل الوداع ريالاً مجيديّاً[١] واحداً لأنفق منه في الطريق وفي ابتياع ما قد يستهويني من أغراض ومآكل لا تقدّمها لنا المدرسة. أما جواز السفر من بيروت إلى حيفا فقد دفع ثمنه ممثل الجمعية الروسية الفلسطينية في بيروت. إذ أن باسمها كانت تدار جميع المدارس الروسيّة عندنا. وألبستني أمّي قمبازاً جديداً وطربوشاً جديداً وحذاء جديداً. وحمّلتني حقيبة صغيرة وضعت فيها بعض الزاد. وسلّمتني لأخيها وللمستقبل المجهول. وكان بودّي لو لم آخذ ذلك «المجيدي». إذ كنت أشعر أنّ أهلي في حاجة إليه أكثر مني.

ها نحن في بيروت. لكم سمعت عنها، ولكم حسدت الذين أسعدهم الحظّ بمعرفتها، وبرؤية السكة الحديد العجيبة التي تمتدّ بينها وبين الشام. أتلفّت يميناً ويساراً لعلّني أبصر تلك السكة. وكلّما وقع بصري على شبكة من الحديد في الشارع تغطي بالوعة أو نحو ذلك قلت لنفسي: «هذه هي السكّة الحديد. إلاّ انها ليست عجيبة كما أُخبرت عنها». ولكن... أهذا كل ما في بيروت؟ شوارع ضيقة فيها الحفر وفيها الأقذار، وفيها الناس

Twitter: @ketab_n

والجمال والحمير والبغال والكلاب والعربات تلهب ظهور جيادها أسواط فيها النساء المؤزرات، المحجبات، والرؤوس المعممة والمقلنسة والمطربشة. وفيها باعة المرطبات يحملون القِرَب أو القناني الزجاجية الكبيرة. وفي أيديهم صحون من النحاس لا ينفكّون يقرعون بعضها ببعض وينادون: «بورد يا عطشان!» وفيها المقاهي تتصاعد منها قرقرة النارجيلات وضجة اللاعبين بالنرد «شيش - بيش. ايكي - بير»، ورائحة القهوة وشتائم الذين خانهم الزهر. وفيها الحرّ والعرق يتصبّب من كلّ أنحاء الجسد وبغير انقطاع. أهذا كلّ ما في بيروت؟ أين أنت يا شخروب؟ ؟

وأعود بفكري إلى الرؤوس المعممة والأجساد المؤزرة والوجوه المحجبة فأقول في نفسي: هؤلاء بالتأكيد هم المسلمون. أما كنّا نسمع ونحن صغار عن كراهية المسلمين للمسيحيين، وعن أنهم لا يستطيبون شيئاً مثلما يستطيبون دم المسيحي؟ وها هم لا يتعرّضون لنا بسوء، ونحن مسيحيون. كذلك كنا نسمع عن اليهود أنهم في كلّ فصح يتحتّم عليهم أن يذبحوا طفلاً مسيحيّاً ليبرأوا بدمه من خطاياهم. فأين اليهود في بيروت؟ وهل هنالك يهود في الناصرة ومسلمون؟ حقّاً إنّني لفي دنيا غريبة. فأين أنت يا بسكنتا؟ أين أنت يا شخروب؟ !

Twitter: @ketab_n

عند عصر اليوم التالي سلّمني خالي إلى سمسار اسمه محمد القبرصلي. وكان من «القبضايات» المعدودين. أما هو فانطلق يفتّش عن نادٍ للقمار يتلف فيه ليلته ويبدّد ثروته. فقد كان مولعاً بالقمار وبقي كذلك حتى آخر حياته. وقبيل المغيب أنزلني القبرصلي إلى الميناء حيث سلّمني لنوتيّ من بعد أن أوصاه بي خيراً: «لا تأخذ منه أكثر من بشلكين». وإذن فلن يبقى لي من «المجيدي» الذي في جيبي غير خمسة بشالك. لا بأس. المهم أن أبلغ الناصرة.

ها أنا بين أيدي البحر - ولأوّل مرّة في حياتي. وها هو البحر تتلاعب امواجه بالقارب الصغير الذي أنا فيه وبرفقتي نفر من الناس بين رجال ونساء وأطفال لا تربطني بهم أيّ صلة ولا تستأنس عيني بأيّ وجه من وجوههم. ويتراءى لي كلّما ارتفعت بنا موجة وانخفضت أخرى أن القارب يوشك أن ينقلب وأنّني ومن فيه سنمسي طعاماً لأسماك البحر. ولكن ضاربي المجاذيف لا يبدو على وجوههم أقلّ خوف. فما هي المرّة الأولى ولا الأخيرة يغالبون فيها البحر. فلا مجال للخوف. وإني لأعجب لهذا البحر الذي لا أبصر له نهاية، والذي لا تهدأ له حركة، كيف يجسر

(١) الريال المجيدي كان يساوي دولاراً بالتقريب.

Twitter: @ketab_n

الإنسان أن يأمن جانبه، وأن يمتطي صهوته بقارب أو بباخرة.

ها هي الباخرة. واسمها **Jolie**. إنها زورق كبير مزوّد بمحرّك بخاري. والخطّ الذي تسير عليه هو: بيروت - الدامور - صيدا - صور - عكا - حيفا - يافا وبالعكس. وهي تسير أبداً بمحاذاة الشاطئ. فتقطع المسافة بين بيروت وحيفا في ٣٦ إلى ٤٠ ساعة - فقط!.. وهي مسافة تقطعها السيارة اليوم في ثلاث ساعات.

إنّه لعالم غريب جدّاً هذا العالم الذي أجدني فيه على ظهر الباخرة «جولي». لقد رأيت القارب يتحرّك بالمجاذيف. أما باخرتنا «الحلوة» فلا مجاذيف فيها. فكيف تتحرّك؟ وكيف لا تغرق بمن عليها وما عليها؟ لقد سمعت عن البخار. أما كيف يغدو البخار قوّة تدفع السفن إلى الأمام فأمر ما كنت أعرف عنه شيئاً. وعجيبة هذه الأشكال البشريّة التي تملأ ظهر الباخرة. رجال ونساء. شيب وشبان وأطفال. أزياء ألفتها عيني وأزياء لم تألفها. حقائب وأكياس وسلال. هذه ترضع طفلها، وتلك ترفعه بين يديها ليفرغ ما في مثانته أو أمعائه في البحر. ذلك يفتح كيسه ليتناول منه رغيف خبز ويروح يقضمه. وهذاك ينتشل من سلّته عنقود عنب ويمضي يلتهمه. هذا يسبّح بسبحة في يده. وآخر يركع على الأرض ويأخذ يرفع يديه تارة إلى فوق وطوراً يردهما إلى ركبتيه،

Twitter: @ketab_n

ثم ينحني برأسه إلى الأرض ويتمتم ما لست أسمع أو أعي. وهذه اللهجات العربيّة المتنوّعة التي تطرق مسامعي. إنها تزعجني. ما هكذا يتكلّمون العربيّة أيها الناس. اذهبوا إلى بسكنتا وتعلّموا!

وتتحرّك الباخرة. فتحين مني التفاتة إلى الشرق. وإذا بعيني تقع على جبهة صنّين وقد ألقت الشمس عليها وشاحاً ساعة غيابها ليس يشبهه أيّ وشاح - إنّه لمن الطرائف - بل من العجائب - التي لا تستطيع الإتيان بمثلها إلاّ يد الطبيعة الخلاّقة. وخير ما يوصف به أنّه لا يوصف. ويهتف هاتف في داخلي: «واحسرتاه عليك يا ميخائيل!.. أين كنت وأين أنت؟ كنت هناك - هناك... حيث ذلك الوشاح - وشاح النور الذي لا يوصف؟ وها أنت هاهنا - على ظهر خشبات عائمات في بحر شاسع، واسع، لا متناه. وحواليك أقوام يؤذيك لغطهم، ويخدش أذنيك هرجهم ومرجهم، ويصيبك رذاذ من بولهم وقيئهم وبصاقهم. وليس لك أين تجلس القرفصاء، ولا أين تضع رأسك. إنّك غريب يا ميخائيل. غريب... غريب...»

ولأوّل مرّة أفهم معنى الغربة وأحسّها إحساساً ينفذ إلى الصميم. فينكمش قلبي ويوشك هو الآخر أن يغدو غريباً عني. فتقفز الدمعة إلى عيني وتكاد تطفر منها لولا حيائي من الناس

Twitter: @ketab_n

وخشيتي أن أبدو في عيونهم ولداً ضعيفاً من بعد أن كنت أراني رجلاً يقتحم وحده المجهول ولا يبالي.

يفوتني الآن الكثير من ذكريات تلك الرحلة ما بين بيروت وحيفا، ومن أحاسيسها وصورها وانطباعاتها. ولكنّ أمراً واحداً لا أنساه - ولن أنساه - ما حييت. وها أنا أرويه عبرة وذكرى. وبودّي لو يكون الإنسان الذي أرويه عنه حيّاً حتى اليوم، ولو أنّه يقرأ ما أروي.

بعد ليلتين ونهار من السفر أصبحنا في ميناء قيل لي إنّه حيفا حيث يترتّب عليّ النزول لأسافر من هناك إلى الناصرة. أما كيف أنزل، وأين أتجه من بعد أن أنزل، وكيف أهتدي إلى مَن ينقلني إلى الناصرة، وكم تبعد الناصرة عن حيفا، وما هي وسائل النقل بينهما - فجميع هذه كانت أسئلة مبهمة في خاطري، وكنت أتهرّب من الجواب عليها. وكيف أجيب وأنا كالقطّ في الكيس، على حدّ تعبير العامّة؟

حملت حقيبتي الصغيرة في يدي ووقفت بالقرب من سلّم الباخرة مع الواقفين. واعتراني الخوف لدى منظر القوارب المتسابقة من جهة المدينة إلى حيث رست باخرتنا. إنّ البحارة الذين في تلك القوارب يبدون لي كالكواسر والضواري تتسابق إلى جيفة.

Twitter: @ketab_n

فصراخهم يصمّ الآذان: «يا عبد! يا محمود! يا عليّ!» وشتائمهم وأزياؤهم تبعث الرعب في النفوس. ها هم يتسلّقون السلالم وكأنّهم العفاريت. وأنا لا أدري ضحيّة أيٍّ منهم أكون.

في هذه اللحظة الحاسمة بالذات أحسست يداً تمسك بيدي وسمعت صوتاً يخاطبني: «هل أنت وحدك يا ابني؟ أليس معك رفيق أو أحد من أهلك؟»

التفتُّ وإذا الذي يخاطبني رجل لطيف الوجه، ربع القامة، نحيلها، متوسط العمر، يلبس قمبازاً ويعتمر طربوشاً. فأجبته:

«وحدي».

«وهل تعرف أحداً في حيفا؟»

«لا»

«وإلى أين تقصد؟»

«إلى المدرسة المسكوبيّة في الناصرة».

فشدّ على يدي وهمس في أذني همساً: «اتبعني يا ابني. إيّاك أن تبتعد عنّي. بل الأفضل أن تبقى متمسكاً بي».

وللحال فارقني الشعور بالغربة، وتغلغلت الطمأنينة في دمي إذ تغلغل صوت الرجل في أذني. وما هي إلاّ دقيقة حتى أقبل بحّار فسلّم على الرجل باحتشام وحمل حقيبته وحقيبتي إلى

Twitter: @ketab_n

القارب. وعندما بلغنا البرّ نقده رفيقي الأجر عني وعنه. ولمّا حاولت أن أدفع له نصيبي ربّت كتفي مبتسماً وقال: «ما بتحرز يا ابني». ومشيت وراءه في زواريب وسراديب وشوارع ضيّقة متعرّجة إلى أن بلغنا بيته. ومن بعد أن سلّم على زوجته وأولاده أمر بأن يؤتَى لي بالماء والصابون لأغسل وجهي ويديّ، ثم أن يؤتى لنا بطعام الفطور. لقد تغلّب لطف الرجل على ما في طبيعتي من تحفظ وخجل. فأكلت وشربت حتى الشبع.

من بعد استراحة قصيرة نادى الرجل خادمه وأمره أن يذهب إلى الخان الذي فيه تتوقّف العربات القادمة من الناصرة ومنه تنطلق إليها. وألحّ عليه أن يعود في الحال من بعد أن يعرف إذا كان في ذلك النهار عربة تسافر إلى الناصرة ومتى. وعاد الخادم ليقول إن العربة تترك بعد نصف ساعة، ولا يزال فيها مكان لراكب واحد.

«إنّه لتوفيق عظيم. سِر يا ابني على بركات اللّه» - قال مضيفي ذلك وأمر خادمه أن يذهب بي إلى الخان. فما بقيت أدري كيف أودعه، وبأيّ الكلمات والحركات أشكر له لطفه وجميله. وقد فاتني، في غمرة امتناني وسروري بتيسير ما تعقّد من أموري، أن أسأل الرجل عن اسمه، وعن عمله، وعن دينه.

Twitter: @ketab_n

ولعلّه كان من الخير ألاّ أسأل. وإلاّ لما كان لي أن أشهد أمام نفسي وأمام الملإ أنّ معين الخير لم ينضب - ولن ينضب - في الإنسان من أيّما لون، أو لغة، أو دين كان، وحيثما كان نصيبه من رقعة الأرض. والذي أرجوه هو أن يعرف ذلك الإنسان أينما كان - في هذا العالم أو في «هذاك» - أن الولد الغريب الذي عطف عليه منذ ثمانٍ وخمسين سنة على ظهر الباخرة «جولي»، في ميناء حيفا، لم ينسَ عطفه قطّ. بل انّه - بعد سنين - قد اتخذ منه ومن أشباهه مفاتيح لما استعصى عليه من أسرار الحياة، والعلائق البشريّة بنوع أخصّ.

وفي الواقع، أراني كلّما تأمّلت النواتئ في حياتي، تملّكني الشعور بأنها كانت موقّعة أحكم التوقيع في الزمان والمكان لتأتي بالنتيجة التي هي «أنا» كما أعرفها الآن. وهذا الشعور يبدو من القوّة بحيث لا يبقى أيّ فارق بينه وبين اليقين. بل إنّه اليقين الذي لا يفوقه يقين. فالرجل الذي لمّني يوم وقعت عن سطح المدرسة. والمعلّم الذي اختارني للدرس في الناصرة. والناس الذين سعوا بفتح المدرسة الروسية في بسكنتا. وهذا الرجل من حيفا، وغيرهم ممّن سيأتي ذكرهم - مَن الذي سخّرهم لخدمتي؟ ومَن الذي يسخّرني لخدمة سواي؟ أما من يدٍ خفيّة تفعل ذلك عن غير علمٍ

Twitter: @ketab_n

مني ومنهم؟ ألا نصيب لي ولهم في ما تفعله تلك اليد؟ وما هو ذلك النصيب؟ ومن أين هو؟

* * *

«المسكوبية!» أعلن الحوذيّ ذلك عندما وقفت عربته، بعد ثماني ساعات من السير، في زقاق ضيق أمام بناية من ثلاثة أدوار، و «المسكوبية» هو الاسم الذي كان يطلقه أهل الناصرة والجوار على دار المعلمين الروسية. ويفتح الحاجب الباب الكبير. وتستقبل المدرسة طالباً غريباً جاءها من سفح صنين البعيد يطلب النور - يطلب الهداية - يطلب المعرفة...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الناصرة

١٩٠٢ - ١٩٠٦

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

ليته كان لي، وأنا أكتب الآن عن ذلك الصبيّ القادم من سفح صنّين، أن أنتزع من حافظة السنين صورته ساعة انفتحت له ثمّ انغلقت خلفه لأوّل مرّة بوّابة «المسكوبية» في الناصرة. ليته كان لي أن أراه يدرج في فناء تلك المدرسة، وفي يده حقيبته الصغيرة، البالية، ثمّ أن أصوّر جميع الانفعالات والأحاسيس والهواجس والأفكار التي كانت تزدحم على رقعة وجهه السمراء، وفي مقلتيه الحالمتين.

لقد كان يمشي بخطوات ثابتة محاولاً أن يخفي ما به من وحشة ودهشة عن العيون الكثيرة التي أخذت تحدجه من كلّ صوب. ولكنه ما كان يدري إلى أين يتجه لو لم يتداركه الحاجب الذي فتح له الباب، إذ اقترب منه فأخذ حقيبته ووضعها جانباً. ثمّ اقتاده إلى مكتب الرئيس في الدور الثاني من البناية.

«أنت ميخائيل يوسف من بسكنتا؟»

«نعم»

Twitter: @ketab_n

«وهل لديك دراهم؟»

«نعم»

«هاتها لأحفظها لك في خزانة المدرسة. ولك أن تسحب منها قدر ما تشاء ساعة تشاء».

ناولته ما تبقى في جيبي من الريال المجيدي وخشيت أن يستخفّ بي أو أن يشفق علي نظراً لضآلة المبلغ. فقد كنت أمقت الشفقة من أيّما جانب أتتني. وأمقت أن يقيسني الناس بما أملك، أو بما يملك والدي، وبحسبه ونسبه والأبواب التي يحصل منها على رزقه ورزق عياله. ولكنّ الرئيس دوّن الأمانة في دفتره بمثل البرودة التي دوّن بها أمانات تفوقها قيمة بكثير. لقد كان يعرف أن طلاب مدرسته يأتون من شتى الطبقات في شتّى البقاع من فلسطين وسوريا ولبنان، بعضهم من المدن وبعضهم من القرى. هذا ابن كاهن أو تاجر، وذاك ابن حائك أو خياط، وذلك ابن مزارع أو مرابع. فلا عجب أن تكون «خرجية» الواحد بضع ليرات من الذهب، وخرجية الآخر بضعة «بشالك».

لقد فاتني وأنا في حضرة الرئيس أن أصحّح اسمي. فقد دعاني باسمي واسم والدي فقط، ولم يذكر اسم عائلتي - نعيمه. ولكن أيّ بأس إذا ضاع اسم عائلتي؟ المهم أن لا أضيع أنا.

Twitter: @ketab_n

ولن أضيع ما دمت آبَى أن أكون نكرة. إنّني سأبرّر وجودي في هذه المدرسة، وسأبيّض وجه المعلّم الذي اختارني وحدي من أبناء بسكنتا للدرس فيها. وكان هو الآخر من خريجيها.

لم ينفتح قلبي للرئيس ولا هو انغلق دونه. فقد كان في صلعته الكبيرة، وقد غضّنتها السنون، وفي لحيته الكثيفة، وقد وخطها الشيب، ما يوحي المهابة والاحترام. إلاّ أن عينيه لم يكن فيهما ذلك البريق من العطف والحنان الذي يبعث في نفس الجالس إليه شيئاً من الإيناس والاطمئنان. لقد كان ربع القامة، معتدلها - لا هو بالسمين ولا بالهزيل. إذا مشى فبخطوات وئيدة، موزونة، ومن غير أن يلتفت يمنة أو يسرة. وإذا تكلّم فبصوت خافت ليس فيه شيء من الموسيقى، وبعبارات لا تتقطّع ولا تتعثّر ولكنّها خلو من حلاوة السبك. إلاّ إذا كان من داعٍ للتوبيخ والتقريع. فقد كان لسانه إذ ذاك آلم من وقع السوط، وعباراته غاية في البلاغة. ولم تكن تعوزه المناسبات للتوبيخ والتقريع.

ذات يوم من أيّام الصوم الكبير الذي يسبق عيد الفصح خطر لي ولثلاثة من رفاقي أن نرسل الخادم إلى السوق ليبتاع لنا علبتين من السردين. لقد سئمنا المجدرة والزيتون وحساء العدس والصعتر مع

Twitter: @ketab_n

الزيت. وباتت معدنا تشتهي طعاماً فيه شيء من الدسم وإن لم يكن غير سردين. وكان محظوراً علينا أن نغادر المدرسة إلاّ في نزهة جماعية، وبرفقة أحد المعلمين، وإلاّ للذهاب إلى الكنيسة أيّام الآحاد والأعياد. لقد كانت حياتنا أشبه بحياة الرهبان في الدير. وعندما جاءنا الخادم بمشتهانا وببعض الخبز من المطبخ انزوينا في إحدى الغرف وأغلقنا الباب وفتحنا السردين ورحنا نلتهمه وكأنّه أطيب ما في الكون من طعام، وكأنّنا في وليمة أعدّها لنا الساروفيم والشاروبيم. ونحن كذلك، وإذا بالباب يُفتح بغتة وبالرئيس يدنو منّا وقد امتقع لونه وارتجفت لحيته. فتسكّرت أشداقنا، وانسدّت حلاقيمنا، وتحجّرت اللقمة في أفواهنا. وللحال انقضّت علينا الصاعقة، لا تشفق ولا ترحم. وما كان من الرئيس إلاّ أن جمع التلاميذ كلّهم عند المساء في البهو الكبير ووقف فيهم خطيباً أو مقرّعاً: إنهم يكفرون بالنعمة التي هم فيها. إنهم لا يكتفون بما تقدمه لهم المدرسة وهو فوق ما يستحقون بكثير، وفوق ما تعوّدوه في بيوتهم. إنهم يستخفّون بالدين وما رتّبه الدين من قوانين لتنقيتهم من الخطايا ولخلاص نفوسهم. إنهم ينسون فضل الذين فتحوا لهم هذه المدرسة من تبرعات آلاف المؤمنين في روسيا. إنهم خنازير وكفى...

وكان من حسن حظّي وحظّ رفاقي أنه لم يذكر أسماءنا.

Twitter: @ketab_n

اسكندر جبرائيل كزما الدمشقي المنبت والمولد، أو «المعلم اسكندر» كما كنّا نعرفه ويعرفه زملاؤه من المعلّمين - ذلك هو الرجل الذي أنيطت به إدارة دار المعلّمين الروسية في الناصرة منذ تأسيسها في أواخر القرن الماضي وحتى دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وإغلاقها جميع المؤسسات الروسية في الشرق. ولقد أحسن الإدارة فازدهرت المدرسة بقيادته وخرّجت أفواجاً من المعلّمين المدرّبين أحسن التدريب. حتى ان الانكليز، بعد احتلالهم لفلسطين، لم يجدوا مناصاً من الاستعانة بأولئك المعلمين وخبرتهم في إدارة معارف فلسطين ومدارسها. واسكندر كزما، وإن لم يعرف وجهه الابتسامة إلاّ نادراً، كان في الواقع يطوي ضلوعه على قلب كبير، أبويّ. لقد كان من الرعيل الأول بين أبناء العرب الذين قُدّر لهم أن يدرسوا في بلاد القياصرة. وكان، علاوة على مهام الرئاسة، يقوم بتدريس الدّينيّات في صفوف المدرسة الثلاثة.

عندما انتهت مقابلتي القصيرة مع الرئيس أمر الخادم بأن يمضي بي إلى وكيل الخرج ثمّ إلى غرف النوم في الدور الثالث ليدلّني على سريري. ووكيل الخرج أحالني على امرأة ودّعت من عمرها أكثر من نصف قرن. وهذه اختارت لي من بين كومة

Twitter: @ketab_n

كبيرة من الثياب أنسبها لقامتي وجسمي. وهي كناية عن طربوش وقمباز وسترة رمادية من الجوخ بالاضافة إلى الحذاء والثياب التحتانيّة. فلا الطربوش ولا القمباز كان جديداً ولا السترة. لقد قضت حكمة الرئيس أن يُعامل جميع التلاميذ كما لو كانوا أفراد أسرة واحدة. فيلبس الفوج الجديد منهم مخلّفات الفوج الذي سبقه. ولا يجري تجديد أي قطعة إلاّ من بعد أن تخفق كلّ حيلة في رقعها أو رتقها. وحسب المعلّم اسكندر حكمة أنّه أصرّ على أن يلبس الطلاب الزيّ العربي المألوف في بلادهم بدلاً من الزيّ الفرنجي الذي ارتأته في البداية الجمعية الأمبراطورية عند تأسيسها المدرسة. وكانت حجته أن الأكثرية الساحقة من الطلاب لم تتعوّد الزيّ الفرنجي ولا هي تملك المال للمضيّ في لبسه. وكان على حقّ.

Twitter: @ketab_n

٢

ذلك الضباب الذي اكتنفني عندما وصلت الناصرة أخذ يتبدّد ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم. ففي خلال أسبوع بتّ أعرف عن المدرسة أشياء كثيرة كنت أجهلها. عرفت أن منهاجها يمتدّ لستّ سنوات مقسمة على ثلاثة صفوف - لكل صف سنتان. وعرفت أن عدد الطلاب فيها يكاد لا يتجاوز الأربعين - نصفهم في النصفّ الأوّل الذي هو صفّي. وعرفت أنّهم خليط من مدن فلسطين وسوريا ولبنان وقراها - من القدس وبيت جالا والناصرة والرامة وكفريا سيف وعكا وصور ودمشق وحمص وطرابلس والكوره وراشيا والكفير وغيرها وغيرها. ولم يطل بي المقام حتى حفظت أسماء جميع المعلمين الذين كان بعضهم من الروس وبعضهم من العرب، وأسماء جميع الطلاب. وعرفت أشياء عن كل منهم: من أين جاء، وما هي سمعته في المدرسة من حيث السلوك والتحصيل، وأيّ المعلّمين أحبّهم إلى التلاميذ، وأيّهم أبغضهم.

Twitter: @ketab_n

لقد كنت اعرف أن ذلك سيحصل بالتدريج وأن شعوري بالغربة لن يطول مداه. والذي كنت أخشاه هو أن أجدني متأخراً عن رفاقي في فرع أو أكثر من الفروع.

وقد صحّ حدسي ووقعت في ما كنت أخشى الوقوع فيه عندما دخلت لأوّل مرّة فصل اللغة الروسية، فوجدت أن المعلّم رجل روسي لا يفقه كلمة واحدة من العربيّة، وسمعت بعض رفاقي يخاطبونه بالروسيّة فيفهم ما يقولون ويفهمون ما يقول. في حين أن بضاعتي من الروسيّة ما كانت تتعدى المئة من المفردات في أبعد تقدير، وأن لساني كان يتعثر كثيراً حتى في قراءتها. لقد كنت «كالأطرش في الزفّة». فيا ويلي، ويا لتعس حظّي! إن تكن تلك حالي مع اللغة الروسيّة فماذا عساها تكون مع الحساب والجغرافيا وتاريخ روسيا وغيرها من الموادّ التي تُدرّس بالروسيّة؟ حقّاً إنها لكارثة...

خرجت من الصفّ شاكراً ربّي لأن المعلّم لم يتوجّه إليّ ولا بسؤال. ولكنني شعرت بغمامة كثيفة، رهيبة، سوداء تلفّني وتضغط عليّ حتى لتكاد تزهق الروح منّي. ولم يجدني في التخلّص منها أن أخاطب نفسي مشجّعاً:

«قَوِّ قلبك يا ميخائيل. لا تجبن. كنتَ الأوّل في بسكنتا،

Twitter: @ketab_n

ولن تكون الأخير في الناصرة. أنت في بداية الشوط. ولا بأس إذا تخطّاك غيرك. المهمّ أن تثبت حتى نهاية الشوط. وستثبت. ولن تكون إلاّ في الطليعة. ذلك ما يتوخّاه طموحك. وذلك ما يتوقّعه منك والداك. وذلك ما ليس يرضى لك بأقلّ منه الشخروب وصنّين.»

لا. لم يجدني شيء من ذلك في تبديد تلك الغمامة الرهيبة. وأجداني ابن المقفع وابن مالك وابن عقيل - رحمات اللّه على الثلاثة. فقد اتفق أن تلا درس اللغة الروسية درس في اللغة العربيّة. وكان المدرس رجلاً في العقد الرابع من عمره، مديد القامة، ممتلئ الجسم، طويل الشاربين، مشرق البشرة، رصين الحركات، واسمه جبران فوتيه، من بيروت. وكنّا قد سمعنا أنّه حجّة في اللغة، وأن له مؤلّفاً في بحور الخليل أسماه «البسط الشافي في عِلمَي العروض والقوافي» وهو الكتاب الذي اعتمدناه بعد سنتين في فكّ طلاسم العروض وحسبنا من بعده أنّنا بتنا نملك المفتاح إلى الشعر وقلبه الفسيح.

ما إن استقرّ معلمنا على دكّته العالية حتى دفع إلينا بنسخة غير مشكولة من «كليلة ودمنة» وراح يطلب إلى كلّ منّا أن يقرأ فيها مقاطع هنا أو هناك وأن يقرأها مع الحركات. وكان يبغي من

Twitter: @ketab_n

ذلك أن يعرف أين نحن من صرف لغة الضاد ونحوها. وفي الحال سرّي عنّي إذ تبينّت الهفوات الكثيرة التي كان يرتكبها العدد الأكبر من رفاقي. وعندما جاء دوري قرأت ما وقع من نصيبي بصوت مطمئنّ وبدون خطإٍ. فكانت تلك القراءة بداية علاقة طيبة بيني وبين صاحب «البسط الشافي». وكانت النسمة المباركة التي مزّقت ثمّ بدّدت الغيمة الرهيبة من عينيّ وقلبي - ولو إلى حين.

وأنا إذ أشهد بفضل ابن المقفّع في تبديد غمّتي أشهد بفضلٍ مثله لابن مالك وابن عقيل. ذلك أن منهاج العربيّة للسنوات الستّ كان يبتدئ بتدريس ألفِيّة ابن مالك، كما شرحها ابن عقيل، وينتهي بتاريخ الأدب العربي من وضع أحد المستشرقين الروس. والغريب أن تستهويني ألفِيّة ابن مالك على ما في استظهار متنها من إرهاق للذاكرة وما في تفهّم شرحها من مشقّة للفكر. ولعلّ ذلك عائد إلى محبّتي الفطريّة للّغات إجمالاً، وللعربيّة بالأخصّ، وإلى رغبتي الشديدة في فكّ طلاسمها الصرفيّة والنحويّة. وها أنا، وقد مرّ على أوّل عهدي بتلك الألفية أكثر من نصف قرن، أردّد بلذّة استهلال صاحبها:

«قال محمد هو ابن مالك أحمد ربّي الله خير مالك

Twitter: @ketab_n

مصلّياً على الرسول المصطفى   وآلـه المستكملين الشـرفـا
وأستعيـن اللّه في ألـفـيّـه   قـواعـد النحـو بـهـا محـويّـه»

للّه درّك يا ابن مالك! ومَنذا لا يصلّي معك ويسلّم، ولا يستعين اللّه في عمل لم يجئ بمثله الأوائل أو الأواخر؟ إنّه لعمل لا يُقدم عليه إلاّ مجنون أو عبقري. وأنت عبقري يا ابن مالك. لذلك استعنت اللّه فأعانك على استيعاب جميع قواعد النحو في ألف بيت - لا تزيد بيتاً ولا تنقص بيتاً. فكانت المعجزة. وجاء هذا الصبيّ من سفح صنّين يشهد بها وبفضلها عليه وعلى الأجيال من قبله على مدى مئات السنين. ويشقّ عليه يا ابن مالك أن يخالط الأجيال الجديدة فلا يرى فيها لمعجزتك أيّ آثر. إنها لأجيال تكفر بالمعجزات، وتكفر حتى بالكثير من قواعد النحو التي أفنيت زهرة عمرك في حصرها ضمن أرجوزة من ألف بيت. إنها لأجيال لا قبل لها بالطلاسم والمعقّدات. إنها تبغي السرعة والتبسيط في كلّ شيء. إي. لقد تغيرت الأزمنة. وتغيرت الأشياء. وتغير حتى نبض الحياة يا ابن مالك. فلم يبقَ لمثلك في هذه الدنيا مقام - إلاّ في قلب هذا القلم الذي يُسلّم عليك ساعة وُلدت وساعة متّ وساعة قلت:

«كلامنا لفظٌ مفيد كاستقم   إسمٌ وفعل ثـمّ حـرف الكـلـم»!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٣

«هنا - في هذه المدينة الصغيرة، الوادعة، المعلّقة بسفح أكمة عالية من آكام الجليل. هنا - في الناصرة - عاش يوسف النجّار وخطيبته العذراء مريم. وهنا، منذ ألف وتسعمئة سنة، درج أوّل ما درج ذلك الطفل العجيب الذي تسبّح باسمه الملايين من الناس شرقاً وغرباً - وأنت واحد منهم يا ميخائيل.

«إنّك ههنا - وفي سائر أرجاء فلسطين - لفي دنيا من السحر والبركة. فحيثما مشيت، وأنّى تطلّعت، نبتت لك من الماضي السحيق وجوه وأحداث بغير عدّ. وكلها قد تغلغل منك في الصميم. وأحبّها إليك وجه المعلّم وأحداث حياته. ما كان أقصرها - تلك الحياة! ولكن ما أعجز الزمان عن أن يطويها ويلفّها بالنسيان! إياك أن تنسى يا ميخائيل أنّك ههنا في حضرة المسيح!»

بمثل هذا الكلام كنت أخاطب نفسي كلّما خلوت بها. فالشعور الديني العميق الذي حملته معي من سفح صنّين أخذ

Twitter: @ketab_n

يزداد عمقاً في الناصرة. ولكن وجدتني، ونحن في نزهة قصيرة أو في رحلة طويلة، أنسلخ بغتة عن نفسي وعن رفاقي إذ أتخيّل المسيح وتلاميذه ماشين في الطريق الذي نمشي فيه، أو أتخيّله جالساً وحده، وفي حالة انخطاف روحي، تحت تلك الشجرة أو عند هاتيك الصخرة. وما كان أعذبها دقائق تلك التي ابتهلت فيها ذات يوم إلى المسيح لينجدني في حلّ قضيّة حسابيّة فأنجدني!..

بعد ظهر ذلك اليوم خرجنا في نزهة إلى البرية. وكان معلّم الحساب قد أعطانا في الصباح أربع عمليات حسابيّة لنحلّها لليوم التالي. وكنت قد حللت ثلاثاً منها واستعصت عليّ الرابعة. ولأنّني كنت من المجلّين في سائر دروسي فقد كان رفاقي يستعينون بي في أمور كثيرة، ولا تطاوعني كبريائي أن أستعين بأحد. لذلك خرجت إلى النزهة وتلك القضية الحسابية تجلدني جلداً فلا أستطيع التهرب منها. فما إن بلغنا البريّة وراح رفاقي يلعبون حتى تسللت من بينهم إلى صخرة بعيدة. وهناك جثوت حيث لا يراني أحد منهم ورحت أصلّي إلى يسوع بحرارة ما بعدها حرارة ليسعفني في حلّ القضيّة التي استعصت عليّ. ونهضت من صلاتي فإذا الغمة التي كانت على صدري قد

Twitter: @ketab_n

انقشعت. وحالما عدنا إلى المدرسة عدت إلى القضية التي أزعجتني فإذا بعقدتها تنحلّ في مثل طرفة العين!

إي. لقد كنت مؤمناً كما أرادتني الكنيسة والمدرسة أن أؤمن. فما كان يخامرني أقلّ الشكّ في أن اللّه خلق العالم من لا شيء، وخلقه في ستة أيّام ثمّ استراح في اليوم السابع. وكان الإنسان آخر ما خلق. إذ جبل آدم من طين ونفخ فيه الحياة. وبعد حين أشفق عليه يعيش وحده ولا معين له فاستلّ من صدره ضلعاً وصنع من الضلع حواء. ووضع اللّه آدم وحوّاء في جنّة عدن وأباح لهما الأكل من كلّ أشجارها إلاّ شجرة الخير والشر فقد نهاهما عن الأكل منها قائلاً إنّهما ساعة يأكلان يموتان.

وكان ما كان من امر الحيّة وحوّاء. وكان أن انخدعت حوّاء بإغراء الحيّة فأكلت من الشجرة المحرّمة، وأطعمت زوجها فأكل. وهكذا كانت «الخطيئة الجدية» وكان الموت. ومرّت القرون، وتكاثر الناس على الأرض، وبقي الموت يحصدهم حصداً. فعاد اللّه ورثى لحالهم. فأرسل من السماء ابنه الوحيد، وجعله يولد من عذراء ليكون - حتى بجسده - منزّهاً عن الخطيئة الجدية، وليفتدي الناس بدمه. فمن آمن به فادياً نال بعد الموت الحياة الأبدية وملكوت السموات. ومن لم يؤمن كانت

Twitter: @ketab_n

النار نصيبه في الآخرة وحتى أبد الأبد.

هكذا آمنت بالمسيح هادياً وفادياً. فما إن وجدتني في الأرض التي فيها ولد وعاش وعلّم وتألّم ومات حتى راح يستهويني أن أزور كلّ مكان يتصل من قريب أو من بعيد بحياته كما يرويها الإنجيل. ولكن الكثير من تلك الأماكن بات مجهول المعالم فلا يدري أحد أين يقع بالتمام. وبعضها انطمست آثاره. والقليل منها لا تزال آثاره حتى اليوم. لذلك كثرت التقاليد والخرافات والأقاويل والأضاليل. ففي الناصرة عينها دير للاّتين يدّعون أنّه قائم حيث كان بيت يوسف ومريم، ويدلّونك في قبوٍ من أقبيته على جدار يكسوه الدخان زاعمين أنّه الدخان من الموقد الذي كانت تستعمله العذراء. وفي الناصرة كذلك عين ماء يدعونها «عين العذراء» ويقولون لك إنها العين التي جاءت مريم تستقي منها عندما ظهر لها الملاك ليبشرها بأنّها ستغدو أمّاً لمخلّص العالم. ويقول آخرون إنّما كانت تستقي من البئر التي تقوم فوقها اليوم كنيسة للأرثوذكس تدعى كنيسة البشارة.

وإلى الشرق من الناصرة قرية حقيرة تدعى «الرّينة». ويؤكّدون لك أنها «نايين» المذكورة في الإنجيل حيث أقام المسيح ابن الأرملة من الموت إذ كان محمولاً على نعش إلى المقبرة.

Twitter: @ketab_n

وأبعد منها قرية اسمها «كفركنّا». وهذه يزعمون أنّها «قانا الجليل» التي فيها صنع المسيح أولى عجائبه عندما حوّل الماء خمراً. ويدلّونك على الأجران الحجرية التي فيها تمّت العجيبة. إلاّ أنّني، وإن شككت في صحة الكثير من الأقاويل حول هذا المكان أو ذاك، ما شككت قطّ في صحة العجائب المنسوبة إلى المسيح.

من أمتع الرحلات التي قمت بها في حياتي رحلتان رتبتهما لنا المدرسة في السنة الثانية والثالثة من إقامتي فيها. إحداهما إلى «جبل الطور» وإلى بحيرة طبريا وضواحيها. والأخرى عبر الأردن إلى جبال عجلون ثمّ إلى خرائب «جرش» و «الحمة» ووادي اليرموك. والرحلتان كانتا في الربيع، في عطلة عيد الفصح.

يقوم «جبل الطور» في الجانب الشرقي من سهل جميل يدعى «مرج ابن عامر»، وعلى مسير ساعتين أو نحو ذلك من الناصرة. وهو إذا قيس بالجبال بدا تلاًّ كبيراً لا أكثر. لكنه ذو شكل مستدير تكاد تحسبه مصطنعاً. والخضرة التي تكسوه، ثمّ العزلة التي تكتنفه، ثمّ السكينة التي تلفّه تضفي عليه روعة ليست لأيٍّ من الجبال التي تفوقه قامة وضخامة. وهذه الروعة تسطو عليك بقوّة ولا قوة السحر إذا قُدّر لك - مثلما قدّر لي - أن

Twitter: @ketab_n

تسهر ليلة مع نجومه ونسماته، وأن تفتح قلبك - مثلما فتحت قلبي - للذكريات التي تحوم عليه.

في الإنجيل أن المسيح وثلاثة من تلاميذه صعدوا مرّة جبلاً عالياً. وفيما هم على الجبل هبطت على المسيح غمامة من نور، فتغيّر شكله، وبدا عن جانبيه النبيّان موسى وإيليّا، وذلك ما يدعونه التجلّي. وتصرّ التقاليد على أن ذلك الجبل لم يكن غير «جبل الطور» الذي أحدثك عنه. ولك الآن أن تتخيّل صبيّاً مؤمناً مثلي يمضي نهاراً ويبيت ليلة على قمة ذلك الجبل، وصورة المسيح المجلبب بالنور تنهض لعينيه وفي قلبه كيفما انقلب. لقد كنت بين رفاقي وكأنّني لست منهم ولا بينهم. ولقد انفردت عنهم أكثر من مرّة ومضيت وحدي أتوغّل في ذلك الجبل وكأن الوهدة السحيقة من الزمان التي تفصلني عن عهد المسيح قد انطمرت. فلا هو بالبعيد عنّي ولا أنا بالغريب عنه. إنّه لشعور لا ينقاد إلى الوصف والتحليل.

ذلك الشعور عينه لازمني طوال رحلتنا من الناصرة إلى طبريا، وإلى غور الأردن وحوران وجبال عجلون. فإلى جانب الطريق بين الناصرة وطبريا سلسلة من التلال التي لا يصحّ أن تدعى جبالاً إلاّ من باب المجاز أو التجنّي. من بين تلك التلال

Twitter: @ketab_n

واحدة قيل لنا إنها «جبل التطويبات». وفي الانجيل أن المسيح صعد مرّة وتلاميذه جبلاً وجلس هناك يعلمهم مفتتحاً عظته بقوله:

«طوبَى للمساكين بالروح لأنّ لهم ملكوت السموات».

وتلك العظة هي التي تعرف باسم «العظة على الجبل». وهي تملأ ثلاثة فصول من إنجيل متى. ولأنني كنت - ولا أزال - أعتقد تلك العظة من أنبل وأسمى ما نطق به لسان فقد تملّكتني رغبة عظيمة في أن أصعد «الجبل» الذي قيلت عليه. ولكنّ برنامج الرحلة لم يكن يتضمّن التوقّف هناك. فاكتفيت بأن أتابع السير مع السائرين، وأن أتخيّلني أسمع صوت المسيح إذ هو يرسم للسامعين وللأجيال الآتية الطريق الجديد للخلاص بقوله: «قيل للقدماء... أمّا أنا فأقول لكم...» أو أن أتخيّله في ذلك القفر، وقد ضجّت الجماهير المتألّبة حواليه جوعاً، يأخذ خمسة أرغفة وخمس سمكات لم يكن مع تلاميذه غيرها، فيكسر الخبز ويبارك السمك ويأمر بتوزيعها فيأكل منها خمسة آلاف نسمة حتى الشبع وتبقى فضلة.

وطبريا - بحر الجليل! إنها في الواقع لبحر صغير تحتضنه جبال وتلال لا نهاية. لما في ظلالها وأنوارها من فتنة للعين ومن

Twitter: @ketab_n

مدى للفكر والخيال. يصب فيها نهر الأردن من الشمال ليعود فيخرج من الجنوب وينساب إلى البحر الميت ليموت فيه. على ضفاف تلك البحيرة الحلوة المياه، المنخفضة عن سطح البحر نحواً من ثمانمائة قدم، وعلى وجهها الأزرق جرت أحداث كثيرة من حياة يسوع. هناك «اصطاد» تلاميذه من بين صيادي السمك ليجعلهم صيّادي الناس. وهناك مشى على الماء. وانتهر العاصفة فسكن الموج وانقطع نحب الريح. وهناك - في قرية مجدل - أخرج الشياطين من مريم المجدليّة التي، من بعدها، باتت أتبع له من ظلّه. وهناك كانت تقوم كفر ناحوم - المدينة التي أحبّها وصنع فيها الكثير من عجائبه، والتي هي اليوم أطلال وزرائب للبهائم ومأوى للرعاة.

بتنا ليلة في دير للروم على شاطئ البحيرة. ولو لم يغلبني التعب من مشقة المشي طوال النهار لما أغمض لي جفن. لقد كانت أمواج البحيرة تتفقّأ على مهل عند اسفل الدير. وكانت النجوم تتراقص على الأمواج. والنسيم الزاحف على وجه البحيرة يهمس ألف ذكرى وذكرى.. وكلها عذب ومؤنس لقلب ذلك الصبي القادم من سفح صنّين البعيد.

أما نهر الأردن الذي تعمّد فيه المسيح قبل أن يباشر كرازته،

Twitter: @ketab_n

والذي اجتزناه في رحلتنا إلى حوران وجبال عجلون، فقد كان منظره، أوّل ما أطللنا عليه، أدعى إلى خيبة الأمل منه إلى الدهشة والإعجاب. لقد بدا لنا ساقية ضيّقة تتلوّى بين الأعشاب والقصب .والدفلى. وكنت أحسبه نهراً واسع الصدر، عميق الغور، بعيد القرار. ولكنه ما لبث أن عوّض عن ضآلة حجمه برهبة عزلته في ذلك الوادي الذي لا أثر فيه لأيّ عمران، ثمّ بخصب الزرع والنباتات البرية عن جانبيه. فلقد أذهلني، عندما أقبلنا عليه، أن أرى على ضفته بعض الإبل فأحسبها باركة إذ لم أكن أبصر منها غير الرؤوس والأسنمة. ولكننا ما إن اقتربنا منها حتى وجدناها واقفة على قوائمها. لقد كانت ترعى وكانت الأعشاب تحجبها حتى السنام! حقّاً إنّها لأرض تدرّ لبناً وعسلاً هذه الأرض التي دعوها «أرض الميعاد». أو هي كانت كذلك في سالف الأزمان ولكنها، في ظلّ «الدولة العلية»، باتت مرتعاً للفقر وملجأ للجهل، وبات الخمول يعسكر في صدور أبنائها وبناتها. أما السحر الذي في سمائها فهو هو. وأمّا ذكريات الرسل والأنبياء الذين درجوا على ترابها، وتنشقوا هواءها، فما تزال عالقة حتى اليوم بذلك التراب وذلك الهواء.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٤

قد تكون خطاياي كرمل البحر عدّاً. ولكن السرقة ليست منها. إلاّ يوم أغراني الشيطان مرّة فحملني على الاستجابة لصراخ بطني ولكن بطريقة غير مشروعة، وغير لائقة بتلميذ كان مضرب المثل باجتهاده وطيب أحدوثته.

ما أظنّ أن أيّ مدرسة داخلية خلت يوماً من السرقات والسارقين، ومن العابثين بالأخلاق والقوانين. ومدرستنا في الناصرة لم تشذّ عن القاعدة. فقد كان بيننا البارعون في خداع المعلّمين، وفي الوصول إلى أشياء يحرّمها النظام أشدّ التحريم. فمن المحرّمات الاطلاع على العلامات أو النقاط اليوميّة التي كان يضعها كلّ معلّم على أثر المذاكرات في صفه. فهذه كان يحتفظ بها المعلمون في الغرفة الخاصة بهم ولا يعلنون معدّلاتها إلاّ في آخر الشهر. إلاّ أنّه كانت لنا زمرة من الذين حذقوا الحصول على تلك العلامات بطرق شيطانية وفي غفلة من المعلمين. وليس منّا من لم يكن يهتمّ بعلاماته. والعلامات عندنا كانت تتدرج على

Twitter: @ketab_n

النحو التالي من الممتاز فما دون : ٥، – ٥، ٤ $\frac{1}{2}$، + ٤، ٤، – ٤، ٣ $\frac{1}{2}$، + ٣، ٣، – ٣، ٢ $\frac{1}{2}$. والعلامة الأخيرة كانت الحدّ الأدنى للنجاح. وسرقة العلامات كانت من السرقات «البيض». إلاّ أن السرقة التي أنا بصددها كان ظاهرها أبيض وباطنها أسود.

كنت في السنة الثانية من دراستي في الناصرة. وكان الصوم الكبير الذي كنّا نحسبه شبه كارثة بسبب ما كانت تعانيه فيه معدنا من قحط وحرمان. وكان يوم خرج فيه رفاقي للنزهة بعد الظهر. فاعتذرت للمعلّم المرافق عن الذهاب معهم فعذرني: وكانت المرّة الأولى والأخيرة تخلفت فيها عن النزهة. وهكذا بقيت وحدي في المدرسة ولا رفيق ولا رقيب.

وجرّتني قدماي – أو هو الجفاف في معدتي الذي جرني – إلى أمام القبو المشبك مدخله بالحديد والمعلّقة في داخله أكياس كبيرة كانت تُفرَغ فيها كلّ يوم من أيام الصوم كميات من اللبن الرائب لتغدو بعد حين «لَبْنة» نأكلها مع الزيت بعد انقضاء الصيام.

وقفت أمام الشبكة الحديدية أتأمّلها وأتأمل الأكياس المعلّقة في الداخل. إنها لأكياس بيضاء، بيضاء. وإنها لسمينة، سمينة – حتى لتكاد تنشق. وإنّ ما فيها لشهي، شهيّ، ومجرّد التفكير فيه

Twitter: @ketab_n

يُسيل اللعاب. ولكن الحديد حديد. وإنّك لمجنون يا ميخائيل تفكّر في اقتحامه. أصحيح أنّك تفكّر في ذلك؟ أصحيح أنّك تُغامر بسمعتك في سبيل لعقة من اللبنة؟ ولم لا؟ ألم يبع عيسو باكوريته بأكلة من العدس؟ واللبنة أشرف من العدس وأشهى بما لا يقاس. وأيّ بأس إذا أتيح لك أن تُسكت صراخ معدتك من غير أن يدري بذلك أحد؟ وكيف تنفذ من الحديد، وكيف تنزل الكيس وتغرف منه اللبنة ثمّ تعلقه وتخرج من حيث دخلت؟ ولنفرض أن رئيس المدرسة - أو حتى خادم المدرسة - فاجأك وأنت داخل القبو. فماذا تقول وبماذا تستر زلّتك؟ إنّك لتؤثر إذ ذاك لو تنشق الأرض وتبتلعك. ولكنّ شيئاً من ذلك لن يكون فالمكان خلو من الناس. وأنت وحدك ههنا. فأسرع لأن الدقائق تسرع. وقد تسبقك ويفوت الفوت...

أقبلت وأحجمت. وأحجمت وأقبلت. وأخيراً دسست رأسي في منفرج بين قضيبين فنفذ. وما هي إلاّ دقيقة أو بعضها حتى وجدتني داخل القبو...

خرجت من «غزوتي» وفي يمناي كمية من اللبنة. وكنت لبقاً بحيث أعدت الكيس كما كان بالتمام، وبحيث لم أترك أي أثر على الأرض أو على الحديد. ولكنني لم أكن لبقاً حين أقبلت

Twitter: @ketab_n

على اللبنة في يدي ألتهمها في مكان مكشوف. فقد طرقت أذني بغتة تنحنحة غريبة وكأنّها آتية من أعلى. التفتّ وفمي محشوّ لبنة، ويدي ما تزال فيها بقية، وإذا على شرفة في الدور الأعلى من البناية معلّم روسي لم يكن قد انقضى على وصوله إلى المدرسة غير يوم واحد. إنّه لا يعرفني. ومن الأكيد أنّه لا يعرف ما هي اللبنة، ولا من أين جئت بها. ولعلّه يحسبها ضرباً من الحلوى. ولكنني، مع ذلك، جمدت مكاني، وجمدت اللبنة في فمي، ويبست يدي. وتمنّيت لو أنّني قضيت جوعاً ولم أفعل الذي فعلت. ويقيني أنّ توبتي كانت مقبولة عند اللّه. فهو لم يفضحني. ويفضحني الآن قلمي بعد نصف قرن ويزيد.

Twitter: @ketab_n

٥

من «المصادفات» الكثيرة في حياتي - وقد ذكرت واحدة منها عندما حدّثتك عن ذلك الرجل الطيب الذي اهتمّ بي في ميناء حيفا. أجل من تلك «المصادفات» الغريبة واحدة لا بدّ من ذكرها ههنا:

كنّا، زمان الدراسة في الناصرة، نمضي عطلة الصيف كلّ في بلدته. ومن بعد أن صرفت عطلتي الأولى بين أهلي في الشخروب هبطت بيروت لأستقلّ عين الباخرة «جولي» إلى حيفا. وشق عليّ فراق الأهل والشخروب، وعلى الأخصّ من بعد أن أتقنت فنّ الصيد وأولعت به. لذلك وجدتني في بيروت وكأنّني في منفى. فقلبي فحمة تحترق. وصدري أضيق من سمّ الخياط. وفكري مشرّد في أعالي صنين. وفي عينيّ عتمة، وفي حلقي غصّة، وعزيمتي أوهى من لعاب الشمس. وبكلمة أخرى، فالدنيا كلّها عندي لا تساوي ريشة عصفور.

وشاءت الأقدار أن تزيد في بؤسي بؤساً. ذلك أنّنا عندما

Twitter: @ketab_n

ركبنا الزورق لم يمضِ بنا إلى الباخرة كما كان مفروضاً فيه أن يفعل. بل اجتاز المكان الراسية فيه إلى مكان أبعد. وإذ سألنا النوتي: إلى أين؟ أجابنا بمنتهى البرودة: إلى الكرنتينا (المحجر الصحي). وما هي الكرنتينا؟ ولماذا؟ - في البلاد هواء أصفر، ولا بدّ من تطهير الركاب وأغراضهم قبل أن يباح لهم ركب الباخرة.

هواء أصفر؟! لقد سمعت من قبل بهذا الوباء الرهيب. ولكنني لا أعرف عنه أكثر من أن العجائز عندنا إذا أردن أن يستنزلن غضب اللّه على عدوّ طلبن أن يجرفه او أن «يقلطه» الهواء الأصفر. يا ويلك يا ميخائيل. كأن ما بك من ضيق وبؤس لا يكفيك حتى تأتيك، بالاضافة إليه، «بشارة» الهواء الأصفر! حقّاً لقد اكتمل نهارك. فهل من جحيم بعد هذا الجحيم؟

دخلنا المحجر. وهناك تكاثفت الظلمات في عيني وقلبي عندما أدخلوني غرفة ضيقة وأكرهوني على تسليم حقيبتي ثمّ على التعرّي من كلّ ثيابي التي أعاضوني عنها ملاءة بيضاء أمروني أن ألتفّ بها وأن أنتظر في ردهة خارجية حيث ينتظر غيري من الركاب.

خرجت في زيّي الغريب إلى الردهة الخارجيّة. ولو أنّ غاندي كان قد برز على المسرح العالمي في ذلك الزمان لكان لي

Twitter: @ketab_n

بعض التعزية في أنّني بقيافتي، أشبهه إلى حدّ بعيد. ولكنّ غاندي المناضل كان لا يزال جنيناً في ضمير الغيب، فما كان له أن يخفف شيئاً ممّا بي من الشعور بالخزي والغربة، وانقباض النفس. وعلى الأخص من بعد أن تلفّتّ حواليّ فلم أبصر غير رجال في ملاءات بيض وكأنّهم في أكفان، أو كأنّهم الأشباح من دنيا الحكايات والأساطير. وجدت مكاناً فارغاً على مقعد خشبي فقعدت والدمعة تكاد تطفر من بين أجفاني. وإذا بيد تمسّ كتفي وتهزّني هزّاً لطيفاً. وإذا بصوت غير غريب عن أذني يناديني: ميخائيل! لقد كانت اليد يد نسيب عريضه وكان الصوت صوته!.. وكنت قد جلست إلى جانبه ولم أبصره لفرط ما بي من الغمّ والأسى.

ما ذكرت تلك «الصدفة» المباركة إلاّ استدررت شابيب الرحمة على روح الذي قال:

« دع التقادير تجري في أعنّتها ولا تبيتنّ إلاّ خاليَ البالِ
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغيّر اللّه من حالٍ إلى حالِ»

إي! سبحان من يغيّر ولا يتغيّر! سبحانه كوّن الإنسان آلة عجيبة من الأفكار والأحاسيس ووقّعها أبدع التوقيع. فبينا هي تضجّ بالشكوى، وبالوحشة والألم، وتكاد تستجير منها حتى

Twitter: @ketab_n

بالموت - بالفناء - بالعدم، إذا بها، في أقلّ من رفّة الجفن، تتجاوب أوتارها بأعذب ألحان الغبطة، والبهجة، والطمأنينة. فكأنّ عصا ساحر قد مسّتها. وتلك العصا قد لا تكون أكثر من بسمة، أو نظرة، أو همسة، أو هزّة كتف ويد تأتيها من رفيق، أو صديق، أو حبيب، أو أيّ شخص لا يضمر لها إلاّ الخير. وقد لا تكون أكثر من قطرة ماء، أو نسمة هواء، أو نور سراج، أو كسرة خبز تأتيك وأنت في أمسّ الحاجة إليها.

لقد كانت يد نسيب عريضه تلك العصا السحرية التي بدّلت ظلمتي نوراً وزحزحت الأثقال الهائلة التي كانت تضغط على صدري. فأحسستني في الحال إنساناً كلّ ما فيه يصفّق للحياة. وعلى الأخصّ عندما رأيت بجانبه رفيقنا ميخائيل اسكندر - وكان هو الآخر من حمص. والاثنان كانا في صفّ واحد، وكانا، من حيث التحصيل، فرسي رهان - كما يقال. إلاّ أنّني كنت أوثق صلةً بنسيب. فقد كان يعجبني منه هدوؤه ورصانته، وميله إلى التعمّق في التفكير والدرس، وابتعاده عن المهاترات والمشاحنات المدرسية. والصداقة التي تمكّنت بيننا على مقاعد المدرسة لم تزدها السنون إلاّ رسوخاً وصفاءً وجمالاً.

في اللحظة التي فيها لقيت رفيقيّ على ذلك المقعد الخشبي

Twitter: @ketab_n

في الكرنتينا فارقتني كلّ هواجسي ووساوسي، وشعرت كأن الدنيا بأسرها باتت في قبضة يدي. ولو طاوعتني الحشمة لهتف عالياً: «إصفرّ ما شئت يا هواً أصفر. واتّسعي وضيقي ما شئتِ يا كرنتينا. وارقصي مع الموج ما طاب لك الرقص يا «جولي». فأنا الآن ثلاثة. وكنت واحداً. والثلاثة سيقتلون الطريق قتلاً. سيقتلونه بالنكات والذكريات وبالمحاولات لاختراق الحجب التي تفصلهم عن النهار الآتي - عن غدهم القريب والبعيد. إنهم أقوى من أن تصدّهم أيّ عقبة أو يهدّهم أيّ همّ.»

وفي الواقع قامت لنا في تلك الرحلة عقبات لو كان لي أن أجابهها وحدي لما عشت لأكتب عنها. فما إن بلغنا حيفا حتى قيل لنا إن النزول إليها ممنوع لكثرة ما فيها من الإصابات بالهواء الأصفر. وإذاً فلا بدّ من متابعة السفر إلى يافا. وماذا نفعل في يافا وكيف ننفذ منها إلى الناصرة والمسافة بينهما أربعة أضعافها بين حيفا والناصرة، وما من وسائل للنقل غير الحمار أو البغل أو البعير؟ إنها لمشكلة صمّاء. بل إنّها لكارثة.

وهنا كذلك أنقذتني «اليد الخفية» من محنتي. فقد تذكر نسيب أن له في يافا قريباً من آل عريضه. وأنّه تاجر بينه وبين والده علاقات. فاهتدينا إليه، ونزلنا ضيوفاً عليه في دكّانه. فأكرم

Twitter: @ketab_n

وفادتنا ورتّب لنا أن نسافر في المساء مع متعهد نقل البريد. وكان المتعهّد يملك حماراً وكديشاً. وقد رأى أن يركب اثنان منّا الكديش وواحد الحمار. فكان الحمار من نصيبي، وكانت قرعتي الرابحة. ولك، إذا استطعت، أن تصوّر لنفسك أولئك الفتيان الثلاثة يسيرون ثلاث ليالٍ في مثل تلك القافلة الغربية، تارة في السهل وطوراً في الوعر؛ يغالبون النعاس بالمزاح حيناً وحيناً بالخوف من وحش أو من قاطع طريق. فقد كنّا نسير الليل ونستريح في النهار حيثما اتّفق لنا أن نستريح. في العراء أو في خان بجانب الطريق حيث الزبل والذباب والبرغش والبراغيث وما شاكل.

انتهت الرحلة بسلام، ولكن ليس بدون «فاجعة». وكانت الفاجعة أنّنا عندما بلغنا المدرسة احتجزوا جميع أغراضنا بقصد تطهيرها وفي جملتها علبة بقلاوى كان قريب نسيب في يافا قد زوّده بها. ولم نكن قد تذوّقنا ممّا فيها غير مرّة واحدة. فما كان أفدحها خسارة!..

Twitter: @ketab_n

٦

في تلك السنة طرد اثنان من طلاّب المدرسة، وشاع أنّهما طُردا بسبب علاقات «مشبوهة». وفهم الكلّ انها علاقات جنسية.

لقد كان لي في ذلك الخبر صدمة وأيّ صدمة. إذ انّني، وأنا الصبيّ الساذج القادم من سفح صنّين، ما كنت أجهل أن ذلك يتمّ بين رجل وامرأة، مثلما يتمّ بين ثور وبقرة، وبين هرّ وهرّة، وكبش ونعجة، وديك ودجاجة الخ. أمّا أن تكون مثل تلك العلاقة بين رجل ورجل فذلك ممّا يبعث التقزّز في نفسي، وتقشعرّ له حتى أمعائي، ويأبَى أن يصدقه عقلي. ألهذا الحدّ من الخساسة يستطيع أن ينحدر الناس - أو بعض الناس؟ يا للخزي! يا للبشاعة.

ذلك ما شعرت به آنئذ. وذلك هو شعوري اليوم كلّما قرات أو سمعت عن الانحرافات الجنسيّة. إلاّ أنّني لست أريد أن أمرّ بها الآن مرور الكرام: بل لا بدّ من كلمة عن العاطفة الجنسيّة

Twitter: @ketab_n

التي قد تكون من أقوى العواطف فينا - إن لم تكن أقواها على الإطلاق. فما ان نبلغ سن المراهقة حتى نجدنا في صراع لا أمرّ ولا أقسى مع الطبيعة التي هي طبيعتنا. إنها في لحمنا ودمنا. بل هي لحمنا ودمنا. وعندما تضطرم نار الشهوة في ذينك اللحم والدم تغدو كلّ خلية فينا وكأنّها القِدر تغلي وتفور. فالدّماغ تمّحي منه كلّ صورة إلاّ صورة الأنثى وجهازها التناسلي. والعين ينقلب بؤبؤها ساحراً يحوّل حتى الجماد إناثاً. والقلب ينتفض لهفة إلى ما يبرّد نيرانه. إنها الحمّى النهاشة. إنها لثورة من الجنون. ففي الجسم قوّة هائلة، سجينة تريد الانطلاق من سجنها. وستبقى تهزّ الجسم حتى تنطلق. هكذا أرادتها الطبيعة الحريصة منتهى الحرص على تجديد النسل، والتي ما خلقتها إلاّ وخلقت لها الباب لانطلاقها. غير أنّنا سوّرنا ذلك الباب بالأسوار، وأقمنا على الأسوار الحراس والرقباء، وجعلنا اقتحام تلك الأسوار جريمة لأيّ إنسان لا يملك جواز الدخول. وجواز الدخول هذا لا يملك حقّ منحه إلاّ رجال يمثلون في الأرض مشيئة «السماء» - أو مشيئة «الشعب». وقد ألبسوه هالة من التقديس، وسيّجوه بالأسلاك الشائكة.

وماذا كانت النتيجة؟ كانت هذه الموجة العارمة من

Twitter: @ketab_n

الانحرافات الجنسيّة، وآلاف الآلاف من بيوت الدعارة في كلّ مكان، وانتشار الزنا في كلّ بقعة من بقاع الأرض. ثمّ كانت عند المراهقين والشباب المحرومين عادةً سريّة، أو أحلاماً مزعجة في الليل، أو تحرّقاً وانقباضاً في النهار، أو جنوناً مطبقاً على مدى العمر.

قد يكون الزواج وما يرافقه من «التقديس» والأنظمة الصارمة عند معظم الشعوب خير حلّ ممكن للمشكلة حتى الآن. فالإنسان غير الحيوان المقيّد بغريزته. وهو إذا تركته على هواه قاده هواه إلى الهاوية. فلا بدّ من لجام. لا بدّ من رادع. ولكن هذا الرادع يجب أن يأتيه لا من الخارج، بل من الداخل - من نفسه.

لذلك كانت الحاجة ماسة إلى تربية جديدة - تربية تصرف أذهان المراهقين وغير المراهقين عن العاطفة الجنسية، لا لأن في الانقياد لها «خطيئة»، بل لأن في مقاومتها والسيطرة عليها قوّة أين منها قوّة السيف والتاج والدينار. فمن ملك تلك القوّة ملك المفتاح إلى التخلّص من أوبئة كثيرة تفتك بالجسد والروح على السواء. وأن يملك الواحد مثل تلك القوّة لألذ وأشهى بما لا يقاس من أن يملك إطفاء شهوته الجنسيّة ساعة يشاء. فلا يتعفّفن أحد طمعاً بجنّة أو هرباً من نار. بل حبّاً بالعفّة ذاتها، وبما تنشره في

Twitter: @ketab_n

القلب من شعور بالطهارة، وما تشيعه في النفس من نشوة الغلبة على النفس. لا خير في عفّة تفرضها علينا الظروف أو القوانين أو التقاليد. والخير كلّ الخير في العفّة يفرضها الروح على الجسد، ويفرضها الروح على الروح.

لقد عانيت في كبح عاطفتي الجنسيّة الشيء الكثير. ولم أستسلم لها إلاّ في فترات من حياتي سأذكرها في حينها.

Twitter: @ketab_n

٧

زادت عائلتنا أختاً وأخاً في غضون السنوات الأربع التي أمضيتها في الناصرة. أما الأخت فقد دُعيت «غالية». وأما الأخ فقد اختاروا له اسم «نسيب». وهكذا أصبحنا خمسة اخوة وأختاً، وأصبحنا مع الوالدين والجدّة تسعة. إنها لعائلة «تأكل شعر الذقن» كما يقولون. وموارد رزقها لم تبرح حيث كانت. باستثناء الإمدادات الضئيلة التي أخذت تردها مرة أو مرّتين في السنة من أخي أديب الذي استقرّ في مدينة صغيرة تقع في الجانب الشرقي من ولاية واشنطن. وقد استهواني اسمها «والا والا» **Walla Walla** . وهو اسم هندي أميركي عرفت فيما بعد أنّه يعني «المياه الكثيرة».

تلك العائلة يجب أن تعيش. وأن تعيش في بحبوحة من الرزق والكرامة. وإخوتي الصغار ينبغي أن يتعلّموا. وعليّ أن أقوم بقسطي في توفير الرزق والكرامة والعلم. عليّ أن ألقمه حجراً – ذلك الرجل الذي استخفّ بي مرة في معرض الحديث عنّي فقال لأبي: «خير لابنك الذيٓ في الناصرة لو عاد يحرث معك الأرض

Twitter: @ketab_n

في الشخروب. فلن ينتج من علمه شيء. إذا طلع من العجرم مسّاس بيطلع من بيت نعيمه شمّاس»! قالها، كما أخبرني أبي، أمام الكنيسة عندما خرج المصلّون من القداس وسأل أحدهم أبي عن عياله وعنّي بالأخصّ. والعجرم نبات شائك الأغصان، معقدها. والمسّاس أو المنساس عصا طويلة، رشيقة، ومستقيمة تُستعمل لسوق الثيران. فلا يُمكن أن تُستخرج من العجرم. أجل. سألقم ذلك الثرثار حجراً. وسأعمل على رفع شأن العائلة. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ إن مستقبلي معروف ومحدود. سأكون مديراً لإحدى المدارس الروسيّة الابتدائيّة براتب قدره خمسة وخمسون فرنكاً فرنسيّاً. فماذا عساني أقتصد من ذلك الراتب لأعين عائلتي؟ إنّه لشيء طفيف جدّاً.

ولكن الأمر يغدو أفضل بكثير لو قُدّر لي أن أكون الطالب المحظوظ الذي ستختاره المدرسة في العام ١٩٠٦ للدرس في روسيا. فهل تختارني؟.. إنّ الشروط معروفة. وهي تقضي بأن ينهي الطالب سنته الدراسيّة الرابعة بتفوّق على جميع أقرانه في دروسه وفي سلوكه. وإذا تعادل طالبان فقد تختار المدرسة الاثنين معاً.

لقد بدأ الحلم بالسفر إلى روسيا يساورني منذ سنتي الأولى

Twitter: @ketab_n

في الناصرة. إلاّ أنّني ما كنت أجرؤ أن أتمادى فيه. فقد كان لي رفيق يزاحمني أشدّ المزاحمة على المرتبة الأولى في الصفّ. غير أنّه كان ينقصه الخيال والذوق في الإنشاء. في حين أني، والميل إلى الكتابة يغلب على جميع ميولي، كنت أجول في كل موضوع يفرض علينا جولات تثير إعجاب أساتذتي سواء بالعربيّة أو بالروسيّة. وأذكر أن المعلم جبران فوتيه أعطاني مرّة علامة + ٥ في موضوع وصف الخريف. وهي علامة لم يسبق أن أعطيت لأحد. لأنها فوق «الممتاز». أجل. كنت أنام وأقوم والسفر إلى روسيا هو الأمنية الكبرى الكامنة في أعمق أعماق قلبي. إنّه لفخر لي عظيم أن أكون المختار من بين رفاقي العشرين. وإنها لفرصة لي نادرة أن أكتسب المزيد من العلم في بلاد أنجبت تولستوي. ولكن... هل يتحقّق الحلم؟

كنت كلّما ازددت معرفة باللغة الروسيّة ازداد إقبالي على المطالعة فيها. فقد طالعت وأنا في الناصرة بعض روايات «جول فرن» مترجمة إلى الروسية. وطالعت بعض القصص لتشيخوف وتولستوي. وقرأت «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي حتى آخرها برغم أنّني لم أكن أفهم منها حتى نصف ما أقرأ. والقليل الذي طالعته، وإن فاتني الكثير من معانيه، كان كافياً لإضرام نار الشوق

Twitter: @ketab_n

في نفسي إلى التعمّق في أصول اللغة الروسية وآدابها. وقد ساعدني في ذلك معلم الروسية وهو غير المعلّم الروسي الذي ذكرت من قبل. لقد جاءنا هذا المعلم الجديد بعد دخولي الناصرة بقليل. وكان عربيّاً من حمص ومن الذين درسوا في روسيا، اسمه أنطون بلاّن. وإني لأذكره دائماً بالخير ولأكثر من سبب.

كان المعلّم أنطون زهيد الجثة، وسيم الوجه، سريع الحركات، خفيف الظلّ، ودون الربع من الرجال. وكنت - لولا شارباه - إذا نظرت إليه بشعره الأجعد المنفوش، حسبته ولداً كبيراً. ولكنه كان رفيقاً لتلاميذه ومعلّماً في آن. وكان له أسلوب بارع في تلقين اللغة الروسية وذلك بحملنا على حفظ عدد من المفردات لكل درس، ثم بالإكثار من التمارين والإملاء لترسيخ القواعد في أذهاننا، ثمّ بفرضه علينا تلخيص ما نقرأ أو الكتابة في شتى المواضيع التي كان يقترحها علينا، وبالتحدث إليه ضمن الصف باللغة الروسية دون الاستعانة بالعربية.

والأهمّ من ذلك أن المعلّم أنطون كان أوّل من نبّه فينا الشعور الوطني. فقد كان يحدّثنا، كلما سنحت الفرصة، عن البؤس الذي تعانيه بلادنا تحت النير التركي، وعن استبداد عبد الحميد، وجرائم البوسفور، والفساد المتفشي في دوائر الدولة من

Twitter: @ketab_n

السلطان حتى آخر مختار في آخر قرية. فلا بدّ للعرب، إذا هم شاؤوا عيشاً فيه شيء من الاستقلال والكرامة، من أن يستردّوا أرضهم وحرياتهم السليبة. وعلى المسلمين منهم ان يستردوا الخلافة المغتصبة. فالخلافة للعرب وحدهم. ولا يجوز أن تنتقل إلى الأتراك والأعاجم. رحمة اللّه عليك يا أنطون بلاّن!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٨

نحن في الـ«البسط الشافي» نخوض مع الخليل بن أحمد بحور الشعر العربي على اختلاف اعماقها وأبعادها، ونغالب محلّلاتها ومحرّماتها، ونميّز بين بلاغاتها وتفاهاتها. فنعرف أنّ أبلغ ما جاء في المدح هو قول أحدهم:

«أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم
دُجى الليل حتى نظّم الجذعَ ثاقبه»

بل هو قول الآخر:

«يُغشون حتى لا تهرّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل»

ونعرف أنّ أقذع ما ورد في الهجاء قول أحدهم في بني باهل:

«أباهل ينبحني كلبكم
وأُسدكم ككلاب العرب ؟

Twitter: @ketab_n

فلو قيل للكلب يا باهليّ

عوى الكلب من لؤم ذاك النسب»

ويخيّل إلينا، ونحن ندرس العروض، أنّنا سنملك ناصية الشعر لا سيما وقد حفظنا الكثير من نظم القدامى من معلّقات وغير معلقات. فلم نتغافل عن الصعاليك، ولا شعراء بني أميّة، والعباسيّين، والأندلسيين. ولكم كان يدهشني أن أرى الكثير من رفاقي يحاول نظم بيت فلا يستطيع. وإن نظم حطّم الأوزان تحطيماً. فالوزْن ما أزعجني يوماً من الأيام. بل كنت، قبل أن درست العروض، أثق منتهى الثقة بأذني فلا يصعب عليّ ضبط الوزن. والذي كنت أتمنّاه، وقد «ملكت» مفاتيح العروض، هو أن تكون لي قريحة القائل:

«الخيل واللّيل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم»

وأن تكون لي سعة قاموسه، وبراعته في اصطياد القوافي. إلاّ أنّني لو سئلت، حتى في ذلك الزمان، عن أيّ القصائد التي حفظتها هي الأحبّ إلى قلبي لأجبت دونما تردّد إنها:

«غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي

نوح باكٍ ولا ترنّم شاد»

Twitter: @ketab_n

فقد كنت أميل إلى الشعر الذي يدفعني على التأمّل في مشكلات الحياة والموت أكثر منّي إلى الشعر الذي يدغدغ عاطفتي. وعلى الأخصّ إذا كان شعراً فيه الفخر، وفيه التبجّح والاعتداد بالنفس، وفيه «تضريب اعناق الملوك»، وفيه السيوف والرماح النواهل بالدم. وإذا راقني شعر عاطفي فغزل لطيف، عفيف، فيه لوعة صادقة كالغزل الذي ينسبونه إلى قيس بن الملوّح العامريّ، أو نجوى بعيدة القرار، أو شكوى لقلب يفتّته الأسى. ففي طبيعتي ما يتجاوب تجاوباً عفويّاً مع الحزانى والبائسين والمظلومين والمنسيين. أما الجالسون في الأعالي، والمتغطرسون، والمتخمون، والمستبدّون، والمنتفخون بما يملكون من مال أو سلطان، والهازجون على المقابر فنفسي تنقبض دونهم. هكذا كنت منذ الصغر. وهكذا انا اليوم.

لا أذكر السنة التي اغتيل فيها الغرندوق سرجيوس، عمّ القيصر نقولا الثاني ورئيس الجمعية الامبراطورية الفلسطينية التي أنشأت المدارس الروسية في بلادنا - أهي الثالثة أم الرابعة من سني دراستي في الناصرة. وأذكر أن مدرستنا أقامت له حفلة تأبينيّة دعت إليها عدداً من وجهاء الناصرة، وأنّني ألقيت في الحفلة قصيدة من نظمي اختارتها الإدارة من بين قصائد عدّة تقدم بها

Twitter: @ketab_n

رفاق أكبر مني سنّاً وأقدم عهداً بالخليل بن أحمد. ولم يبق في ذاكرتي منها غير بيت واحد:

«سرى نعيه بالبرق في كلّ جانب

وما كان ظني الطّود بالبرق يُرفع»

ولعل ذلك البيت لا يزال عالقاً بذهني لأني حسبته، يومذاك، من أبرع أبيات القصيدة، بل من عيون الشعر... يا لسذاجة الصبا! يا لغرور الشعراء! لقد ظنّنّا أن الشعر بات طوع أقلامنا من بعد أن انقادت لنا بحوره وجميع ما يطرأ عليها من زحافات وعلل. وما دار في خلدنا أن دنيا نعيش فيها بقلوبنا وأفكارنا لأوسع بكثير وأعمق من أن يحتويها أيّ بحر وأيّ قافية. ولكم رفعنا إلى قمم الأولمب قدماء ومحدثين، والشعر بعيد عنهم بُعد الأرض عن زُحل.

Twitter: @ketab_n

٩

لعلّ أصعب ما يلاقيه طالب في مدرسة داخليّة هو تجنّب الخصام والقتال، والقيل والقال، والعيش في وفاق ووئام مع جميع رفاقه. بل لعلّ ذلك أصعب ما يلاقيه أيّ إنسان في علاقاته ومعاملاته مع الناس. ففي المدرسة تكثر المشاحنات والمهاترات والتكتلاّت، وتكثر الأحساد والأقاويل والوشايات. ولا يندر أن يشتبك اثنان أو أكثر بالأيدي وبغير الأيدي. ولأنّني كنت، ولا زلت، أكره الدسّ والنميمة، وأكره الخصام من أيّ نوع كان - وبالأخصّ إذا التجأ إلى القوّة والبذاءة في اللسان - لذلك آليت على نفسي منذ البداية أن أتحاشى كلّ ما من شأنه أن يورّطني في العداوات مع أيّ من رفاقي. على أنّني، إذا كرهت الخصام، ما كنت أكره الجدل البريء في أمور أحسبها جديّة وذات شأن. بل كان يثير في أن أقرع الحجّة بالحجّة وأن أفحم مناظري.

ذات يوم دنا مني رفيق تربطني به مودّة صافية، عميقة، وأخذ يعاتبني بلهجة قاسية على كلمات قيل له إنها صدرت عن

Twitter: @ketab_n

لساني بحقّه، وكانت بحت اختلاق وافتراء. حاولت أن أقنعه بأن في الأمر دسيسة للتفرقة بيننا فلم يقتنع. وشقّ عليّ عناده. وآلمني أن يصدّق غيري ولا يصدّقني، وأن يحلّ الجفاء بيني وبينه محلّ الألفة والصداقة. وقلت في نفسي: «إنها الثرثرة تخلق المشكلات. إنّه اللسان يثير النعرات. فلو كان للناس أن يلجموا ألسنتهم عن الكلام لما كان بينهم خصام. فلألجم لساني!»

راقتني الفكرة ولم تعوزني الإرادة في تنفيذها، برغم ما في تنفيذها من مشقّة. وهكذا سكتّ عشرة أيام متتالية، لا أنطق بكلمة إلاّ إذا دعاني المعلّم في الصف للكلام، ولا أُبالي بوشوشات رفاقي ونكرزاتهم، وبالمحاولات الكثيرة التي بذلوها لحملي على الكلام. والذي شفع بي لديهم رصيد كبير من الاحترام الذي كانوا يكنّونه لي. فما لبثوا أن كفّوا عن محاولاتهم وتركوني وحدي في القوقعة التي خلقتها لنفسي من الصّمت والسكينة. ولقد كانت قوقعة دافئة، هانئة، فسيحة، تمنّيت لو أعود إليها الآن فأبصر وأسمع وألمس جميع الأخيلة والهواجس والأفكار والأحلام التي كانت تعمر بها.

لقد بدأ ذلك الصبيّ القادم من الشخروب في سفح صنّين يفكّر جدّيّاً في أمور الحياة. فيستحسن منها أشياء، وينفر من

Twitter: @ketab_n

أشياء. إنّه يستحسن للناس أن يعيشوا في وئام وسلام. ولا يرضى لهم أن يعيشوا في نفار وخصام. وإنّه ليؤلمه أن يهدر الناس أوقاتهم في العبث والثرثرة، ويؤثر لو يميلون إلى الجد ويقتصدون في الكلام. وإنّه ليشعر أعمق الشعور بأن العمر فرصة للكسب - كسب المعرفة التي منها وحدها الثروة والجاه والمجد. وإن عزّة نفسه لتأبَى عليه أن يكون نكرة. إنّه يريد أن يكون علماً - ولو في قريته - في مدرسته - بل أينما حلّ ...

انتهت مدّة الصمت، فرفعت اللجام عن لساني وعدت سيرتي الأولى بين رفاقي. ولكنني أحسست كما لو كنت عائداً من رحلة بعيدة - بعيدة. فأنا أنا - وغير أنا. لكأني ولدت ولادة جديدة. ففي هذه الفترة التي انقطعت فيها عن الكلام نبتت لخيالي قوادم ولفكري عين غير العينين في وجهي. ومن بعدها أخذت أشعر أنني، وإن انسجمت في الظاهر مع بيئة أنا فيها، ففي داخلي ما يجعلني أبداً غريباً عنها. وهذا الشعور بالغربة ما انفكّ ينشط ويزداد على مرّ السنين. حتى بتّ أعيش في عالمين: عالم خلقته من نفسي لنفسي. وعالم خلقه الناس للناس. والعالمان يتجاوران في حياتي. ولكنهما لا يتزاوجان.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٠

كان من حسن تدبير القائمين على مدرستنا أنهم خصّصوا لنا ساعة في الأسبوع للأشغال اليدوية. وتلك الساعة كانت من أمتع الساعات عندي. فقد كان لنا مشغل مجهّز بأحدث أدوات النجارة، والحفر في الخشب، وتجليد الكتب. ولكن كان يسعدني أن أنسى نفسي إذ أنكبّ بكلّ فكري وقلبي وعضلاتي على خشبات في يدي، آناً بالمنشار وآونة بالمنجر أو بالإزميل، فإذا بها تتحوّل بالتدريج إسكملة أو طاولة أو إطاراً لصورة. وما كان أطيب العرق يتصبّب من جبيني فأمسحه بمنديلي أو بيدي مثلما يفعل الفلاّح في حقله والعامل في معمله. بل ما كان أطيب حتى الغراء تتلوّث به يدي!

ولماذا؟ لأنّني أشعر بلذّة الخلق. إنّني أخلق من أشياء موجودة أشياء لم يكن لها وجود. أخلقها حسب تصميم مدروس في أدقّ تفاصيله من حيث الشكل والقياس والغاية. فلا أنتهي منها حتى أعود أتأمّلها، فإذا جاءت كما أردتها، وكانت خالية

Twitter: @ketab_n

من العيب، أشاعت في نفسي البهجة والغبطة. إنهما بهجة الخالق وغبطته بجمال ما خلق. أما قيل عن اللّه إنّه، من بعد أن فرغ من الخلق، نظر إلى صنع يديه فوجده «حسناً جدّاً»؟

خالق هو الذي يصنع المحراث. وخالق هو الذي يستنبت بالمحراث شتى البقول والحبوب والثمار. وخالق هو الذي يغزل الشعر فيحوك منه خيمة أو بساطاً، أو الصوف فيصنع منه عباءة أو قميصاً. وخالق هو الذي يصوغ من الفضة أو الذهب خاتماً أو قرطاً، والذي يسكب الكلمات في قوالب من النثر أو الشعر فإذا بها أدمغة تتوهّج أفكاراً، وقلوب تنبض مشاعر، وأوتار تسيل ألحاناً، وتماثيل تفيض جمالاً. وخالق هو كلّ مَن قال لشيء لم يكن «كن»! فكان. والإنسان وحده من بين سكّان الأرض أوتي القدرة على الخلق. ولا حدّ لقدرته ولا نهاية. فما أعظمه! وما أشدّ عمى الذين لا يبصرون عظمته فيعاملونه كما لو كان آلة للتناسل والإنتاج لا أكثر. بل كما لو كان بيدقاً على رقعة شطرنج، أو ورقة نقد يبتاعون بها النفط والنفوذ، أو وقوداً لمرجل جهنمي يدعونه الدولة، أو الوطن، أو المدنية!

وإنها لجريمة نكراء من جرائم هذا العصر الأعمى أن تكثر مدارسه وأن يقلّ فيه الخالقون. فكم من طالب ما لمست يده

Twitter: @ketab_n

المعول أو المنجل، ولا هي تستطيع أن تدقّ مسماراً في حائط، أو أن تدخل خيطاً في ثقب إبرة! وكم من طالب يجهل كيف تنبت حبّة القمح أو البصلة، ومن أين تأتيه الزبدة أو القشدة التي على مائدته. وكم من الذين يعيشون أعمارهم في هذا الزمان وأيديهم وأرجلهم تكاد لا تلمس التراب!

إي، إنها لجريمة أن يحيا الطالب في مدرسته حياة بينها وبين الحياة خارج المدرسة هوّة سحيقة. فلا عجب إذ ذاك أن تراه يخرج من المدرسة فلا يتمكّن في الحال من مدّ جسر يصل الحياتين. فيمضي يعاني الأمرّين في التفتيش عن رزقه وعن مكانه في الأرض. ويمضي يقرع الأبواب، ويحبّر الطلبات. فلا ينجده امرؤ القيس ولا الشنفرى ولا النابغة الذبياني. ولا يجديه نفعاً ما درسه من «تهافت الفلاسفة» و «تهافت التهافت». وما أكثر ما يجده في النهاية إمّا في محطّة للبنزين، أو في حانوت حلاّق أو بقّال، أو في «بار» لبيع المسكرات والمرطبات، أو نحو ذلك. وما أسرع ما يتبخّر من ذاكرته جميع ما وعته في المدرسة من «ثقافة عامّة» كان منها أن قطعت صلته بالحياة العامّة، وأن أجهزت - أو كادت - على قدرة الخلق فيه التي هي المبرر الأوحد لوجوده. وأيّ نكهة لحياة لا خلق فيها؟ إنها والموت سيّان. وأن يُفني

Twitter: @ketab_n

الإنسان زهرة شبابه في الدرس، ثم أن يراه مُكرهاً على الارتزاق طعماً مرّ المذاق. وبإمكاننا أن نجعله حلواً لو نحن أقلعنا عن تقاليد ومفاهيم كثيرة نحسبها صالحة وقد باتت أفسد من الفساد.

كان مشغلنا في بناية ضخمة جدّاً شادها الروس حديثاً في الناصرة. وهي غير بناية المدرسة. وقد شادوها لغايات قيل لنا إنّ أهمّها هو إيواء الحجاج الروس الذين كانوا يزورون الأرض المقدّسة قبيل الفصح في كلّ سنة. وقد كنّا نشاهدهم يأتون إلى الناصرة أفواجاً أفواجاً - بالمئات وبالألوف، ومشياً على الأقدام، يأتون شباناً وشيباً - بلحى وبغير لحى - رجالاً ونساء - وجلّهم من الفلاحين. وكنّا نُسَرّ أن نتفرّج عليهم في أزيائهم الغريبة وأكسيتهم الرثّة، وقد تدلّت من أكتافهم أو فوق ظهورهم أباريق الشاي المصنوعة من التنك (الصفيح)، وبرزت في أيديهم عصيّ طوال يستعينون بها على المشي؛ وأن نسمعهم يتحدّثون عن انطباعاتهم فلا يذكرون اللّه أو المسيح إلاّ تبرّكوا برسم شارة الصليب على وجوههم وصدورهم، وإلاّ تمتموا بمنتهى الورع: «يا ربّنا يسوع المسيح ارحمنا!» وكنّا نعتزّ بأنّ أولئك القوم من مذهبنا - من صميم الأرثوذكسية. وأنهم في بلادهم يعدّون بالملايين. وإذاً فلسنا قلّة في الأرض. بل لنا شأننا. ولنا وزننا في هذه الدنيا وفي الآخرة.

Twitter: @ketab_n

إنّ الذي كان يستهويني في اولئك الحجاج هو البساطة المتناهية البادية في وجوههم، ومظاهر التقوى في جميع حركاتهم. إنهم أطفال كبار. والناظر إليهم يكاد لا يصدق أن البلاد التي أنجبتهم أنجبت عباقرتهم الذين ملأت أسماؤهم مسامع الدنيا. بل لعلّها ما أنجبت أولئك العباقرة إلا لأنها أنجبت ذلك الشعب.

لا أدري لماذا كان ينعصر قلبي كلما تخيلت أولئك الحجاج في بلادهم البعيدة يتعبون ويشقون، ويقترون على أنفسهم في ما يأكلون ويشربون ويلبسون كيما يتسنّى لهم بعد اعوام توفير ما يلزمهم من المال لزيارة الارض المقدسة. وأي السحر هو الذي يحمل ملايين الناس في مختلف الأمصار - والفقراء منهم بالأخص - على مغادرة بلادهم، وتجشّم شتى المشقّات في الأسفار، لا لكسب مغنم من مغانم الأرض، بل لكسب ثروة في السماء؟ إنّهم يريدون أن يكحّلوا أجفانهم بالنور الذي اكتحلت به أجفان رسول أو نبيّ أو هادٍ يؤمنون بهدايته. ويريدون أن يتنفّسوا الهواء الذي تنفّس، وأن يدوسوا الأديم الذي داس، وأن يجلسوا حيث جلس، ويصلّوا حيث صلّى، ويتبرّكوا ولو بلمس ذرّة من التراب على قبره:

Twitter: @ketab_n

إنهم - وأعني الحجاج من كل نوع ومن كلّ دين - يطفئون بالحجّ عطشاً إلى أكثر من الماء، وجوعاً إلى أكثر من الخبز. فبالحجّ يغسلون قلوبهم من أدران الأرض. وبالحجّ يجهّزون نفوسهم لملاقاة ربّها. حتى إذا كان الحشر فتح لهم ربّهم أبواب الجنّة وقال: «ادخلوها آمنين». وإنّه اللّؤم الذي لا قبله ولا بعده لؤم أن يستغلّ بعض الطفيليين هذا الشعور في الحجّاج، فيسلبوهم أموالهم بشتى الأكاذيب والأخاديع، ويستغلّوا إيمانهم أبشع الاستغلال. حتى بات الحجّ في كلّ مكان موسماً يترصّد فيه أولئك الأشرار الحجّاج ترصّد الذئب للحمل، والرتيلاء للذبابة.

ما أنبل الشعور الدينيّ إذا هو استثير للخير. وما أفظعه إذا هو استثير للشرّ! والذين يملكون استثارته للخير وللشرّ هم رجال الدين. فما أجمل - وما أثقل - الأمانة المربوطة باعناقهم. والجرم جرمهم كلما أبغض إنسان إنساناً أو أراق قطرة من دم إنسان باسم الدين. فالجنّة التي يبشرون بها الصالحين ليست وقفاً لدين دون دين فهي تتسع للصالحين من كلّ دين. وجهنم التي ينذرون بها الطالحين لن تضيق بالطالحين من كل دين. ففيمَ الزحام؟ وعلامَ الخصام؟ ولماذا استباق الحشر وزجّ الناس في جهنم قبل أن يستوفوا آجالهم على الأرض، وقبل أن يُنفخ في الصور؟

Twitter: @ketab_n

١١

في المدرسة حركات محمومة: إنها نهاية السنة الدراسية. وإنها الامتحانات. وهي أصعب ما تكون لطلاّب السنة الرابعة، إذ أنهم سيُمتَحَنون في كلّ ما درسوه خلال السنوات الأربع.

رفاقي في الصف كالمسافرين في الفلاة وقد اربدّ وجه السماء، واختنق الجوّ بالغبار، وجنّ جنون الريح. هذا يحاول اتقاء العاصفة بكتاب، وذلك بدفتر، وهذاك بالركض من جانب إلى جانب، أو بالثرثرة، أو بالصمت، أو بالصّلاة. وكلّهم يتمنّى لو يكون في ثيابي. فسمائي مجلوّة، وقلبي مطمئنّ، وعيني بريئة من الخوف والهمّ. فكأنّني في عيد. بل أنا في عيد. إنّني وحدي من بين طلاّب السنة الرابعة معفّي من الامتحانات في كلّ المواد - إلا الرياضيات. ذلك لأن القوانين تقضي بإعفاء مَن علامته ٥ في أي فرع من الامتحان فيه. وكانت علاماتي ٥ في كلّ الفروع ما عدا الرياضيات. فقد كانت فيها ٤ $\frac{1}{2}$.

وأنا في غبطتي هذه، إذا بالمعلّم أنطون - معلّم اللغة

Twitter: @ketab_n

الروسيّة - يأتيني ليقول: «لي إليك طلب يا ميخائيل. أنت معفيّ من الامتحان في اللغة الروسية. ولكنني أريد منك أن تدخله إكراماً لي. إذ ليس غيرك يبيّض وجهي أمام المفتّش. فهل تسفّهني؟» قلت: «معاذ اللّه». لقد كان في طلبه شيء من الالتماس - من الضراعة. فلبّيته بطيبة خاطر. بيّض اللّه وجهه حيثما كان!

لكم دغدغ كبريائي ذلك التفوّق على أقراني. إلاّ أنّني كنت حريصاً على أن لا تبدر منّي أقلّ كلمة أو حركة قد يشتمّ منها رفاقي شيئاً من الكبرياء في نفسي أو الاعتزاز بتفوّقي. لئن شاقني أن أنال إعجابهم، فقد كان يشوقني أكثر أن أحظى باحترامهم ومحبّتهم، وأن يأتيني ذلك الاحترام وتلك المحبة لا من شهادة أشهدها لنفسي، بل من شهادة يشهدونها هم لي. فقد كنت - وما برحت - أمقت التبجّح أشدّ المقت، وأمقت القوقأة. وأراني كلما ارتفعت في اعين الغير اتضعت في عين نفسي. فليس في طبيعتي ما يكبر على أيّ إنسان وإن بدا أحطّ الناس في اعتبار الناس. وفي طبيعتي ما يطلب السموّ إلى أقصى ما يمكن أن يبلغ السموّ. لذلك قلت بعد سنين في كتابي «كرم على درب»:

«سموت إلى حدّ أني ما بقيت أبصر أحداً دوني».

Twitter: @ketab_n

كنت، ورفاقي سكارى من فرط ما يعانونه من السهر والهمّ والمراجعة، أختلي بنفسي لأتطلّع وإيّاها حيناً إلى الماضي، وحيناً إلى المستقبل. فمن خلفنا ست عشرة سنة صرفنا الأربع الأخيرة منها ههنا - في الناصرة. وما تبقى هناك - حيث صنّين والشخروب وبسكنتا. فهات حسابك عمّا كان يا ميخائيل. وهات تكهّناتك عمّا سيكون.

لقد جئتَ الناصرة صبيّاً. وها أنت تغادرها والشباب يغلي فيك ويفور. أليس أن وجهك عرف الموسى لأول مرة منذ شهرين؟ وما كان أعذبها تلك الساعة يوم جاء حلاّق المدرسة ليحلق ذقون رفاقك الكبار فاقتربت منه وقلت: «احلق لي من فضلك». وما كان أحلى حمرة الخجل تعلو وجنتيك عندما التفت إليك وقال ساخراً: «وماذا أحلق؟» ثم ما كان أبلغ تلعثمك عندما أشرت إلى زغب تحت ذقنك وفي أسفل عارضيك! لقد بات ذلك الزغب شعراً سويّاً. وقريباً ينبت لك شاربان، ويغدو في إمكانك أن تربّي الشعر على رأسك، وتهندمه حسبما يحلو لك. فقد سئمته مجزوزاً حتى الجذور طوال مدّة دراستك في الناصرة. لا. لست صبيّاً بعد اليوم. إنّك شابّ. ولو عرفت قيمة الشباب لأولمت له وليمة.

Twitter: @ketab_n

ولكن أنّى لك أن تولم الولائم للشباب وأنت لا تزال طفلاً من حيث المعرفة، ومن حيث القدرة على الكفاح في سبيل أهلك وفي سبيل ما تصبو إليه من علوّ شأن في العالم. والعالم بحرٌ هائج يا ميخائيل. وشاسع، شاسع. وما أنت إلاّ قطرة في ذلك البحر. وقطرة زهيدة جدّاً. فهل للقطرة أن تغدو موجة؟ وهل للموجة أن تصبح بحراً؟ هيهات!

وماذا تعرف يا ميخائيل؟ إنّك تعرف شيئاً من تاريخ الناس، وتاريخ كنيستك؛ وتعرف شيئاً عن الأرض التي تعيش عليها وعن الشعوب التي تقطنها. وشيئاً من الحساب وهندسة المسطحات. وتعرف ألفية ابن مالك وعروض الخليل. وتحفظ بعض القصائد لبعض الشعراء من العرب والروس. كذلك تعرف سلّم الموسيقى، وكيف توقّع أوتار الكمنجة وتجرّ القوس على الأوتار؛ وتعرف قواعد اللغة الروسية والكثير من مفرداتها. إنّك تعرف نتفاً من هنا ومن هناك لو جمعتها لما أشعلت ثقاباً، ولا خبزت رغيفاً، ولا ابتاعت إبرة، ولا نقعت غلّة عطشان إلى المعرفة. وأنت عطشان يا ميخائيل. أتراك ترتوي لو أنت سافرت إلى روسيا؟..

عند هذا الحدّ كنت أتوقّف. فالامتحانات لم تُختتم بعد. والنتائج لم تعلن. ولئن كانت جميع الدلائل تشير إلى أنّني

Twitter: @ketab_n

سأكون المختار للدرس في روسيّا، فقد يحدث في اللحظة الأخيرة ما يحمل إدارة المدرسة على اختيار غيري. من يعلم؟

أخيراً انتهت الامتحانات، وفرغ المعلمون من تصحيحها ومن وضع المعدّلات السنوية. وبات الكلّ يترقب إعلان «الحدث العظيم». ولم يطل أن دعانا الرئيس إلى الاجتماع في الردهة الكبرى حيث اصطفّ الطلاب في جانب والأساتذة في جانب. وإذا به يدعوني إلى الوقوف أمامه، ثم يضع يده على كتفي، وبكلمات هادئة، أبوية، اخترقت منّي العظام، يعلن أن المدرسة، مكافأة لي على اجتهادي وحسن سلوكي، قد اختارتني لمتابعة الدرس في روسيا...

لقد تحقّق الحلم. وكان تحقيقه «حدثاً عظيماً» في حياتي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بين عالَمين

ودعت الناصرة وفي قلبي عرس، وفي تلافيف دماغي صور وخيالات ومعلومات ورؤى لم تكن هنالك من قبل. إنها غلّتي من السنوات الأربع الأخيرة في حياتي. وإنّها لغلّة مباركة وذات قيمة. وحسبي منها أنها فتحت لي باب عالم جديد - عالم يختلف أكبر الاختلاف عن عالم أعيش فيه. فالناس هناك غير الناس ههنا. وبلادهم غير هذه البلاد. إنها شاسعة جدّاً وغنيّة جدّاً. ويكفيها أن يحكمها قيصر ترهبه جميع ملوك الأرض. ثم يكفيها أن يكون فيها العمالقة من الشعراء والكتّاب، وأن تكون بأكثريتها الساحقة على المذهب الأرثوذكسي القويم!

ترى أيُسَرّ أهلي عندما أفضي إليهم بخبر «الحدث العظيم» أم يحزنون؟ بل إنّهم سيسرّون. وسيفقأ أبي الحصرم في عين الذي قال له: «إذا طلع من العجرم مسّاس بيطلع من بيت نعيمه شماس». بلى. سيخرج من العجرم منساس. وسيخرج من بيت نعيمه شماس! وستتحدث بسكنتا عن هذا الولد الذي نبت فيها

Twitter: @ketab_n

فما لبثت أن ضاقت به. أما طار منها إلى الناصرة ولمّا يكتسِ بعد بالرّيش ولا اشتدّت قوادمه؟ وها هو يطير بعد قليل إلى أبعد من الناصرة بكثير - إلى بلاد المسكوب!

وأخي الذي في أميركا - كيف يكون وقع الخبر عليه؟ أيفرح لأخيه الأصغر منه بهذا الفوز الذي أحرزه؟ أم تراه كان يؤثر له لو ينضمّ إليه في ديار العمّ سام كيما يتعاونا في تحصيل رزق العائلة وفي رفع شأنها، ورفع كابوس الحاجة عن صدرها؟ إنّ المراسلات بيني وبينه لم تنقطع طيلة إقامتي في الناصرة. لقد مضى عليه في أميركا ستّ سنوات ولم يصب من النجاح ما أصابه البعض من أبناء بسكنتا في مثل تلك المدة، أو في أقلّ منها. إلاّ أنّه بات سنداً كبيراً لوالديه وإخوته. ولولاه لما استطاعوا أن يسبحوا في خضمّ هذا العالم ورؤوسهم فوق الماء، ولا دَين يرعى نتاج أيديهم، ويزرع المذلّة في نفوسهم. إنهم يأكلون لقمتهم بشرف. وليس لأحد أن يحاسبهم في ما يأكلون ويشربون. وإنهم، حيث هم، إن لم يكونوا في المقدّمة فليسوا في المؤخّرة. ومن حقهم أن يكونوا في المقدّمة. ومن واجبي أن أعمل كلّ ما في وسعي لأحملهم إلى المقدّمة. ولكنّ وسعي هو وسع المعلّم في مدرسة. وماذا يستطيع معلّم في مدرسة أن يفعل؟ إنّه يبقى معلّماً حتى يُلَفّ بالأكفان ويودَع القبر...

Twitter: @ketab_n

بمثل تلك الأفكار وشبيهاتها قطعت الطريق بين الناصرة وبيروت. وكانت المدرسة قد اختارت لنا - نحن الذين دربهم يمرّ ببيروت - أن نقطع المسافة برّاً لا بحراً، آناً على ظهور الحمير، وآناً على الأقدام. ولقد قطعناها غير آبهين بطولها، ولا بالوعر من مسالكها، ولا بشمس تموز تشوينا شيّاً.

لم أنسَ ليلة بتناها على الشاطئ اللبناني في خيمة من القصب لعلّها كانت مقهى من المقاهي الصيفيّة أو نحو ذلك. لقد كان عليّ أن أغفو في تلك الليلة حالما وضعت رأسي على الوسادة. فأعصابي مكدودة حتى الإرهاق من شدّة الحرّ والتعب. ودماغي يكاد يضرب عن أيّ عمل. وأنفاس البحر البليلة، وهديره الرتيب، ورقصة القمر والنجوم على أمواجه المتثائبة كان من المفروض فيها أن تكون المخدّر الذي يحملني من عالم اليقظة إلى عالم الأحلام. ولكنها، على العكس من ذلك، كانت المنبّه الذي حرمني طعم النوم ساعات تجاوزت منتصف الليل. ولا عجب. إنها المرّة الأولى أسامر فيها البحر والنجوم والقمر فلا أرضى من السمر بما تسمعه أذني وتبصره عيني.

إني أريد أن أعرف من البحر ما هو، ومن أين مياهه، ولماذا اضطرابه الأبدي، وأين كان قبل أن يكون، وهل هو باقٍ ما بقي

Twitter: @ketab_n

الزمان، وماذا كان يحلّ بالأرض ومن عليها وما عليها لو لم يكن فيها بحور؟ وأريد أن أعرف من القمر والنجوم كيف تعلقت في الفضاء، وكيف تدور ولا تتصادم، ومَن الذي علّقها وأضاءها وجعل لكلّ منها فلكاً تدور فيه ولا تتخطّاه، وما هي غايته منها؟ أصحيح أنّه كان زمان لم يكن فيه بحر، ولا كانت نجوم وقمر وشمس، ولا أرض، ولا شيء مما على الأرض؟ أصحيح أنها خُلقت جميعها من العدم - من لا شيء - بمجرد قول اللّه لها «كوني» فكانت؟ وما هو العدم؟ وكيف لي أن أتخيله أو أن أفكّر فيه وهو الفراغ المطلق الذي لا شيء فيه يحطّ عليه الخيال أو يعلق به الفكر؟ بل كيف يكون العدم حيث يكون اللّه؟ واللّه - كما قيل لي - موجود منذ الأزل وباقٍ إلى الأبد. وإذن فهو لم يخلق الأشياء من لا شيء - لم يحدث الوجود من اللاوجود. بل خلق الأشياء من نفسه - من ذاته - وأحدث الوجود من وجوده.

ولكن كيف خلق اللّه العالم من ذاته؟ وهل كان زمان كان فيه اللّه وحده ولم يكن العالم؟ وماذا كان يعمل اللّه في ذلك الزمان - أي قبل أن يخلق العالم؟ ولماذا خلق اللّه العالم؟

آمنت باللّه...

وأين كان اللّه قبل أن يكون مكانٌ وزمان؟

Twitter: @ketab_n

كان في الأزل، وكان يملأ الأزل.

وما هو الأزل؟

إنّه الزمان الذي لم يبتدئ في زمان.

وإلى متى يبقى اللّه؟

إلى الأبد.

وما هو الأبد؟

إنّه الزمان الذي لن ينتهي في زمان.

وهل الخلق كذلك لم يبتدئ في زمان ولن ينتهي في زمان، فهو أزليّ بأزليّة اللّه وأبديّ بأبديّته؟

آمنت باللّه...

بقيت أصاول بخيالي الفتيّ وعقلي المحدود تلك الأحاجي الكونيّة إلى أن تخدّر عقلي وتنهنه خيالي. فانتقلت على همهمات البحر، ومغامزات النجوم والقمر، ووشوشات النسيم في القصب إلى أحضان مورفيوس، انتقلت وفي داخلي صوت بعيد يهمس: «ولكنه خلق جميل، وبي نهم إلى جماله. ولكنه خلق فيه من السحر والفتنة والإغراء ما لا يقاوم. تبارك مَن سَوّاه...»

عندما بلغنا بيروت عنّ لي، بدلاً من أن أصعد مع المكارين

Twitter: @ketab_n

إلى بسكنتا، أن أزور أوّلاً نسيباً لنا في «معلّقة زحلة» كنت أعرف أنّه يكنّ لوالدي أخلص المودّة، وأعرف أنّه يملك بستاناً كبيراً. و«المعلقة» الواقعة في جانب من سهل البقاع، وعلى السكة الحديد بين بيروت والشام (دمشق)، كانت في ذلك الزمان ملحقة بالولاية. وكانت «الولاية» في قاموسنا الجغرافي والسياسي تعني كلّ ما خرج عن حدود لبنان الصغير أو «الجبل» الذي كان يحكمه متصرّفون مسيحيون، وكان يتمتّع باستقلال إداري وامتيازات كثيرة في ظلّ «الدولة العليّة».

لم يكن الشوق إلى نسيبنا هو الدافع الأوحد الذي ألهمني الذهاب إلى المعلقة. بل كانت، إلى جانبه، الرغبة القوية في السفر بالسكة الحديد. فقد سمعت الكثير عن تلك السكّة، ولكنني لم أكن بعد قد رأيتها عن كثب ولا عرفت كيف يتمّ الانتقال بواسطتها. ومن ثم فقد كان يشوقني أن أعرف من لبناني الحبيب أكثر من الشخروب وصنين وبسكنتا، وأكثر من الطريق الذي يسلكه المكارون بين بسكنتا وبيروت. ولكم سمعت عن سهل البقاع وخصبه ومفاتنه. ولكنني لم أره بعد. وكان يؤلمني أنّه يتبع «الولاية» لا «الجبل».

أنا في حافلة من الدرجة الثالثة - بالطبع. القطار يتوقّل

Twitter: @ketab_n

الجبل على خطين أملسين من الحديد بينهما ثالث مسنّن يقيه الانزلاق إلى الوراء. وهو يلهث من شدّة الإعياء، ولهاثه يرتفع سحباً من الدخان في الفضاء. ودواليبه تقعقع وكأنها تحشرج. إنّه يجري جري المخلّع النشوان. في يدي كتاب روسيّ فتحته لحظة ثم أغلقته مخافة أن يفوتني شيء من روعة المناظر عن جانبي الطريق. على المقعد الخشبي المواجه لمقعدي فتاتان تتغامزان عليّ وتتهامسان، فتقول إحداهما للأخرى باللّغة الروسيّة: «هذا هو». وأسمع ما تقول. فأتظاهر كما لو كنت لم أسمع. ولا أدري لماذا أسرعت دقات قلبي، وارتفعت حرارة دمي، وكانت الفتاة أكثر جرأة مني فما لبثت أن توجّهت إليّ بالسؤال:

«اعذرني. ألست من مدرسة الناصرة؟»

قلت: بلى.

قالت: ألست الذي اختاروه السنة للسفر إلى روسيا؟

قلت: بلى. ومن أين عرفت ذلك؟

فأجابت انّ لها أخاً يدرس في الناصرة، وأنّه رافقها إلى القطار فأبصرني أصعد إلى الحافلة ولكنه لم يتمكّن من مخاطبتي. وهو الذي أخبرها عنّي. وختمت كلامها بقولها: «هنيئاً لك!»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أم ديب

بو ديب بين شقيقتيه في سان فرنسيسكو

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المؤلف (إلى اليسار) وبجانبه نسيب عريضه
ومن خلفهما رفيقان في الناصرة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

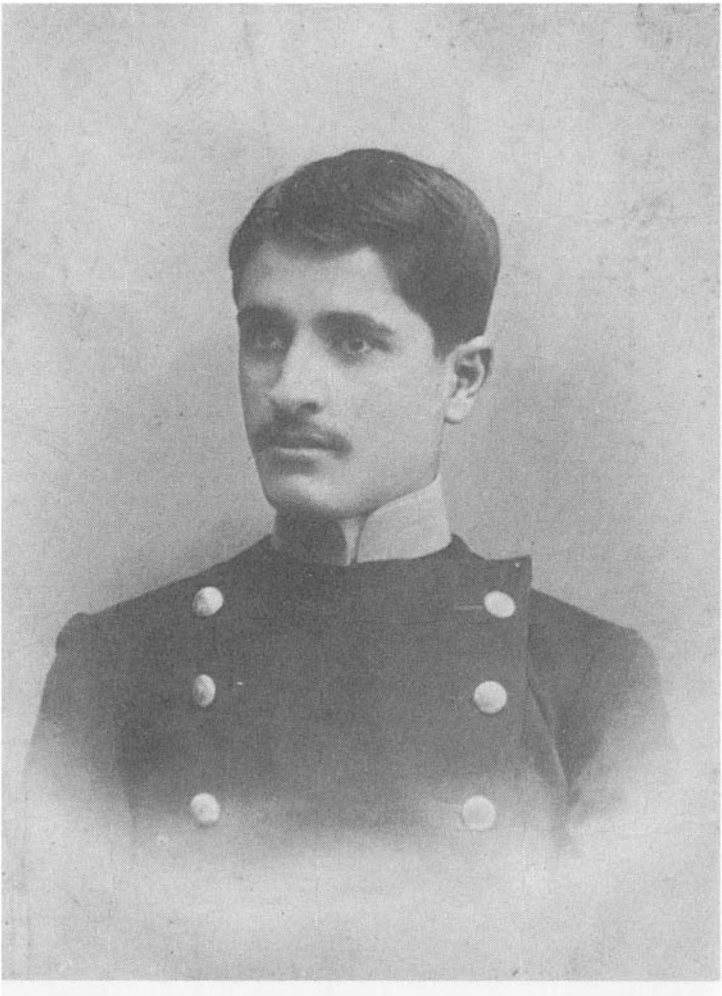

المؤلف في سنته الأولى في روسيا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أَڤرامنكو

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عرفت من الفتاتين أنهما من طالبات دار المعلمات الروسية في بيت جالا بالقرب من القدس، وأنهما من الشام. ودار بيننا حديث طويل تارة بالعربية وطوراً بالروسية. وكانت المرة الأولى أتحدّث فيها إلى فتاتين متعلّمتين وأشعر بالكثير من الاعتزاز لأنّني محور حديثهما وموضع إعجابهما. فرحت أتمنّى لو أنّ سفرتنا لا تنتهي. ولكنها انتهت. وأنا ما جئت على ذكرها ههنا إلاّ لأحدّث القارئ حديثاً عابراً عن الشعور الغريب الذي تولاّني عندما ودّعت الفتاتين في «المعلّقة»، وعندما صفر القطار ليتابع سيره بهما إلى دمشق. لقد اخترق ذلك الصفير المنكر عظامي، ومزّق شغاف قلبي. بل إنّه استلّ قلبي من بين ضلوعي وتركني بدون قلب. فأظلمت عيناي ودنياي، وأحسستني كالفقير المعدم يلعب في حلمه بالجواهر ثم يستفيق ويداه أفرغ من الفراغ. أو كالمسافر في قفر موحش ينبت له بغتة رفيق فيبدّد وحشه وبغتة يختفي.

لو شئت - حتى اليوم - أن أحلّل ذلك الشعور لما استطعت. فقد يكون أن الفتاتين اللتين لم تكونا على شيء كبير من حسن الصورة أيقظتا حاجة هاجعة في كياني إلى مخالطة «الجنس اللطيف» ولو مخالطة بريئة لا ترمي إلى أيّ غاية أبعد من الإيناس والاستئناس. إنها الحاجة إلى بسمة - إلى نكتة - إلى

Twitter: @ketab_n

مداعبة - إلى كلمة مبطنة بأكثر من معنى تأتيني من فم فتاة تتفتّح على الحياة مثلما أتفتح، ولا تدري - مثلما لا أدري - عجائب ذلك التفتّح وأسراره. وقد يكون أن ما أبدته الفتاتان من عظيم الاهتمام بي والإعجاب بالنصر الذي أحرزته في مدرستي أثار نهمي في المزيد من الإعجاب والاهتمام بشخصي. أو قد يكون أنّ تيّاراً كهربائيّاً سرى من دم الفتاتين إلى دمي فغلى وفار. وكان لي في غليانه وفورانه رعشة لذيذة ونشوة ألذّ. وعندما انقطع التيّار انقطع الغليان والفوران. وماتت الرعشة والنشوة. فكان الفراغ الذي أحسست.

ذلك الشعور عينه عاودني بعد يومين عندما شاء نسيبي أن يبالغ في حفاوته بي فدعاني إلى سهرة «عوالم». و «العوالم» في قاموس ذلك الزمان كانت تعني فتيات يغنّين ويرقصن على أنغام «تخت» قد لا تتجاوز قطعه الموسيقيّة العود والقانون والدفّ. جلسنا إلى طاولة بالقرب من المسرح. وما لبث المقهى أن امتلأ بالزوّار، وأن ارتفع فيه رنين الأقداح تساوقه قرقرة النارجيلات، وطقطقة المسابح، وقهقهة الماجنين، وسحب من دخان المدخنين. إنّه لجوّ ثقيل، ثقيل. وإنّي فيه لغريب، غريب.

وبغتة تهتزّ أوتار العود، ثم القانون، فتسري اهتزازاتها في

Twitter: @ketab_n

كلّ قطرة من دمي. وأنسى أنّني في مقهى كان جوّه منذ لحظة يضغط على صدري ويضيّق عليّ أنفاسي. وأستسلم لرنّة الوتر استسلام الرضيع لتهاويد أمّه. إنّني في دنيا كلّ ما فيها خفيف، لطيف. دروبها مفروشة بالورد دون الشوك، وأبعادها بغير نهاية. وإنّها المرّة الأولى أتذوق فيها جمال تلك الدنيا. فلم يتفق لي من قبل أن سمعت عوداً وقانوناً، ولا كنت أعلم أن في نفسي جوعاً إلى الموسيقى مثل ذلك الجوع.

وتبرز بعد قليل على المسرح فتاة في مثل قامة فينوس، وقد تعرّى البعض من جسدها، وتستر الآخر. والذي تستّر كان أشدّ إغراء من الذي تعرّى. وتمضي تتلوّى، وتلوّح بذراعيها، وترسل التحدّي من عينيها ونهديها، ويمضي كلّ ما فيها ينفث الشهوة. وأنوار مصابيح الكاز المتكسرة عليها تزيد في غواية الظلال المتنقلة من رأسها حتى قدميها. فتلتهب الأكفّ بالتصفيق، وتتعالى الهتافات من كل جانب «يا روحي!» «يا تقبريني!» «اللّه معك يا غصن البان!». ويمضي المتفرّجون يتنافسون في رشقها بالعملة الحجر. هذا بـ «البشلك»، وذاك بـ «الزهراوي»، وذلك بـ «المجيدي». ولا يندر أن يجود بعضهم بالليرة الذهب. وأذكر أن نسيبي رمى على المسرح أكثر من ريال مجيدي واحد. لقد كان يحبّ الكأس والكيف

Twitter: @ketab_n

والحسان. وعندما انتهت السهرة كان في حالة من السكر أقلقتني وكلّفتني الكثير من العناء قبل أن أبلغ به البيت. ولقد خرجت من المقهى وفي نفسي فراغ ووحشة، وفي قلبي هبوط كالذي شعرت به عندما ودّعت الفتاتين من الشام قبل يومين.

إنها الموسيقى لعبت بي لعبتها في هذه المرة. وإنها الأنثى كذلك!

عندما علم نسيبي أنّني مسافر للدرس في روسيا على نفقة الجمعيّة الأمبراطورية الفلسطينية ذهب بي إلى خيّاط وأوصاه أن يصنع لي بذلة إفرنجية. وما ان انتهت البذلة ولبستها حتى أحستني أنتقل فجأة من عالم إلى عالم. ما كان أبسط القمباز، وأسلس قياده، وأوفر حشمته! بل ما كان أشدّ وشائج القربَى بينه وبين جسدي! أما هذا البنطلون فما أقلّ حشمته. وهذه الصدرية والسترة ما أكثر أزرارهما وجيوبهما. إنّني في هذه البذلة لأشبه «القراكوز» إلى حدّ بعيد. ومن ثمّ فهي في حاجة إلى قميص خاص، وإلى «قَبّة» منشّاة ومكويّة، وإلى عقدة رقبة. ومن أين آتي بالقميص والقبة والعقدة؟ ومن يكوي لي البذلة والقميص والقبّة وليس في بيتنا مكوى، وأمّي لم تمارس شيئاً من ذلك في حياتها؟

وهان عليّ الأمر بعض الشيء عندما تذكرت أنّ خالي

Twitter: @ketab_n

سليمان، وقد كادت تنفد ثروته الكبيرة في القمار، فتح له متجراً في سوق بسكنتنا. وأن متجره يحوي الكثير من أحدث الأقمشة، ومن القمصان والقبّات. وهو لن يبخل عليّ بما تحتاجه قيافتي الجديدة من تكميلات. ولم أدر أنني كنت على ضلال. وإنّه ليحزّ في نفسي حتى الآن - وخالي بات في غير هذا العالم من زمان - كلما تذكّرت ساعة ذهبت فيها إليه أطلب قبّة فلم يأنف أن يقبض منّي ثمنها. وكان الثمن نصف بشلك!

أمضيت ما تبقّى من الصيف بين أهلي في الشخروب وبودّي لو أحملهم وأحمله معي إلى روسيا. فقد كنت أحاول أن أروي عينيّ وأشبع قلبي من وجه صنّين، ومن وجوه إخوتي ووالدي، ولكن بغير جدوى. وآن أوان السفر فودّعتهم وهبطت بيروت حيث بدلت بالطربوش برنيطة من القش القاسي كانت مبعث عذاب لي طيلة الطريق لأنّ قياسها كان أصغر من قياس رأسي. فكانت تقع أو تطير عنه لأقلّ هزّة أو نسمة. ولولا خيط فيها علّقته بعروة سترتي لفقدتها حتى قبل أن أركب الباخرة. وما كنت أدري أن البرانيط تُصنع من مختلف القياسات.

كانت الباخرة التي أقلّتني من بيروت إلى أوديسا روسية. ولولا أنّ «جولي» كانت قد عوّدتني ركوب البحار وجعلت منّي

Twitter: @ketab_n

«رجل أسفار» لآلمتني تلك السفرة التي طالت اثني عشر يوماً برغم أنها فتحت لعينيّ بلاداً غاية في الروعة. فبحر إيجه والجزر المنتشرة فيه، والدردنيل، ومرمرا، والبوسفور بشاطئيه الساحرين، واسطنبول ثم البحر الأسود - كل هذه كانت تبعث في نفسي أحاسيس جديدة وخليطاً من رسوم أقوام وأحداث وبلدان درست عنهم في التاريخ والجغرافيا. إن الماضي يعيش من جديد في ذهني وفي ناظريّ فيسلخني عن حاضري. وإنّ ما نثرته يد اللّه من فتنة في البحور والخلجان والمضايق والشواطئ التي أمرّ بها ليشغل لبّي. ولكن إلى حين. ففكري لا يبرح يتلفّت إلى صنّين وإلى الذين تركتهم في سفحه.

لذلك كان أول عمل قمت به من بعد أن استقرّ بي المقام في مدرستي الجديدة هو تحبير رسالة اضافية إلى أهلي أصف لهم فيها رحلتي بشيء من الإسهاب. ولقد نجا من التلف والضياع قسم من تلك الرسالة. وهو الذي أتحدث فيه عن الليلة الأخيرة التي أمضيتها في الشخروب، والصباح الذي تلاها قبل الوداع. وها أنا أثبت فقرات منه بدون أقلّ تصحيح أو تحوير:

«أذكر تلك الليلة الأخيرة فيغدرني الدمع وينسكب. أذكر تلك الساعة التي كنت فيها أتأمّل إخوتي الأصاغر النائمين في

Twitter: @ketab_n

مهاد الراحة واللذّة يغطّون غطيطاً ألذّ لقلبي من نقر الدفوف ونغمات الأعواد، غير عالمين أنّ أخاهم سيتركهم غداً مسافراً لبلاد بعيدة. سيتركهم بعد أن يتركوا في قلبه جمرة لا تطفيها إلا نظرة منهم عند قبلتهم ولقائهم... نوماً هنيئاً أيها الأحبّاء. ناموا بحفظ باريكم وانموا تحت ظلّ والديكم الحنونين. ماذا يشغل أفكاركم؟ أفراق وتلاق أم وداع وبكاء؟ أم تحصيل رزق واجتهاد؟.. فاسرحوا وامرحوا ما دام العيش صافياً لكم قبل أن تبرزوا للجهاد في ميدان هذه الحياة.

«وهكذا قضيت ذلك الليل... وأنا أقلّب أنظاري من شخص إلى آخر، من شيء إلى شيء، قائلاً عند كل نظرة «هذه هي الأخيرة»... لم يعتّم أن نشر الصباح رايته البيضاء التي ظهرت في عينيّ حينئذٍ أسود خافية الغراب الأسحم... فما ضحك الصبح عن ناجذيه حتى قامت تلك الوالدة الحنونة تعدّ زاداً لابنها المقلع في الطريق قائلة: «خذ أيها الحبيب! لو كنت قادرة أن أزوّدك بالقلب والروح لما تأخّرت».

«قرب الوقت المنتظر. ودقّت الساعة الرهيبة... فقام ذلك الوالد الحنون يقبّلني وألثم يديه، والدمع يمنعني عن الكلام. فكنت في اليقظة كأني في منام. يكلمني وأنا لا أعي... ثم جاءت تلك

Twitter: @ketab_n

الحنونة والعبرات تخنقها تودع ابنها... فأكبّت على وجهي تقبّله من كلّ الجهات قائلة عند كلّ قبلة: «دعني أقبّلك مرّة أخرى»... ثم تقدمتُ نحو أولئك الإخوة الذين لم يزالوا نياماً على مهد الهناء يغازلون في أحلامهم الملائكة. فرأيتهم أقرب للسماويين منهم للأرضيين. وتقدمت لأصغرهم مودّعاً بقبلات تعادل خطّ الاستواء بحرارتها قائلاً: «وداعا أيّها النسيب. وداعاً يا حبيب الروح وروح الحبيب. وداعاً أيها الملاك الطاهر. وداعاً يا حبّة الفؤاد! أتعرف لماذا يقبّلك أخوك؟.. أقبلك قبلة الوداع، قبلة لن تراني بعدها لمدّة يعلم اللّه كم تكون... اليوم ينزح عنك مَن كان يصطاد لك «ديك» و «عصّيل» (عصفور).»

«ثمّ انتقلت إلى الأخت النائمة وقبّلتها مودّعاً إياها بمثل تلك الكلمات. وبعدئذ دنوت من النجيب الذي شعر بأنّ أخاه ناءٍ عن الأوطان في هذا الصباح فقام يودّعه. وبروحي تلك الكلمات التي قالها عندما قبّلته: «اللّه يسهّل لك!»

«فخرجت حينئذٍ بمعية العزيز هيكل قاصداً السفر وتلك الحنونة تتبعني طالبة مني قبلة أخيرة... فوقفت الوقفة الأخيرة ورمقت تلك الأنحاء جميعها رمقة تُقرأ فيها عبارات كتبتها العبرات على صفحات الخدّين بقلم الوداع لا يقرأها إلاّ من لوّعة

Twitter: @ketab_n

الوداع مراراً. اتجهت أخيراً نحو صنّين الواقف أمامي كبطل يراقب حركات الكون وقلت: «وداعاً أيها القائد الذي حنّكته الأيام وبيّض لمّته كرور المحن... أعرني من ثلجك ماء يبرّد النار الملتهبة في داخلي، ومن قلبك صلابةً لأقوى على فراق هذه الأرجاء... وداعاً أيها الشخروب. أنت لن تراني بعد. وإنّما أنا سأظلّ أراك في الأحلام زماناً طويلاً...» وهكذا انطلقنا وأنا أودّع كل حجر، كل صخرة، كل شجرة بمفردها... إلى أن ظهرت تلك الجدّة مع خرافها تودّعني بعينين دامعتين. فقبّلتني وقبّلت يدها قائلاً في ذاتي: «ليتني كنت خروفاً أرعى الأعشاب في هذه الأرض ولا إنساناً يلوّعه فراقها كلّ سنة بجمرات أحرّ من جمر الغضا...»

ليغفر القارئ لكاتب الرسالة انجرافه ببلاغة الأقدمين في قوله «أحرّ من جمر الغضا» و «ضحك الصبح عن ناجذيه» و «خافية الغراب الأسحم». فالمهمّ أن يقرأ قلبه لا «بلاغته» عندما أدار ظهره لصنّين ووجهه لأرض غير أرضه، وقوم غير قومه، وهو لا يزال دون العشرين بأربع سنوات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بولتافا POLTAVA

١٩٠٦ - ١٩١١

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في السّمِنار

«السّمنار الروحي» مدرسة ثانوية، أو هي فوق الثانوية بقليل. يمتدّ برنامجها لستّ سنوات، الأربع الأولى منها مكرّسة للدروس العلمانيّة وبعض المواد الدينيّة. والاثنتان الأخيرتان للطقوس والعقائد الكنسية. وهذا النوع من المدارس في روسيا كانت تنفق عليه وتستقلّ بإدارته الكنيسة الممثلة في «السينودوس» أو «المجمع المقدّس». فكان لكلّ أبرشيّة في كلّ ولاية «سمنار» يتثقف فيه أبناء رجال الدين في الدرجة الأولى. حتى إذا اختار أحدهم أن ينصرف إلى خدمة الكنيسة كانت له المؤهّلات للقيام بوظيفته خير قيام.

بالإضافة إلى السمنارات في الولايات كانت هنالك أربع أكاديميات روحيّة في روسيّا، مدّة الدراسة فيها أربع سنوات وجلّها مكرّس للدروس اللاهوتية العالية. والدخول إلى تلك الأكاديميات كان مُباحاً بغير امتحان للمتخرّجين من السمنار. والمنح التي كانت تخصصها الجمعية الفلسطينية لطلاّب دار

Twitter: @ketab_n

المعلمين في الناصرة كانت تخوّلهم الدرس ستّ سنوات في السّمنار وأربعاً في الأكاديمية، بما في ذلك المأكل والمشرب والكساء والمأوى وستّة روبلات شهريّاً بمثابة «خرجية».

كان من نصيبي أن دخلت السمنار في «بولتافا». وهي المدينة التي في جوارها وقعت المعركة الحاسمة بين بطرس الأكبر وكارلوس الثاني عشر الاسوجي، فكان النصر فيها للروس، وهي عاصمة ولاية شاسعة تحمل اسمها وتقع في قلب أغنى منطقة في روسيّا. واسم تلك المنطقة في لغة أبنائها «أوكراييّنا»، وبالروسية «أوكراينا»، أمّا «أوكرانيا» فتحريف عربي. وكان من حسن حظي أن سبقني إلى بولتافا ميخائيل اسكندر من حمص. وقد جئت على ذكره. لذلك لم تروّعني وحدتي، ولا هبط قلبي إلى أخمصيّ عندما وقف بي الحوذي أمام باب المدرسة، وعندما نزلت من العربة لأقف على الرصيف وقفة الضائع. وفي يمناي حقيبتي، ويسراي تمسك ببرنيطة القش على رأسي، وأسناني تكاد تصطك من شدة البرد. لقد كان الطلاّب يدخلون المدرسة ويخرجون منها في معاطف من الجوخ السميك. وكنت لا أزال في البذلة التي نفحني بها نسيبي في معلقة زحلة. ونسيت أنّ أيلول في بيروت هو غير أيلول في بولتافا. ولعلّني ما نسيت. بل لم يكن في

Twitter: @ketab_n

مستطاعي أن ألبس غير ما لبست.

لم يطل أن أقبل عليّ ميخائيل اسكندر. فتصافحنا وتعانقنا. وفي الحال لبستني روحي ولم أبق أبالي ببرنيطة القشّ وبالبرد يعضّ يديّ ورجليّ ويتغلغل في كل مسامّ بدني، ولا بالعيون الكثيرة التي كانت تحدجني من كل جانب. لقد كنت، وأنا مفتح العينين، في حاجة إلى مَن يدلّني على مداخل المدرسة ومخارجها - على غرف المنامة وسريري فيها، وعلى غرفة المائدة، وغرفة الدرس، وعلى المسؤولين الذين لم يكن بدّ من المثول أمامهم. فكان لي في رفيقي من الناصرة خير الدليل. وما هي إلا أيّام حتى تلقّفني دردور الحياة المدرسيّة، فإذا بي واحد من خمسمئة طالب أو أكثر، ألبس مثل ما يلبسون، وآكل مما يأكلون، وأسعى لكسب المعرفة من الكتب ومن أفواه أساتذتي مثلما يسعون. ولكم راقني أن أراني في بذلة من الجوخ الأسود، على سترتها صفّان من الأزرار المعدنيّة، وعلى كل زرّ صورة النسر ذي الرأسين - شارة الأمبراطورية الروسية!

في جملة الثياب التحتانية التي قدمتها لي المدرسة كانت لفّتان من الكتّان البلدي بعرض الكفّ أو أعرض قليلاً، وبطول يقارب الذراع. وهاتان اللفّتان لم أفهم «محلّهما من الإعراب» -

Twitter: @ketab_n

أي الغاية منهما. وعندما سألت رفيقي عنهما قال إنهما تقومان مقام الجوارب. فتُلفّ بهما الرجلان لفّاً من رؤوس الأصابع إلى ما فوق الكاحل بقليل. قلت: وهل هي أدفأ من الجوارب؟ قال: ما أظن. ولكنها لا تتلف بسرعة كما تتلف الجوارب. ولا هي تكلّف بعض ما تكلفه الجوارب. ففيها توفير كبير. - قلت: وهل أنت كذلك تلبسها؟ - فكشف عن رجليه ليريني أنهما ملفوفتان بالكتان. ولكنني عندما حاولت أن ألفّ رجليّ كرجليه خانني جلدي وآثرت أن أبقى أميناً للجوارب مهما كلّفتني. ولقد علمت فيما بعد أنّ جميع الفلاّحين والعمال في روسيّا، وقسماً كبيراً من الطلاّب والطبقة المتوسطة الحال كانوا يستعيضون عن الجوارب بمثل تلك اللفائف.

لا. لا. سأحاول أن أجاري الروس في كل شيء؛ سأحاول أن أتكلّم لغتهم كما يتكلمون، وأن أتخلّق بأخلاقهم، وأسير على تقاليدهم وعاداتهم، وأغني أغانيهم، وأرقص رقصاتهم، وأتفهم مشكلاتهم، وأنزع نزعاتهم. ولكنني لن أستعيض عن الجوارب بالـ «بورتيانكي»...

* * *

انقضى على وجودي في السّمنار شهر وبعض الشهر

Twitter: @ketab_n

وأستاذ المعاني والبيان لم يوجّه إليّ سؤالاً واحداً. حتى بتّ أعتقد أنّ اسمي غير مسجّل عنده، أو أنّه، شفقةً منه عليّ لأني غريب، لم يشأ أن يحرج موقفي فيسألني وليس واثقاً من مقدرتي على الجواب. إلى أن كان يوم دخل فيه الصف. وكان الدرس يدور حول «الأسلوب» في الإنشاء. فسأل أحد التلاميذ - وكنّا نحو الأربعين - أن يعرّف «الأسلوب». فلم يحسن التعريف. وسأل الثاني والثالث حتى آخر الصف فلم يعجبه ولا جواب. وعندما لم يبق غيري توجّه إليّ بسؤاله، ولكن بشيء من التردّد، فأجبته جواباً نال رضاه، بل وإعجابه. حتى إنّه راح يؤنّب التلاميذ الروس بقوله إنّه من العار عليهم أن يبزّهم في درس لغتهم تلميذ غريب عن لغتهم. وكان أن وضع لي علامة ٥ وأن مضى العام كلّه ولم يوجّه إليّ في الصفّ سؤالاً غير ذلك السؤال. ثم كان أن أصبح صديقاً لي وأن راح يدعوني إلى سهرات «النادي الأدبي» الذي كان قد ألّفه لطلاّب الصفوف العليا رغبة منه في إثارة اهتمامهم بالأدب وشؤونه، وذلك بالمناقشات التي كانت تجري في النادي حول هذا الأديب أو ذلك الأثر الأدبي - لا فرق بين روسي وأجنبي.

لقد كان من ذلك الحدث التافه في ذاته أنّ رفاقي أخذوا

Twitter: @ketab_n

ينظرون إليّ نظرة فيها من الاعتبار والتقدير ما لم تكن توحيه إليهم كلمة «عربي». فالعربي، في اعتقادهم، هو ابن الخيام والبوادي، ورفيق الجواد والبعير، وخدين السيف والرمح. أما لبنان فلم يكن يعني عندهم شيئاً. إلاّ إذا قلت لهم إنّه يتاخم الأرض المقدّسة. وأكثرهم لم يكن يصدّق أني قادم من بلد فيه الجبال العالية، وفيه الثلج والزمهرير. فقد كانوا يتوهّمون أنّ كلّ ما هو عربيّ أو يمتّ إلى العرب بصلة لا يمكن أن ينبت إلاّ في الصحارى حيث الشمس تصلي الناس ناراً حامية في الصيف وفي الشتاء، وحيث لا شجر ولا ماء.

وأنا في زحمة الدروس وزحمة المؤثرات الجديدة وهضمها، إذا بخبر يأتيني من أخي الأكبر أن أخانا هيكل قد انضمّ إليه في «والا والا». فكان للخبر مثل وقع الصاعقة عليّ. لماذا لم يطلعني هيكل على رغبته في السفر إلى أميركا قبل مغادرتي لبنان؟ لعلّه لو فعل لاقنعته بالبقاء إلى جانب والده ووالدته وإخوته الصغار وجدّته. وكيف يترك والده يقوم وحده بأشغال الشخروب الشاقّة؟ أم هي تلك الأشغال عينها دفعته على السفر؟ بلى. بلى. والهف قلبي عليه! لقد أضناه أن يهدر شبابه في مصارعة القطرب والعوسج والصخر، وفي مداراة دودة القزّ، ليظفر «بخبزه

Twitter: @ketab_n

الجوهري». ودم الشباب فيه يأبَى أن يكتفي من العيش بالرّغيف والقميص والسقف. إنّه يطمع في الخير الوفير، والجاه العريض. ومن حقّه أن يطمع.

اللّه، اللّه! أين كنّا، وأين صرنا، وكيف تشتّتنا! أيعود الشمل فيلتئم؟ أم أنّه مقضيّ علينا، كلّما شبّ واحد منّا عن الطوق، أن نضرب في الأرض شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وأن لا يبقى لنا من العشّ الذي فيه نقفنا ومنه درجنا غير الرسم والذكرى؟ لا. لا. سنعود إلى بسكنتنا. سنعود إلى الشخروب وصنّين. وإني لأعاهد نفسي وإخوتي ووالديّ، وأعاهد بسكنتا والشخروب وصنّين على ذلك. وسأعمل كلّ ما بوسعي لأكون عند حسن ظنهم بي.

ولكنني اليوم في عالم يعجّ بشتى المغريات. وبي نهم هائل إلى التهام كلّ جديد فيه وجميل. بعض رفاقي يلعب الكمان أو القيثار أو المندولين أو «البلالايكا» فيتحلّق حولهم ذوو الأصوات الرخيمة ويمضون ينشدون أغانيهم الأوكرايينية الخلاّبة. إني أريد أن أعزف مثلما يعزفون، وأنشد مثلما ينشدون. وبعض رفاقي يحفظ الكثير من نظم كبار الشعراء الروس والأوكرايينين ويجيد إلقاءه. وأنا أريد أن أحفظ فوق ما يحفظون، وأن ألقي خيراً مما

Twitter: @ketab_n

يلقون. بل أنّني أريد أن أنظم الشعر. وأريد أن أكتب القصّة. وأريد أن أؤلّف المسرحيّة وأن أتقن فنّ التمثيل من بعد أن زرت المسرح في بولتافا لأول مرة وسمعت ورأيت كيف تكون التمثيليات وكيف يكون التمثيل. وماذا أقول في «الأوبرا» وفي «الباليه»، وفي حريّة التخالط المطلقة بين الجنسين، في البيت، وفي الشارع، وفي البرية؟

إنّي وقد بهرتني هذه السّعة في حياة الفكر والقلب والجسد، فتكشفت لي بشاعة الضائقة التي تعانيها بلادي، أصبحت أشعر كمن يحاول اغتراف البحر بحفنة، أو كالعديم وقع على سلّة من التين - حسب تعبير العامّة. فكان أن ابتعت كمنجة ورحت أتمرّن عليها بإشراف معلّم كان يأتينا ساعتين في الأسبوع. ولكنّ فرحي بها لم يطل أكثر من بضعة شهور. فقد طلبتها ذات يوم ولم أجدها في بيتها. لقد هجرته إلى بيت غريب. ولعلّ اليد التي انتشلتها منه كانت أحقّ بها من يدي. أو لعلّها كانت يد مقامر فرغ جيبه من الحظّ والمال فرأى أن يملأه من جديد بثمن كمنجتي المتواضعة. أو لعلّ كمنجتي أدركت أنها أعجز من أن تخلق منّي موسيقاراً فراحت تفتّش عن مواهب غير موهبتي. وكيفما كان الأمر، فسرقة تلك الكمنجة كانت نهاية

Twitter: @ketab_n

حلم من أحلامي العِذاب. فأنا من بعدها ما حاولت أن أغتصب لي مقاماً بين أسياد القوس والوتر.

ثمّ كان من نهمي في اقتناص كل جديد أن تعلّمت الرقص. ولذلك حكاية لا بأس من سردها ههنا:

كان من عادة المدرسة أن تحيي حفلتين راقصتين في السنة - في الشتاء وفي الربيع. وكانت بالقرب من مدرستنا مدرسة للإناث تدعى «مدرسة الأبرشية». وهي مدرسة داخلية تضمّ، في الغالب، بنات رجال الدين في ولاية بولتافا. وطالبات تلك المدرسة كنّ في طليعة المدعوّات إلى حفلاتنا. مثلما كان طلاّب مدرستنا في طليعة المدعوّين إلى حفلاتهنّ.

وكانت حفلة الشتاء في السنة الأولى من سنواتي في السّمنار، وإذا بيهونا الكبير، وقد دُلكت أرضه الخشبية بالشمع فبات المشي عليه كالمشي على البلّور المصقول، يبدو وكأنّه في زهو الربيع. وإذا به يموج بالشبان والصبايا. ثم إذا بالموسيقى العسكرية تنفخ بمختلف آلاتها النشيد الامبراطوري: «يا ربّنا احفظ القيصر قوياً مطلق السلطان. ألا احكم لمجدنا، واحكم رعباً لأعدائنا، أيها القيصر الأرثوذكسي. يا ربّنا احفظ القيصر!» وإذا بالموج يتجمّد بغتة كأنّه قطعة واحدة. وينتهي النشيد فيُسمع

Twitter: @ketab_n

صوت يأمُر الجوقة الموسيقية أن تنفخ «الفالس». إنّه صوت مدير الحفلة أو الـ Dirigeur الذي له وحده الحقّ في أن يأمر الموسيقى. فتبدأ، ويأمرها فتتوقف، وله الحقّ في فرض هذه الرقصة أو تلك على الراقصين. وأمره أبداً مطاع. وما إن يرتفع صوت المدير وتنفخ الأبواق وتهدر الدفوف حتى ينبري الشبان والصبايا يدورون أزواجاً في حلقة طويلة، واسعة، تمتدّ بطول البهو وعرضه.

وقفت كالضائع في زاوية من زوايا البهو الكبير أرقب حركات الراقصين، وأسمع وشوشاتهم وقهقهاتهم، وأحسّ ثورة الشباب في وجناتهم وعضلاتهم. والموسيقى تعبث بأعصابي وأفكاري ودمي. فتغمرني موجة من الوحشة القاسية، ومن الحزن على نفسي. إنّ كلّ ما بي يصيح عالياً: لماذا أنت وحدك في هذه الزاوية؟ لماذا لا تكون لك رفيقة تدور وإيّاها في هذه الحلبة التي يملأها الشباب الغافل عن كلّ شيء إلاّ عن جوعه إلى الحبّ، إلى الذوبان في وهج بسمة أو ضمّة، إلى التّلاشي في نبضة أو قبلة، أو إلى الاندفاع اللامبالي في موكب ربيع الحياة كيفما اتّجه، وحيثما طاب له أن يضرب خيامه؟

راح القتام بتفاقم في عينيّ، وراحت الوحشة توغل في نهش قلبي كلما ازداد صخب الموسيقى، وحفيف الأرجل،

Twitter: @ketab_n

وهمس الراقصين وغمزهم. وبالأخصّ من بعد أن اقتربت منّي كاعب شقراء. وبمنتهى اللطف طلبت إليّ أن أراقصها. فاعتذرت لأنّني لا أحسن الرقص. وعبثاً حاولت أن أجد ما أحدّثها به غير الاعتذار. لقد فرغ رأسي بغتة من كلّ موضوع، وبات لساني غريباً في فمي. فانْصَرَفَتْ عنّي آسِفة، وبقيت وحدي أسند الحائط وأحسّ كأنّه - هو الآخر - يهرب منّي.

وانتهت السهرة، وأويت إلى فراشي، وفي داخلي صوت يردّد بغير انقطاع: سأتعلّم الرقص! وكان أن تعلمت الرقص، وبرعت فيه إلى حدّ أنّني لاقيت إقبالاً باهراً من قبل الصبايا في حفلة الرّبيع. فما كان من طالبات «مدرسة الأبرشية» إلاّ أن اخترنني بالإجماع مديراً لحفلتهنّ الراقصة في العام التالي. وقد حسبت ذلك في حينه - وحسبه رفاقي - شرفاً كبيراً لي ونصراً مبيناً. ولكنني ما لبثت أن زهدت في الرقص وفي كلّ ملاهي الشباب وعبثه كما سيتبيّن لك من اليوميّات التالية. وهي يوميات واظبت على تدوينها باللغة الروسية ابتداء من ٢٣ آذار ١٩٠٨ وحتى ٢١ نوار ١٩٠٩ .

ولكم سرّني بعد عودتي من المهجر أن أعثر عليها بين القليل الذي احتفظ به أهلي من آثاري في روسيّا. أما الكثير فقد ضاع.

Twitter: @ketab_n

هذه اليوميّات تملأ نحواً من ٧٥٠ صفحة بخط يدي. ولولا خوفي من أن يتضخّم هذا الكتاب فوق ما أريده لنقلتها بحذافيرها. إلا أنّني سأختار منها ما يساعد القارئ على تكوين صورة صادقة للشاب الذي كنته في ذلك العهد، ولن أراعي في اختياري إلا الصّدق، وإلا الغاية الأساسية من وضع هذا الكتاب. وهي أن أسهّل للقارئ، جهد المستطاع، مرافقتي في كلّ طور من أطوار حياتي. فأنا أحكي حكاية عمر لا بدّ أن يتشابه وأعماراً كثيرة في جهات كثيرة. ولولا ذلك لما كان خليقاً بأن يُكتب عنه.

Twitter: @ketab_n

من يومياتي

٢٣ آذار سنة ١٩٠٨ :

عزمت، في النهاية، أن أحقّق الفكرة التي أخذت تلاحقني وتقلقني من زمان. وهي أن أدوّن يوميّاتي. وإني لأعترف بأن الذي عجّل في تحقيقها هو أنّني طالعت يوميات «نيكيتن[1]» فكان لها أعمق الأثر في نفسي. حتى إنّني بقيت أسبوعاً كاملاً بعد مطالعتها لا أفكّر إلاّ في امر واحد وهو: لماذا لا أقتدي بنيكيتن ولو في كتابة اليوميات؟ لعلّني، لو فعلت، لاكتسبت المقدرة على التعبير عن أفكاري بطلاقة وحريّة، واكتسبت المرونة والسلاسة في الأسلوب.

... ما الذي تتعطّشين إليه يا نفسي، والذي إليه تتوقين؟ إنّك تتعطّشين إلى مجد الكاتب وحظّ الشاعر... وأيّ الناس لا

(١) شاعر رقيق جداً، توفي في أواسط القرن الماضي. وكان هو الآخر من طلاب إحدى السمنارات. وقد أصدر كتاباً بعنوان «يوميات طالب في السمنار».

Twitter: @ketab_n

يطمع في أن يكون له قلم يتحكّم في أفكار الناس، أو يتلاعب بأفئدتهم إذا ما هو سال بالشعر الرقراق؟

... أطالع في هذه الأيام «الشيطان» وأشياء أخرى من نظم لرمونتوف. يا له من شعر! يا لها من نفس سامية! إن جبال القفقاز لتبدو في نظمه أكثر روعة مما هي في الطبيعة... لو كنت شاعراً لغنيت فتنة محاسنك يا لبنان، يا مهد صباي وقبلة أفكاري. أجل

لَغَنّيت شماريخك البيض
وأغوارك الساحرة
حيث لي بيت وأهل.
وحيث الأرز يخبر عمّا كان،
والجداول تتدفّق فضة،
والعيش طيّب في بساطته،
والجمال لم تشوّهه يد الإنسان[1].

٢٤ آذار:

... أمر عجب! إنّ الشعر في الأيام الأخيرة يستأثر بكل

---

(١) الأسطر السبعة الأخيرة وردت شعراً في الأصل. وقد ترجمتها نثراً. وهي أول محاولة شعرية لي باللغة الروسية.

Twitter: @ketab_n

وعيي ويركّز كلّ أفكاري على نقطة واحدة. ومحاولاتي الأولى تبعث الأمل بالنجاح... وإنّي لأعجب لهذا الدفق من النشاط الذي أخذت أحسّه منذ أن باشرت تدوين يوميّاتي. فأنا أقبل على كتابتها إقبال العطشان في القفر على نبعة من الماء. إني أريد أن أكتب وأكتب بغير انقطاع. إلا أن التهاباً خطراً في عيني يكرهني على الاختصار.

... أنهض باكراً. ولكن لا بقصد الاستعداد للدروس التي بتّ لا أعيرها كبير اهتمام، على نقيض رفاقي الذين لا يفارق كتاب الدرس أيديهم. كان زمان كان يهمّني فيه شرف الأوليّة في صفّي. وكان لي ذلك الشرف في الناصرة وفي سنتي الأولى هنا... أما اليوم فإني لا أحسد أحداً إلا الذين عيونهم تمكنهم من المطالعة حتى الشبع... فأفتّش عن موضوع للكتابة أستطيع أن أغرق فيه بكليتي وأن أكرّس له كلّ اوقات فراغي بحيث لا تضيع منها دقيقة واحدة.

٢٧ آذار:

أعدت «لرمونتوف» إلى المكتبة منذ يومين. للّه كم حرّك هذا الشاعر في داخلي من أحاسيس، وكم أثار من أفكار وأحلام! ولأنّني لم أجد في المكتبة مجلّداً آخر من منظوماته آثرت أن

Twitter: @ketab_n

أخرج منها من غير أن أستعير أيّ كتاب. لكنني عدت فأخذت كتاباً لفنّان آخر من كبار رجال القلم هو كتاب «الحرب والسلم» لتولستوي، ولم أباشر مطالعته بسبب الالتهاب المزعج في عيني... منذ أن قرأت «لرمونتوف» تولّتني رغبة لا تُقهر في نظم الشعر... سأمضي حيث تدعوني نفسي. سأمشي في الطريق الذي ما برح يغريني منذ صباي الباكر... إنّه طريق الأدب. وإنّي له بكليّتي...

اليوم كانت في كنيستنا خدمة طويلة من خدمات الصوم الكبير. ولكنني، بدلاً من أن أذهب إلى الكنيسة، ذهبت مع «أليوشا» و «بوريا» - وهما رفيقان ودودان - لعند «ناحوم». وناحوم هذا رجل يهودي يملك حانوتاً على الزاوية مقابل المدرسة حيث يتعاطى بيع بعض الحلوى والكازوز والحليب وما أشبه. وإليه تتسرّب آخر «كوبيكا»[1] من جيوب طلاّب السمنار، وفي جملتهم جيبي. وحانوت ناحوم يغصّ بعض الأحيان بالطلبة إلى حدّ أنّك لا تجد فيه موطئاً لقدم. وأراني قد أصبحت من زوّاره المدمنين. فكأن ما كنت أملك من صلابة في الإرادة قد تركني من بعد أن توثّقت الصداقة بيني وبين الرفيقين المذكورين.

... أفقت صباح اليوم أبكر من المعتاد. ومن بعد أن راجعت

(١) أصغر قطعة نقدية في روسيا. يقابلها عندنا القرش. والروبل مئة كوبيكا.

Twitter: @ketab_n

الدرس في التاريخ خرجت و «أليوشا» لنتنشّق هواء الصّباح المنعش... كان رفيقي يحدّثني في أمور جدّية، وكان يتنبأ لي بالمجد والشهرة في المستقبل. وبالطبع، لن أعير تنبّؤاته اهتماماً كبيراً...

... تمرّ بي أيام أدخل فيها الصفوف من غير أن أكون قد ألقيت حتى نظرة على الدروس المعينة للمذاكرة... إنّ الاحمرار في عينيّ يزداد بسبب النور الضئيل الذي يرسله إلينا من السقف قنديل الكاز. لأتوقف عن الكتابة. فلغط رفاقي لا يسمح لي أن أستجمع أفكاري. والأهمّ من ذلك أن الموضوع الذي بدأت بنظمه لا يترك لي مجالاً للتفكير في أيّ موضوع غيره...

٢٨ آذار:

... كان غياب الرقيب «سافكا» عن المدرسة اليوم سانحة اهتبلها الكثير من الطلبة للتغيّب عن الكنيسة. وكنت في جملة المتغيبين... آه سافكا سافكا! لست أدري لماذا أحتقرك إلى هذا الحدّ. أهو لأنّك، بسبب عدم مواظبتي على الكنيسة، هدّدتني مرّتين بأن «تردّني إلى فلسطين»؟ أم هو لأنّني أراك خلواً من الشعور الإنساني؟ أم هو لأنّك لا ترى في الحياة وظيفة أشرف وأسمى من التجسّس على الطلبة، ثمّ من الوشاية بهم إلى الإدارة كيما تخفّض علاماتهم في السلوك، وكيما ينتهي التخفيض

Twitter: @ketab_n

بطردهم من المدرسة؟.. كم كنت أود أن أحبّك. ولكن قلبي لا يطاوعني. وكم كنت أودّ أن أحترمك. ولكنني لا أعرف شيئاً فيك جديراً بالاحترام...

حاولت أن أتهرّب اليوم من زيارة ناحوم، ولكنّ الجوع كان أقوى منّي... الطقس الدافئ يبشّر بقدوم الربيع الذي ننتظره بفارغ الصبر... ليس يشغلني اليوم شيء على قدر ما يشغلني الموضوع الذي بدأت بنظمه. إنه يستأثر بكلّ حماستي.

أوّل نيسان:

دخلت مستشفى المدرسة أمس عند الساعة الثالثة بعد الظهر من جرّاء دمّل هائل نبت في خدّي الأيسر فكاد الورم يغمض عيني. أنظر إلى وجهي في المرآة فأقشعرّ من هول المنظر... وها أنا في هذه الحالة أكتب يوميّاتي هرباً من البطالة، وأكتب بمنتهى اللذّة... بالقرب من الشباك طالبان من الصف الأوّل يتجادلان بحرارة حول رواية للكاتب «بيسمسكي» - أحدهما يطري الرواية والآخر يذمّ.

... هذه الجدران العارية؛ وهذه الأسرّة القاسية وإلى جانبَ كلّ منها طاولة عليها الضمادات والعقاقير؛ ثم هذه الجبب الرمادية التي يلفّون بها المرضى في المستشفى - كل ذلك يجلب

Twitter: @ketab_n

إليك السأم والضجر. إلاّ إذا تمكّنت أن ترحل بخيالك بعيداً، فتسيح في عالم غير الذي أنت فيه. ... طبيبنا رجل متفلسف، وهو يحبّ أن يتحدّث إليّ في شؤون الشرق - في القوانين والطقوس والعادات والمعتقدات، وفي اللغة والأدب. ولأنّه لا يستطيع لفظ البعض من حروفنا العربية فقد استنتج من ذلك أن تركيب المجاري الصوتية عند العرب - والشرقيين إجمالا - يختلف كل الاختلاف عنه عند الغربيين!

... انتهيت منذ يومين من نظم قصيدتي «دَفْن الحب». وقد تلوتها على عدد من رفاقي فلم أسمع منهم غير المدح والتشجيع. وفي الواقع، لقد جاءت قصيدة «لا بأس بها». أمّا اليوم فإنّي أفتش عن موضوع أوسع وأعمق وأجلّ - موضوع أستطيع أن أعطيه من نفسي ومن وقتي بغير حساب... لقد دقّت الساعة السادسة. العتمة تزحف علينا. وعيني المغمضة نصف إغماضة بدأت تدمع. يكفي!

٢ نيسان:

... معي في المستشفى رفيق في الصف اسمه فاسيلي. إنه رجل فارع القامة، قليل الشحم واللحم. والكلّ يناديه باسمه المصغر «فاسيا» ويخاطبه بضمير المفرد. وفي ذلك أكبر الدلالة

Twitter: @ketab_n

على نفسيته التي بلغت من السذاجة حدّ البلاهة، ومن الضّعة حدّ تلاشي الذات في شخصيته... ولقد وصف نفسه أبلغ الوصف عندما قال لي: «إنّني رجل لا يستهويه شيء. وليس بين كلّ ما ندرسه فرع واحد يثير اهتمامي... لقد ظهر قبل المسيح مجنون يدعى يوريبيدس، وعنّ له أن يخترع تفاهة دعاها «هندسة». وها نحن مكرهون على درسها.»

لقد خلط المسكين بين يوريبيدس وإقليدس فأثار ضحك الموجودين. وأحبّ أحدهم أن لا ينقطع الضحك فسأله:

- ولماذا دخلت السمنار يا فاسيا ما دمت لا يهمّك من دروسها شيء؟ فأجابه ببرودة:

- وأيّ شأن لي في ذلك؟ هكذا شاء والدي.

اليوم غادرنا فاسيا ليعود إلى دروسه... وأرجو أن لا يطول بي المقام هنا. فحالتي في تحسّن... بدأت أقرأ اليوم «الحرب والسلم» لتولستوي. إنّ مدخل الرواية مملّ. ولكن الزبدة في ما يلي. أتوقّع رسالة من الوطن بفارغ الصبر.

٦ نيسان:

خرجت اليوم من المستشفى حاملاً معي خليطاً من المؤثرات والأفكار، لن يوقظني بعد اليوم صوت معاون الطبيب الطيّب

Twitter: @ketab_n

القلب: «صباح الخير أيها السادة!» وبدلاً منه سيزعجني في السابعة من كلّ صباح صوت الجرس ثمّ صوت الرقيب الخشن: «آن وقت النهوض. انهضوا في الحال!»

... أمس، وليس لأول مرة، سمعت ملاحظة من أحد الرقباء بشأن تغيبي عن الصلوات في الكنيسة. وقد هدّد بأن يرفع تقريراً بذلك - عنّي وعن ميخائيل إسكندر - إلى الجمعية الفلسطينية التي ندرس على نفقتها. وذلك أمر قد ينتج عنه تسويد سمعتنا وسلوكنا، وحرماننا من الدرس. ولولا ذلك لما كان حريّاً باهتمامنا... سامح اللّه إدارتنا! إذا كانت ترى أن حسن السلوك ينحصر في المواظبة على الصلوات في الكنيسة فإني، إرضاء لها، سأواظب على الصّلوات، ورفيقي الحمصي، من جانبه، قد وعد أن يواظب مثلي.

لأدع جانباً مبادئي التي قلما أتساهل فيها. فالتمسك بها في السمنار يعني التضحية بالثقافة وبالمستقبل. لست وحدي في ما أذهب إليه من أنّ المسيحية الحقّة لا تقوم بالوقوف في الكنيسة ساعتين أو ثلاث ساعات في الآحاد والسبوت والأعياد، بل باتباع تعاليم الانجيل وإرشاداته...

أيّ خير في عبادة تصرف القلب عن المعبود، وفي مسيحية تنسيك المسيح؟ فأنت إذ تقف في الكنيسة لا تستطيع إلا أن

Twitter: @ketab_n

تقارن بينها وبين المسرح. ففي الكنيسة - كما على المسرح - ممثلون هم الكاهن والشماس وغيرهما. وهؤلاء قد حفظوا أدوارهم وأتقنوها. وهم يظهرون أحياناً للنظارة وأحياناً يختفون. وفي الكنيسة - كما على المسرح - تتغيّر الزينة والملابس. أمّا الفرق بين الاثنين فقد لا يكون إلاّ في أن الممثلين على المسرح يتوجهون بكلامهم وحركاتهم إلى الجمهور، في حين يتوجه رجال الدين إلى الكائن الأعلى، ولكن بشفاههم لا بقلوبهم، ومن غير أن تتصل به أفكارهم. وهكذا تضيع الرغبة في الصلاة حتى عند الذين يرغبون فيها. وكيف للمصلي أن يرفع فكره وقلبه إلى اللّه ما دامت الحجارة المتلألئة على تاج الأسقف، والشموع التي يضيئها القندلفت، والحركات التي يقوم بها الشماس والكاهن تشغل عينيه، وأصوات المرتلين تملأ أذنيه، ورائحة البخور تغزو منخريه؟

ها هو الجرس الملعون يدعونا إلى الكنيسة (عيد البشارة). سألبّي دعوته... رفاقي، كعادتهم في الكنيسة، راحوا، وهم وقوف، يتلهّون كلّ بما يطيب له. بالقرب منّي كان واحد يرسم على الحائط بالقلم الرصاص شكلاً لا هو بالرأس البشري، ولا برأس حمار، ولا برأس خنزير...

Twitter: @ketab_n

- أليس في جيبك سيجارة؟ - هذا هو رفيق خلفي إلى رفيق بجانبه - إنّي أفكّر في الخروج. رجلاي لا تحملانني. - فيجيبه الآخر.

- لم يبق لديّ إلاّ سيجارة واحدة. أقسم باللّه!

وهذا من اثنين آخرين:

- مع مَن كنت ماشياً اليوم؟

- مع طالبة من «الجمناز».

- حبيبتك؟

- حبيبتي. نعم!

... هكذا يصلّي طلاّبنا في «بيت اللّه»! أو هكذا تريد إدارتنا أن يصلّوا... أما أنا فأوثر الصّلاة وحدي وفي مكان منفرد... وأوثر أن أصلّي بلساني لا بألسنة الكهان... وإذا اتفق لهذا الدّفتر، بطريقة عجيبة، أن يقع في يد أحد من رقبائنا فإنّي لن أتراجع عن كلمة واحدة سطرتها فيه. إني على استعداد لأتألم من أجل الحقيقة.

... أتابع مطالعة «الحرب والسلم» ولكن بطريقة متقطّعة.

١١ نيسان:

أنهيت «الحرب والسلم» من زمان... إني أوافق المؤلف في

Twitter: @ketab_n

رأيه عن نابوليون، لأني أكره الحرب والذين يدعون لها ويقومون بها... ولا يسعني، مع ذلك، إلا أن أرى تناقضاً في ما يقوله عن نابوليون وعن كوتوزوف. فنابوليون في رأيه لم يكن مدفوعاً بإرادته، بل بحكم الظروف وإرادة الشعوب. في حين أنّه يجعل لحكمة كوتوزوف وحنكته وإرادته المقام الأوّل في قهر نابوليون وردّه على أعقابه من روسيا.

... إنّه ليضحكني أن أراني أناقش مفكّراً عظيماً من عيار تولستوي. عفواً يا «ليف نيكولايفتش». فأنا مدين لك بأفكار كثيرة أنارت ما كان مظلماً في عالمي الروحيّ. ففي الكثير من منشوراتك الأخيرة التي طالعتها في العام الماضي قد وجدت نوراً أهتدي به في كلّ خطوة من خطواتي... أجل. فأنت، من هذا القبيل، قد أصبحت معلمي ومرشدي من حيث لا تدري.

... لم يخطر في بالي، يوم نظمت قصيدتي «دفن الحب» دونما اكتراث، أنها ستحظى بتقدير البعض من رفاقي، بل بإعجابهم. ذلك، بالطبع، يشجعني على الاعتقاد أنّني، إذا ثابرت على العمل، فقد أبلغ النتيجة المتوخاة في النهاية... لقد بدأت اليوم عملاً أضخم وأوسع. وقد أخذت موضوعه من الحياة اللبنانيّة...

Twitter: @ketab_n

عدت فتغاضيت اليوم عن الذهاب إلى الكنيسة على الرغم من التهديدات السابقة. والسبب أن ثلاثة من رفاقي وثلاث فتيات شاؤوا أن أرافقهم في نزهة إلى البرية... وقد دامت نزهتنا من الثالثة حتى التاسعة، هرفنا في خلالها هرفاً كثيراً وافترقنا من بعد أن تمنّى كلّ منا للآخر أغرب أصناف الرؤى والأحلام.

١٦ - ٢٣ نيسان:

كان السادس عشر من هذا الشهر بداية عطلة الفصح، وكان الطلاّب، منذ الفجر، في حركة محمومة استعداداً للسفر إلى بيوتهم. فما كنت تسمع غير سؤال واحد يتردّد من كلّ جانب: «متى تسافر يا فلان؟»... وقد طرح عليّ أحدهم هذا السؤال فأجبته مازحاً: غداً صباحاً - وسأمشي إلى بيتي مشياً - فردّ بدوره مازحاً: بل نرسلك في مركبة هوائية فتصل في ثلاثة أيام. هل تقبل بذلك؟[١]

... في اليوم التالي كانت المدرسة أشبه بالمقبرة. والأربعون أو الخمسون طالباً الباقون فيها انتقلوا إلى غرف المنامة... أنا الآن

(١) لم يكن يخطر لنا في بال أنه سيجيء يوم يستطيع فيه واحدنا - بالفعل - أن يطير من لبنان إلى روسيا في ساعات لا في أيام.

Twitter: @ketab_n

في غرفة الدرس وحدي. إنها موحشة، وصوت السعال الذي يلازمني منذ أيام يزيدها وحشة... الجرس يدعوني إلى الغداء. أسرعت بعد الغداء إلى الصفّ وبنيّتي أن أداعب أوتار كمنجتي. ولكن، يا اللّه! ما هذا؟ فتحت البيت فإذا به فارغ ولا أقلّ دلالة على أن يداً غريبة لعبت به. إنّه صحيح. ولكنه فرغ من الكمنجة والقوس... يا لها من لصوصية! يا لها من خساسة!.. هذا الحدث أفسد عليّ صفاء ذهني وسلبني كلّ ميل إلى النظم والمطالعة... وداعاً يا كمنجتي! لكم بدّدتِ عنّي الكآبة كلما جدّ بي الحنين إلى الوطن!..

... ودعني آخر رفاقي في التاسع عشر من الشهر. وفي اليوم ذاته دخلت المستشفى لأداوي نزلتي الصدرية فازددت وحشة على وحشة... في المستشفى طالب من الصف السادس مصاب بالتهاب حادّ في الرئتين. وقد بلغ به المرض درجة كاد يفقد معه ذاكرته. والده فلاّح فقير، وقد جاء من بعيد لعيادته. إنّه يلازمه ليل نهار، وعلى وجهه انسحاق لا يوصف... من حين إلى حين أسمع صوت المريض يسأل والده ثمّ ينقطع فترات طويلة:

- با - با!

- أنا هنا يا فاسيا. ماذا تريد يا حبيبي؟

Twitter: @ketab_n

- «كوزما» هنا؟

وأفهم أن «كوزما» هو شقيقه الأصغر. فيجيبه الوالد:

- لا يا عزيزي. كوزما في البيت.

- ونحن، ألسنا في البيت؟

- لا. نحن في المستشفى.

- آ. صحيح. تذكرت.

ويأتي الطبيب فيسأله:

- ماذا يوجعك؟

- الخطيئة...

- أيّ خطيئة؟ ومن أين الخطيئة وقد مضى عليك زمان في الفراش؟ الخطيئة تذهب بالصلاة. صلّ للّه.

- اللّه... ما هو اللّه؟!.. لكلّ خطاياه. لا بدّ من التوبة.

- الوجع. أين تحسّ الوجع؟

- خطيئة منك أن تسألني...

- ولكنني أسألك عن الوجع. أين الوجع؟

- عندي؟

- أجل عندك.

- الوجع... وأين البابا؟

Twitter: @ketab_n

وإذا لم يحصل الطبيب على جواب نصح بأن ينقل المريض إلى مستشفى الأمراض العقلية.

حقّاً إن الحياة «نكتة شرّيرة» كما قال لرمونتوف.

٢٦ - ٢٩ نيسان:

... جاءني دفعة واحدة ستة أعداد من «الهلال» - ابتداء من أول سنته - وكنت قد اشتركت فيه لأبقى على اتصال باللغة العربية. إنّنا لا نزال نفتقر إلى أدب بالمعنى الصحيح. فليس لنا من نتاجنا ما يصحّ أن يدعى أدباً مستقلاًّ. لكن هناك ظاهرة أغتبط بها. وهي أن الصحافة الحرّة في مصر أخذت - بلسان واحد - تدعو الشعب إلى الحرية وتُطالب بجلاء الإنكليز عن مصر. إنّ عدوى الحرية تنتشر حتى في شرقنا العربيّ... مهما يكن شأني أيها الوطن، فإني أعاهدك على تكريس قواي الفتية لخيرك وخير أبنائك...

٣ أيار:

أمضيت السهرة في حديقة المدرسة. ما أطيب أن يجلس الإنسان وحده يسامر الشجر والنجوم وذكريات ماضيه!.. لقد تدفّقت عليّ تلك الذكريات حتى لم يبق في إمكاني أن أحبس دموعي. فأطلقتها غزيرة، حارّة... قرأت مؤخّراً رواية «الضباب

Twitter: @ketab_n

الأسود» للكاتب «غنيدتش». وقرأت رسالة مطولة لتولستوي بعنوان «الخطيئة الكبرى». وهو يعالج فيها قضية الأرض والإجحاف في توزيعها. فلم يكن في مستطاعي إلاّ موافقته في رأيه.

١٤ أيار:

في المدرسة حركة محمومة. إنها الامتحانات... في الثامن من هذا الشهر كان الامتحان في التاريخ. وكان موضوع المسابقة: «أهمية الطباعة في تثقيف الجماهير الشعبية». وقد أنفقت عليها ساعتين. وبعد ثلاثة أيام نقلوا إليّ عن لسان أستاذ التاريخ أن مسابقتي كانت أفضل مسابقة تقدّمت له!.. كلّ من خبر الامتحانات يعرف الإرهاق الذي تسبّبه للطلاّب، وكيف أنها تعطّل فيهم كل رغبة في أيّ عمل آخر. وها أنا لا أحسّ أيّ رغبة حتى في العمل الأحبّ إلى قلبي. وأعني الكتابة... تسلمت رسالة من الخال، وقبلها بأيام جاءتني رسالة من الأخوين في «والا والا» ومعها حوالة بمئة روبل، وكنت قد كتبت إليهما أنّني سأمضي الصيف في روسيا. إنهم جميعهم - الخال والأهل في لبنان، والشقيقان في والا والا - يعقدون عليّ آمالاً كبيرة. فأنا - في نظر الخال - سأكون «رجل المستقبل» و «عماد العائلة»

Twitter: @ketab_n

و«مفخرة لبنان» وما اشبه. سأجمع كلّ قواي، أيها الأعزاء، وأوجّهها إلى تحقيق آمالكم. ولكن - هل تراها تكفي؟..

٩ حزيران:

انتهت اليوم الامتحانات وتزحزح عنّا كابوسها... والحرية التي ننعم بها الآن مكّنتني ورفيقي «أليوشا» من أن نلبّي نداء فتاتين من «الجمناز» للخروج معهما في نزهة إلى غابة الدّير.

... الشمس تغيب. وأمامنا، على الشِّعْب الذي نسلكه في الغابة، عصفورتان تتقاتلان. وأغلب الظنّ أنهما ذكر وأنثى - زوج وزوجة. حتى العصافير - هذه المخلوقات اللطيفة - لا تخلو حياتها من الهمّ والخصام. وقد شاء المسيح أن نقتدي بها في اتكالنا على اللّه إذ قال: «انظروا إلى العصافير. إنها لا تزرع ولا تحصد. وأبوكم السماويّ يقوتها!» ولكنّها تهتمّ وتتوجع وتحزن وتموت... وقد كان زمان كان يطيب لي فيه تعذيبها وقتلها وأكلها. يا للفظاعة!

... إن أتفه المشاهد وأتفه الأحداث تحملني على التفكير العميق في الحياة ومعناها والغاية منها. ولكني أكتب الآن عن النزهة لا عن معاني الحياة وغاياتها. فهل أكتب عما كان بصراحة، أم أحجم؟ لا بل سأكتب. أليس أني أكتب لنفسي؟ وما

Twitter: @ketab_n

نفع المثل الأعلى إذا هو لم يحدّث عن صراعه مع نزوات اللحم والدم؟

... بعد أن اهتدينا إلى مكان نستريح فيه، جلسنا على الأعشاب بين الأدغال. وكان أول ما اشترطته الفتاتان أن نتصرّف جميعنا «بدون حياء وبدون تكلف». وما إن أكلنا وشربنا ما حملناه معنا من الزاد والجعة حتى التفتت رفيقتي إلى «أليوشا» ورفيقته وقالت لهما: «اذهبا عنّا بعيداً حيثما شئتما. واتركانا وحدنا». وذلك بالتمام ما كان يرجوه أليوشا ورفيقته.

... فهمت في الحال إلى أين سنتهي الأمر، فانزعجت. ولم يكن بدّ من الرضوخ «للأوامر» فرضخت مخافة أن أفسد «الجوّ» على الجماعة[1].

أنا ورفيقتي مستلقيان على الأعشاب الطريئة. القمر يطلّ من بين الغيوم ثمّ يغيب. إنّه يترصّدنا. رفيقتي بجانبي تتململ. وأنا أدري ما بها. لأنّ بي مثل الذي بها. ولكنّ في داخلي صراعاً عنيفاً: أمامك تجربة قاسية - بل معركة ضارية - يا ميشا. فهل تنتصر؟ أم هل تستسلم؟ بل عليك أن تنتصر. عليك أن تبرهن

(١) يستغرق وصف هذه النزهة ٣٦ صفحة من اليوميات. وقد رأيت أن ألخص ما تبقى تلخيصاً.

م.ن.

Twitter: @ketab_n

لنفسك أنّك أقوى من التجربة. فشرفك أمانة في عنقك. وهذه

الفتاة أمانة بين يديك. فباستطاعتك أن تسوقها في طريق الدعارة. وباستطاعتك أن تردّها إلى الطهارة إذا كانت قد فقدتها. وقد تحمل منك فتقضي عليها وعلى مستقبلها. ولا حبّ يربطك بها. إنّها عندك أنثى وحسب. ولكنها ابنة لأمّ وأب. وقد تكون أختاً لإخوة وأخوات. وهي طالبة في سنتها النهائيّة. كن شهماً يا ميشا. كن رجلاً! - وقرّ رأيي على الصمود حتى النهاية.

تسلّحت بالصمت، فلا حركة ولا كلمة. وضايق صمتي الطويل رفيقتي فازداد تململها، وكثرت حركاتها. وبغتة أحسست ذراعيها حول عنقي، وشفتيها على شفتيّ، وأحسست ناراً تجري من أنفاسها في دمي. إنّه لهجوم صاعق. وبيني وبين الهزيمة قيد شعرة. لا. لن أنهزم!

«إنّك تتهرّب منّي. إنّك لا شكّ تكرهني. ولكنك تثيرني حتى الجنون. ألا تسمح، في الأقلّ، أن أقبّلك حتى أرتوي؟» - وتمضي النار التي تلتهمها تلتهمني. وتمضي أناملها تتلمّس الحلال والحرام في جسدي. إنّها لا تملك شيئاً من أمر نفسها. ويكاد زمام نفسي يفلت من يدي لولا صوت في داخلي لا ينفكّ يردّد: «لا

Twitter: @ketab_n

تستسلم. لا تنهزم. لتكن عفّتك أقوى من شهوتك!» وانتصرت العفّة على الشهوة بعد صراع مرير دام ساعة وبعض الساعة. وكان آخر ما قالته لي رفيقتي: «أنت ملاك». قالته بصوت مرتجف وكأنها تهمس همساً.

التقيتها بعد ثلاثة أيام فصافحتها وكأن شيئاً مما كان بيننا لم يكن. فلم ترفع إليّ عينيها. وخاطبتني بلسان متلعثم فقالت: «أتصافحني بعد أن رأيت مني ما رأيت؟ إنّ يدي ليست جديرة بأن تمسّ يدك. أنت قدّيس. (ضحكت وقلت في نفسي: وأيّ قدّيس!) أما أنا فامرأة ساقطة، حقيرة، دنيئة. ولكنني، منذ تلك الليلة، دائبة على تنقية نفسي ورفعها من الحمأة التي كانت تتخبط فيها. إني أحاول أن أخلق مني كائناً جديداً. صدقني! صدّقني!» قلت: «أرجو أن تكوني صادقة وأن تنجحي في محاولتك».

١٢ حزيران:

أطالع الشاعر «نادْسُنْ». إنّه شاعر لطيف الحسّ، انطفأت حياته في ربيعها. وما أشبه ما عاناه في شبابه بالذي أعانيه. لقد كان يفكّر في مثل ما أفكّر. وكان يبني قصوراً في الهواء مثلما أبني. وكان يقلقه، مثلما يقلقني، أن يتأكد من أن له المؤهّلات لبلوغ هدفه... أيّ خير في حياة لا مجد فيها؟.. إني لن أرضى

Twitter: @ketab_n

أبداً أن أعيش مغموراً... ليته كان لي أن أخترق سجف المستقبل... سأعمل، سأجتهد، سأكافح على قدر طاقتي، وما تبقّى فالحكم فيه للّه لا لي.

* * *

(من هنا وحتى نهاية اليوميات (٢١ أيار ١٩٠٩) سأكتفي بتلخيص أهم ما ورد فيها من احداث وانفعالات دون ذكر اليوم والشهر، ودون التقيد بالنص الأصلي إلا حيث تدعو الحاجة.)

* * *

كنّا، أنا ورفيقي ميخائيل اسكندر، قد أمضينا عطلة الصيف السابق - ١٩٠٧ - في الوطن. ولكننا، تفادياً لمشقّات السفر وتكاليفه، قررنا البقاء في روسيا صيف ١٩٠٨ . وفي «اليوميات» وصف مسهب للعيشة الزرية التي عشناها في المدرسة خلال الأسابيع الأولى من العطلة برفقة عدد من الطلاّب الأجانب ما بين صرب وبلغار وغيرهم. فقد حُصرنا جميعنا في غرفة واحدة، وكان علينا أن نخدم أنفسنا بأنفسنا. فلم تلبث الأقذار أن ملأت زوايا الغرفة وكست أرضها. وساء الطعام الذي كان يُقدّم لنا. حتى إنّنا كثيراً ما كنّا نرانا مكرهين على تناوله من بعد أن نخوض معارك ضارية مع جيوش الذباب المتجمعة عليه.

Twitter: @ketab_n

وذات يوم من أوائل تموز جاءني طالب روسي وانتحى بي جانباً ليفضي إليّ بأمر ذي بال. قال إنّه رسب في امتحانات الصف الثاني وهو في حاجة إلى طالب مثلي يساعده في الصيف على اجتياز الامتحان في الخريف وهو مستعدّ أن يدفع لي لقاء ذلك ثمانين روبلاً علاوة على المأكل والمشرب وغرفة خاصّة في بيته. وأكّد لي أنّني سأكون معزّزاً عندهم ومكرماً، وأنني سأمضي صيفيّة ممتعة في قريتهم الجميلة التي تبعد عن بولتافا مسافة ١٢٠ ميلاً. قلت في نفسي: ما أكرم الحظّ! إنّه لحلم يتحقّق دونما سعي منّي. فقد كنت أمنّي نفسي بعمل أعمله في الصيف يدرّ عليّ بعض المال ويمكّنني من قضاء عطلتي في قرية أوكرانية، بعيداً عن بولتافا وعن السمنار وجوّها. وها هي أمنيتي في قبضتي.

قال لي صاحبي - وكان ابن كاهن - إنّه سيسبقني إلى البيت ليطلع والديه على الأمر وليعدّ لي غرفة تليق بي. وبعد يومين يبرق إليّ بالمجيء. ولكنه لم يكن في جيبه المال الكافي لابتياع تذكرة في القطار. أفلا أقرضته ١٥ روبلاً؟ فأقرضته. وكانت بقع من جلده تطلّ من ثقوب في بنطلونه. أفلا أقرضته بنطلوناً كذلك. ورحت أترقّب برقيّته.

Twitter: @ketab_n

انتظرت يومين - ثلاثة أيام - أسبوعاً. ولكن بدون جدوى.

وعندما عيل صبري ركبت القطار إلى القرية التي يسكنها صاحبي. فبلغت أقرب محطة إليها عند نصف الليل. وفي الصباح - وعيناي لم تتذوّقا طعم الكرى - التفتُّ حواليّ وإذا أنا في بلقع ليس يؤنسه غير مدير المحطة ومعاونه، وغير عجوز في خيمة صغيرة تبيع بعض الخبز الأسود والبيض المسلوق للذين تحكم عليهم الأقدار - كما حكمت عليّ - بالتوقف في تلك المحطة. ثمّ يحكم عليهم الجوع بأن يأكلوا ممّا تبيعه العجوز. وسألت عن قرية رفيقي فقيل لي إنها تبعد قرابة عشرة أميال.

لقد بات الحقد على صاحبي يتأكّلني فوق الجوع والتعب والنعاس. وبتّ أتمنّى لو تقع عيني على عينه لأفضي إليه بكلّ ما يجيش في قلبي ضدّه. كنت أعرف أنه رجل مقامر وسكّير وخليع. ولكنني ما كنت أحسب أبداً أنّه من بعد ما أسديت إليه من اللطف والمعونة ما أسديت ستبلغ به النذالة حدّ الاستهتار بما قطعه لي من الوعود. ولكن كيف السبيل إليه؟

ها هو فلاح يقترب من المحطة على عجلة يجرّها حصان واحد هزيل. إنها من العربات التي يستعملها الفلاّحون لنقل السنابل والأعشاب المجففة وما أشبه.

Twitter: @ketab_n

«أتعرف القرية كيت وكيت يا عمّاه؟»

«أجل. أعرفها»

«أتعرف الكاهن هناك؟»

«الأب فلاديمير؟ أجل. أعرفه»

«أتعرف إذا كان ابنه ايفان في البيت؟»

«لا. لا أعرف»

«هل لك أن تأخذني إلى بيت الأب فلاديمير؟»

«من كلّ بدّ»

فكّرت قليلاً فوجدت من الأنسب أن لا أذهب بنفسي، بل أن أبعث مع الفلاّح برسالة إلى والد رفيقي. حتى إذا كان ابنه في البيت جاء الابن في طلبي. وإلاّ وفّرت على نفسي عناء السفر ذهاباً وإياباً في مثل تلك العجلة. وهكذا كان. وسُرّ الفلاّح جدّاً عندما عاد بالجواب حوالي الظهر أن يقبض مني روبلاً بكامله. فضضت الجواب فإذا بالأب فلاديمير يقول إن ابنه سافر منذ مدة إلى بولتافا لتقديم امتحاناته ولم يعد حتى الآن!..

نزل الخبر عليّ نزول الحكم بالإعدام. وأدركت أنني وقعت في فخّ نصبه لي ماكر محترف. وشقّ أن أقع في الفخّ بمثل تلك السهولة أكثر ممّا شقّ عليّ أن أخسر مالي وبنطلوني. وشقّ عليّ

Twitter: @ketab_n

أكثر من ذلك بكثير أن يتبخّر الحلم اللّذيذ، وأن أراني مكرهاً على العودة إلى الحياة الصيفية القاحلة في السمنار. فأظلمت الدنيا في عيني، وكدت أستسلم لليأس عندما لاحت لي بارقة أمل جديد. فقد تذكرت أن صديقي أليوشا كان قد ألحّ عليّ قبل سفره أن أمضي العطلة عنده. وكنت أعرف أنّه يعيش مع شقيقة له متزوجة في قرية صغيرة بالقرب من مدينة تدعى «رومني». فعلامَ لا أذهب إليه والمسافة بيني وبينه كالمسافة بيني وبين بولتافا؟

سألت عن موعد القطار إلى «رومني» فقيل لي إنّه الواحدة بعد نصف الليل. لا حول ولا... أأمضي ما تبقى من نهاري ونصف ليلي الآتي في ذلك البلقع الهائل بسكونه وضجره، وذبابه وحرّه، وعطشه وجوعه، وإرهاقه ونعاسه؟ إنّه لفوق ما تتحمّله اعصابي. لذلك لم أنتظر قطار الركّاب، وتسلّلت إلى قطار شحن اتفق مروره من هناك بعد هبوط العتمة. ولم يؤذني قطّ أن أرى الحافلة التي وقفت على مقدمتها تزدحم بالبقر من شتى الأجناس والأعمار. لقد وجدتني في رفقة البقر أكثر إيناساً مني في رفقة أفكاري عن الناس وما تحفل به حياتهم من رجاسات وخساسات.

إلاّ أن سروري برفقة البقر لم يطل. ففي إحدى المحطات

Twitter: @ketab_n

انكشف أمري للمعاون. فظنّني في البداية مجرماً متخفّياً، أو لصّاً يبيت نوايا مشبوهة. فأكرهني على النزول وكاد يسلّمني للشرطة لولا أنّه، من بعد أن أسمع حكايتي، أيقن أنّني أقول الصدق. ولكنّه لم يسمح لي بالعودة إلى القطار. بل كان لا بدّ من انتظار قطار الرّكاب الذي حاولت أن أسبقه فعاد واقتصّ منّي بأن أكرهني على انتظاره برغم أنفي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

غِيرا سيموفكا

ما كنت أدري، يوم ساقني قَدَري إلى تلك المزرعة الأوكرائينية الوادعة حيث يقطن رفيقي أليوشا، أنّني أُساق إلى أكبر تجربة من تجارب حياتي في روسيا. وأيّ الناس يدري، ساعة يخطو خطوة، إلى أين بالتمام تؤدّي به خطوته بعد ساعة، أو بعد سنة؟ فربّ خطوة يخطوها واحد إلى عرسه فتقوده إلى رمسه. وأخرى تنتهي بصاحبها إلى العرش وكان يحسبها خطوة إلى المشنقة.

استقبلتني «غيرا سيموفكا» - أو بالأحرى البيت الكبير فيها - بمنتهى اللطف والبشاشة. وهو بيت بدا لي قصراً منيفاً بالنسبة للأكواخ الحقيرة المجاورة له. فطرازه حديث، وسقفه من حديد، ومن خلفه بستان فسيح من شجر الفاكهة وبعض أشجار الحور السامقة، والكلّ مصوّن بجدار عالٍ يحجب النظر ويصدّ المتطفّلين والعابثين. إنّه بيت شقيقة أليوشا واسمها «فارْيا» وزوجها واسمه «كوثْيا».

Twitter: @ketab_n

وكان وقت الغداء. فاجتمعنا حول المائدة وأنا أحسّني محور اهتمام ربّة البيت وربّه. فعيونهما كانت تتفحّص ملامحي وترافق كلّ حركة من حركاتي. لقد سمعا أشياء عنّي من أليوشا. ولكنهما يريدان أن يعرفا المزيد عن هذا الشاب الغريب من لبنان، أو من البلاد المقدّسة. وكنت بدوري أتفحّص ملامحهما وأرقب حركاتهما لعلّني أعرف عنهما فوق ما عرفته من أليوشا. وكان اوّل ما تبادر إلى ذهني أنّ هذا الرجل لا يمكن أن يكون زوج تلك المرأة. فالبون شاسع جدّاً بين الاثنين.

إنها - وأعني فاريا - لا تزال في ميعة الشباب. في عينيها الزرقاوين، الواسعتين، دعج خفيف. وفي بشرتها الناعمة نضارة الشباب، وفي شعرها الكستنائي لمعان الفتوّة. وهي تبدو إلى الخامسة والعشرين أقرب منها إلى الثلاثين. ولو أنّ فمها كان أصغر قليلاً مما هو، ولو أنّ أسنانها لم يشوّهها بعض السواد، لكانت تُعتبر من الجميلات. وما من شكّ في أنها ذكيّة الفؤاد، جيّاشة العاطفة. ففي نظراتها، وفي عباراتها وصوتها وحركاتها ما يتمّ عن ذلك.

أمّا هو - كوتْيا - فصورة غريبة من صور الرجال. إنه طويل، هزيل، وقد جاوز الثلاثين. يتدلى شعره على جبينه الضيّق

Twitter: @ketab_n

فلا ينفكّ يردّه بيده إلى فوق ولكنّه لا يلبث أن يعود إلى الجبين. جفنه مكسور أبداً، وعيناه الخضراوان باهتتان كأن من خلفهما فراغاً بغير نهاية. خدّاه الهابطان تعلوهما، ولا تكسوهما، لحية شقراء ضيّقة الجانبين، قليلة الشعر. وهذه اللحية قد فقدت توازنها على الذقن فبدا الطرف الأيسر منها أطول من الأيمن. فمه واسع وشفتاه غليظتان. وإذا تكلم وتمادى في الكلام ظهرت رغوة على طرفي فمه. لكنه قليل الكلام. والكلمة تخرج من فمه متردّدة، متعثّرة، فكأنّه الطّفل. والواقع أن في كلماته وحركاته ونظراته، من الوجل، والحياء، والتردّد ما يجعله أشبه بالولد لم تكتمل مداركه منه بالرجل الكامل الرجولة. وجليّ أنّه يتهيّب زوجته كثيراً، فيعيش في خوف دائم من تأنيبها على كلمة أو إشارة تبدر منه في غير محلها، وعلى الأخصّ في حضرة الغرباء. فقد كان، كلّما وجّه إليّ سؤالاً، التفت إليها ليطمئنّ إلى أنّه لم يرتكب هفوة. وأسئلته كانت في منتهى السذاجة. وقد تبيّن لي من أسئلته التي كانت تدور جميعها حول الأماكن المقدسة أنّه رجل متديّن إلى أقصى حدّ. ولكن على طريقة البسطاء الذين لا يعنيهم من الدين إلا طقوسه ومراسمه.

كان «كوتيا» في بدء تعارفنا شديد التحفّظ في سلوكه

Twitter: @ketab_n

معي. ولكنه، بعد حين، أخذ يتودّد إليّ أكثر فأكثر، ولا يستأنس بأحد مثل استئناسه بي. حتى إنّه راح يدعوني بقوله «يا صديق أفكاري». ولا عجب. فقد وجد فيّ إنساناً يحترم الإنسان فيه ولا يهزأ بسذاجته في أعماله وأقواله مهما بدت تافهة وصبيانيّة. لذلك لم يعتّم أن اتخذني موضعاً لسرّه ومتنفّساً لهمّه وشكواه. وقد بدأ بأن أطلعني على تاريخ حياته عندما أدركني ذات يوم جالساً وحدي في البستان وفي يدي رواية أطالعها لكاتب روسي يدعى «دانيليفسكي». فاقترب منّي متمهّلاً وقال بصوت فيه الكثير من الحسرة:

«هنيئاً لك. إني أحسدك. أنت في عنفوان شبابك. وأنت مكبّ على الدرس، وللحياة عندك قيمة ومعنى. أما أنا فقد بلغت من العمر ما بلغت وحياتي خالية من كل معنى. والذنب في ذلك ذنب التربية - أو قلّة التربية - التي نلتها» - وتنهّد الرجل مقطّعاً كلماته الأخيرة تقطيعاً. قلت:

«وما هي تلك التربية - أو قلّة التربية - التي تلومها في كل شيء؟» فأجاب:

«إذا كان لا يثقل عليك فسأروي لك باختصار تاريخ حياتي». وابتسم ابتسامةً صبيانيّة فقلت بمنتهى اللطف والجدّ:

Twitter: @ketab_n

« كلّي آذان. هات!»

وراح الرجل يروي لي تاريخ حياته بلغته البسيطة المتلعثمة.

قال:

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كُوْتْيا

«ولدت في هذه القرية. وكان أبي كاهناً فقيراً جدّاً ومن خريجي السمنار. وكان لي إخوة أكبر منّي. ولكنهم ماتوا جميعهم، وبقيت أنا وأختان لي. إحداهما تزوّجت جنديّاً بسيطاً، والأخرى تزوّجت رجلاً هو اليوم كاهن قريتنا. ولأنّني بقيت الصبيّ الوحيد في العائلة فقد كان من الطبيعي أن يتعلّق بي والدي وشقيقتاي إذ أنّني كنت سلواهم الوحيدة. وعلى الأخصّ من بعد أن انتقلت والدتي إلى جوار ربها وليس لي من العمر أكثر من أربعة أيام. وهكذا كان مقضيّاً عليّ أن أعيش محروماً من عناية الأمّ ومحبتها ومن دفء الحياة العائلية.

«لست أذكر البيت الذي ولدت فيه. فبعد وفاة أمّي بقليل أخذتني إليها أرملة طاعنة في السنّ لتهتمّ بتربيتي. وهذه الأرملة التي كانت زوجة ضابط في الجيش برتبة عقيد كانت قد ورثت تركة محترمة عن والدها الذي كان وجيهاً في القرية وكان يحمل الوسام الذهبي من الحكومة. وقد وجدت فيّ أكبر تعزية

Twitter: @ketab_n

لها في أواخر حياتها. فكانت تبذل عليّ من قلبها وجيبها دونما حساب وبغير شفقة. ولا أدري لماذا كانت تريدني أن أصبح كاهناً وأن أخلف والدي في القرية.

«ما إن بلغت التاسعة من عمري حتى أرسلتني الماما - هكذا كنت أدعو تلك المحسنة - إلى المدرسة الاكليريكية الابتدائية. ولكن الحياة في المدرسة لم تغيّر شيئاً من طباعي وأهمّها الكسل. ومما زاد في كسلي ذلك الدلال الفائق الذي كانت تغمرني به الأرملة. فما كنت أُولي الدروس أيّ اهتمام، بل كنت أصرف وقتي في اللعب وفي المشاجرة مع رفاقي. ولأنّني بطبيعتي ضعيف وجبان فقد كان ينالني من الضرب والأذى الشيء الكثير. وكنت اعيد كلّ صفّ من صفوفي سنتين.

«أخيراً قررت أن لا نفع من متابعة الدرس. وقلت في نفسي إنّ آلافاً من الناس يعيشون عيشة محترمة ولا عهد لهم بالدرس والمدارس، ولا هم يُسجنون مع الأشقياء في سجن المدرسة، ولا يتحمّلون ما أتحمله من الضرب والإهانة على أيدي رفاقي، ولا يُكرههم أساتذتهم على «نحت» دروسهم في كل يوم. وفتقت لي حيلة شيطانيّة للتخلّص من المدرسة وجوّها. فرحت أفرك عينيّ بالأوحال وشتّى الأقذار إلى أن أصبحتا بركتين من الدم. ونجحت

Twitter: @ketab_n

الحيلة. فتخلصت من الدرس. ولكنّني بتّ في خطر العمى. وبتّ في حاجة إلى مستشفى وإلى طبيب اختصاصي لمعالجة عينيّ. وتمّت المعالجة. وشفيت عيناي. ولكنني لم أعد إلى المدرسة التي تركتها قبل أن أنهي الصف الثالث من صفوفها. وذلك ما كنت أتمنّاه.»

وتنهّد الرجل عميقاً ثم تابع حديثه:

«أجل. عند ذلك الحدّ انتهت ثقافتي... وبمثل تلك الثقافة كان عليّ أن أخوض المعترك وأن أحيا حياتي. واتفق أن «الماما» ارتحلت عن هذه الفانية بعد ذلك بقليل تاركة لي كلّ ممتلكاتها المنقولة وغير المنقولة. رحمات اللّه عليها وملكوته لروحها! لقد كانت من طينة صالحة، وكانت تحبني كما لو كنت ابنها.

«لم يكن في استطاعتي أن أدير تركة كبيرة كالتي انحدرت إليّ. لذلك تولّى والدي إدارتها حتى وفاته. أما أنا فرحت أعيش عيشة المتنسك. وانغلقت على نفسي حتى إنّني قلما كنت أغادر البيت. ولكم فكّرت في حالتي التعسة، وفي مستقبلي المظلم، فما كان تفكيري يقودني إلا إلى نتيجة واحدة. وهي أن لا بدّ لي من رفيقة في حياتي - لا بد لي من الزواج. ولكن مجرّد التفكير في الزواج كان يخيفني إلى أقصى حدّ. إنّه الخطوة الهائلة التي يترتّب

Twitter: @ketab_n

عليها مستقبلي. فإن أنا لم أحسن الاختيار، وتزوّجت امرأة قهّارة، قاسية اللّسان، شرّيرة الطباع، فاسدة الأخلاق، فلن يطول بها الوقت حتى تجرّدني من آخر قرش في جيبي ثم تطرحني طرح النفاية وتلتحق بغيري.

«لست أجهل نفسي، إنّني رجل كثير المخاوف، وبدون شخصية أو إرادة. وإذا لم يكن لي من يدبّر شؤوني وقفت مكاني دون أن يكون لي العزم على اتخاذ أيّ خطوة إلى الأمام أو إلى الوراء. في استطاعتي أن أمشي ما دامت يد غريبة تدفعني أو تقودني. أما ساعة لا أشعر بيد تدفعني أو تقودني فأبقى جامداً في منتصف الطريق حتى وإن كان الهلال الأكيد ينتظرني. لذلك ما كنت ألوم المرحوم والدي عندما كان يردّد على مسمعي: لا تتزوّج! وأيّ النفع يمكن أن ينتج عن زواجك! إلاّ إذا كنت تريد أن تزيد عدد البُلْه مثلك في الأرض... - وكان أبي على حقّ. لقد بدأت اليوم أفهم الحقيقة التي كانت تنطوي عليها كلماته.

«ولكنني خطوت الخطوة الرهيبة. لقد تزوّجت. وقد مضى على ذلك عشر سنوات وأنا لا أشعر أن الحياة الزوجيّة قد بدّلت شيئاً في طباعي. فما أزال حتى الآن ذلك الرجل المسحوق، الجبان، المعدوم الشخصية الذي كنته قبل عشر سنوات. فكأن

Twitter: @ketab_n

الحياة ماضية في تجريدي من كلّ سلاح. فلا موهبة من المواهب، ولا نزعة من النزعات. فأيّ نفع للحياة من رجل مثلي؟ إني لا نفع منّي لأيّ إنسان أو لأيّ شيء. قل لي بحقك: أيّ خير يرجى من إنسان مثلي؟ إني آكل، وأشرب، وأنام - ولا أفعل أكثر من ذلك. فأيّ حياة هي هذه الحياة، وأيّ قيمة لها؟ إن أحقر حشرة في الأرض تناضل في سبيل عيشها، فتشعر بحلاوة البقاء. أما أنا فلا يكفيني أنني لا أناضل، بل إنني مستعدّ أن أتخلّى عن كلّ ما أملك لآخر إنسان شريطة أن لا يدفعني على النضال العلني أو المستتر ضدّه.

«لقد وضعت كل ما أملك تحت تصرّف زوجتي. ورضيت أن أعيش عيشة الطفل الصغير، فلا أهتمّ بشيء، ولا أتدخّل في أيّ أمر. فكأنني لست ربّ البيت، بل ضيف فيه. وأعترف لك بأنّ دلك لا يزعجني قطّ. ولعلّه يرضيني. لأنّني أشعر بافتقاري إلى المقدرة على إدارة أيّ عمل من الأعمال.

«يقول البعض إنّ المكان اللائق بي هو الدير. ففي حياة الرهبنة ما يتلاءم وحياتي. أمّا أنا فأقول إنّني لا أصلح ولا للدير. أجل. إني من المؤمنين. وإيماني عميق وحارّ. لكنّه مظلم جدّاً ومحدود. إنّه إيمان أعمى، ولا يرتكز على أيّ وعي وإدراك.

Twitter: @ketab_n

خلاصة القول: لست رجلاً ولا أشبه الرجال. قل لي بحقك: هل صادفت في حياتك رجلاً مثلي؟ هل وقعت على شخصيّة تشبه شخصيّتي؟.. إنّني إنسان هالك - إنسان زائد في هذا الكون - «لا هو شمعة للّه، ولا محواش للشيطان» - على حدّ قول المثل الروسي. إنّني الدولاب الخامس - وكفى!»

كان في جملة ما قاله لي كوتيا في تلك الجلسة أنّه اكتشف لنفسه هواية وظنّ أنها ستشغل قسماً من وقته وتساعده على التخلّص من ضجره. وتلك الهواية هي التصوير الفوتوغرافي. فاقتنى «كامرة» هي أشبه ما تكون بعلبة خشبيّة مربّعة. أمّا الصفائح المستعملة فيها فمن الزجاج. وهذه كان لا بدّ من تحميضها. وقد جهّز كوتيا لها غرفة خاصّة في القبو تنار بمصباح ضئيل أحمر. إلاّ أنّه بعد محاولات عدّة فاشلة أيقن أنّه لا يصلح حتى لمثل تلك الهواية البسيطة فقد أتلف عشرات الصفائح لأنّه لم يتقن تحميضها، ولا هو أتقن نقل الصور عنها إلى الورق. أما أليوشا وفاريا - ومن بعدهما أنا - فقد وجدنا في تلك الكامرة متعة وسلوى.

Twitter: @ketab_n

كان رفيقي أليوشا يحبّ اللهو والعبث ومغازلة الآنسات والسيدات. وكنت لا أشبع من المطالعة والكتابة ونظم الشعر. ولي في كلّ يوم مشروع قصيدة، أو قصة، أو رواية. وفي كل يوم لي جدل طويل مع نفسي: هل لي من المؤهلات ما يمكّنني من بلوغ هدفي؟ وهدفي كان دائماً إلى الأبعد - إلى الأندر - إلى الأشقّ. لذلك لم تكن ترضيني محاولاتي مهما بالغ رفاقي فيإطرائها. ولذلك قلّما كان يغريني أن ألهو وأعبث كما يلهو الشباب ويعبث.

إلاّ أنّني، من حين إلى حين، كنت أنزل عند رغبة أليوشا فأرافقه في نزهة مع بعض الفتيات. وأمتع تلك النزهات عندي هي التي كنّا نقوم بها في قارب - أو قوارب - على نهر يجري بالقرب من «غيرا سيموفكا» ويدعى «صُولا». وهو النهر الذي مشيت بعد عامين على وجهه المقنّع بالجليد فنظمت فيه قصيدتي «النهر المتجمّد».

إيه صولا! ما كان أروع ظلال الحور والصفصاف والشوح على وجهك الهادئ الحالم، في وهج الهجيرة وفي ضوء القمر!

Twitter: @ketab_n

وأروع منها تلك الزنابق البيض المتكتّلة جماعات جماعات هنا وهناك وهنالك في منعطفاتك وقد غابت جذوعها في أعماقك فبدت وكأنها أطياف أحلام من غير هذه الأرض. ما كنت أعلم يومذاك أيّ رمز مقدّس هي زهرة النّيلوفر **Lotus** عند الهنود وغيرهم من الأقدمين. إنها رمز الطهارة ما شابها دنس. ورمز الحياة جذورها في الظلمات والأوحال أمّا وجهها النقيّ، الكريم، الجميل ففي النور. على «اللوطس» يتربّع البوذا. والمتعبّد الغارق في التأمّل، والطامع في تنقية نفسه من أدرانها، لا يروقه شيء مثلما يروقه «اللوطس» يتخيّله أمامه، أو على أمّ رأسه، ويركّز عليه أفكاره. إي، لقد عرفت «اللوطس» الطاهر أول ما عرفته على وجهك الطاهر يا «صولا». ولكن لا طهارته ولا طهارة وجهك استطاعتا أن تدعما طهارتي حتى النهاية...

لقد هامت بي أكثر من فتاة في ذلك الصيف. إلاّ أنّني لم أفتح قلبي ولا استسلمت لإغراء أية واحدة منهنّ. ولو شئت أن أمثّل دور «دون جوان» لمثّلته بسهولة. لكنّ في مزاجي وذوقي وخُلقي وطبيعتي ما يتقزّز من أمثال «دون جوان»، ومن العبث بعواطف النساء إرضاء لشهوة عابرة. حتى لأحسبها جريمة إذا أنا أخلصت لامرأة وأدخلتها قلبي أن أشرك سواها في عاطفتي. وإذا

Twitter: @ketab_n

اختلط دمي بدمها فكلّ دم آخر قذارة عندي ووباء روحي ما دامت العلاقة قائمة بيننا.

من هذا القبيل كذلك هو كرهي للتهتّك والكذب والرياء والتدجيل والتزلّف والمجاملة يتلفّظ بها اللسان وينكرها القلب والوجدان. ثمّ كرهي الأشدّ للبذاءة في كلّ مظاهرها. فوخز الإبر في جلدي لأقلّ إيلاماً عندي من وقع كلمة بذيئة في أذني. حتى النكتة البارعة، إذا كان فيها شيء من «الدسم»، لا تلاقي تجاوباً في نفسي. لذلك كنت أشعر دائماً بانزعاج نفساني في المجتمعات المختلطة التي يسودها الهرج والمرج، ويختلط فيها الحابل بالنابل، كتلك السهرة التي أحياها في المدينة الطلاّب الجامعيون، والتي أصرّ أليوشا على أن لا تفوتنا. لقد عدنا منها بعد نصف الليل وبي ما يشبه الغثيان. فالذي سمعته من الكلام وأبصرته من الحركات كان عندي كالرذاذ يتساقط عليك من جوّ مثقل بالغبار، فلا ينعشك ويستقرّ بقعاً من الأوحال والأقذار على ثيابك. وكان عند غيري شراباً شهيّاً، مسكراً. فليس أحبّ إلى الناس من أن يملأوا آذانهم وعيونهم بأشياء تعطّل فيهم القدرة على سماع صوت الحياة ورؤية وجهها الحقيقي في داخلهم. وذلك ما يدعونه «كيفاً» و «بسطاً» و «ترويحاً عن النفس». ولذلك يتعشقون الأعياد

Twitter: @ketab_n

والمظاهرات والمهرجانات وما إليها. لأنهم فيها يهربون من نفوسهم.

* * *

كنت، بعد أسبوع من وجودي في غيرا سيموفكا، قد أفهمت أليوشا ليُفهم شقيقته بدوره أنّني لن أرضى أن أصرف الصيف عندهم ضيفاً. بل أريد أن يعتبروني مصطافاً. فأدفع ما يترتّب عليّ عن المدّة التي أمضيها عندهم.

وفي أواسط تموز ألمّ بربّة البيت مرض ألزمها الفراش. فبات وجودي في بيتها عبئاً عليّ. وبالأخص عندما استقرّ رأيها على السفر إلى «خاركوف» وهي أقرب مدينة جامعية فيها المستشفيات وفيها الأطباء الذين يُركن إلى خبرتهم ومعارفهم. إلاّ أنها عندما جئت أودّعها ساعة سفرها، رجتني رجاءً حارّاً أن أبقى ريثما تعود. وكان أملها كبيراً بأنها ستعود. ثمّ كتبت إليّ من خاركوف تكرّر طلبها، وبحرارة أشدّ من قبل، فبقيت.

في خلال الفترة التي انقضت بين سفر «فاريا» إلى خاركوف وعودتها منها دوّنت في يوميّاتي الكثير من الأحداث والانطباعات والتأمّلات. ولا بأس لو أنا اقتطفت بعض فقرات منها وسُقتها إلى القارئ دونما ترتيب:

Twitter: @ketab_n

«غامض، مظلم أنت يا مستقبلي. ولعلّ تفكيري فيك، وأنا من العمر حيث أنا، سابق لأوانه. ولكني لا أستطيع إلا أن أفكّر فيك... - السمنار؟ وماذا بعد السمنار؟ - الأكاديمية؟ وماذا في الأكاديمية؟ - لاهوت ومماحكات لاهوتية... إني أريد أن أكون كاتباً له شأنه بين الكتّاب. وقد استسلمت لهذا التيّار من تيّارات الأوقيانوس البشري وليس يدري غير اللّه إلى أين يمضي بي... ما أقصر حياتنا وما أكثر أحزانها وأوجاعها، وهمومها ومشكلاتها! وهل هي حريّة باهتمامنا وتفكيرنا، وبأن نتزاحم فيها على الغنى، على المجد، على الشهرة؟ إنّها لأشياء تبدوخلاّبة، ولكنها لا دوام لها ولا ثبات. ففي مكان ما وزمان ما ستحتوينا في النهاية - وإلى الأبد - حفرة ضيقة، مظلمة، باردة، حيث لا مجد، ولا ترف، ولا شعر، ولا نثر. هناك نستريح من كلّ شجوننا العالمية... ألا أين أنتِ أيتها الحفرة المعدّة لاقتبال رفاتي؟»

* * *

«يا اللّه! في تركيا دستور!! وبلادي حرّة!!! إلاّ أنّني أخشى أن تُنتزع منها هذه الحرية بمثل السرعة التي جاءتها بها... وهل تكون لمواطنيّ المقدرة على الانتفاع بتلك الحريّة بطريقة تجعلهم والأتراك في مستوى واحد من الكرامة والحقوق؟ وهل يشعر

Twitter: @ketab_n

المسيحيون بعد اليوم بأنّهم مواطنون كباقي المواطنين؟ وهل تتحرّر صحافتنا المسكينة من قيود المراقبة البغيضة، أم تراها ألفت قيودها فلا تطمع في أي تحسين؟.. سأسافر في الصيف المقبل إلى الوطن وسأرى بأمّ عيني كيف استقبلت سوريا ولبنان هذه الحريّة وماذا سيكون شأنها في تطوّر حياتهما السياسيّة والفكرية. وإني لأدعو الله أن يجعلها بادرة خير لكليهما».

* * *

«جلست أمس وحدي تحت الحورة العتيّة في البستان ومن حوالي سكينة ولا سكينة القبور. ولم يكن في يدي قلم أو كتاب، ولا في رأسي أيّ مشروع لقصيدة أو قصّة. كنت فارغاً، متكاسلاً، مسترخياً. والرأس الفارغ، كما يقولون، أحبّ المساكن إلى الشيطان. لذلك لم يلبث أن استيقظ الوحش الرابض في داخلي - وحش الشهوة الجنسية. فإذا بي ألعوبة في يديه. يقذفني كيفما شاء. ويعطّل إدراكي. فلا أنا بالسكران. ولا أنا بالصاحي. ثمّ يأخذ يصوّر لي صوراً لو رأيتها في حالة صحو تام لتقزّزت منها نفسي... في مثل تلك الدقائق ما أصعب أن تجد في نفسك الوعي والقدرة والإرادة للتفلّت من قبضة دقيقة أنت فيها والتلفّت إلى دقيقة أبعد منها. ما أصعب أن تستغويك الشهوة فلا تستسلم

Twitter: @ketab_n

لغوايتها، وأن تسمع صوت المثل الأعلى في حين تضجّ الشهوة في أذنيك وعينيك ورأسك وكل كيانك!.. حسبك، وأنت على شفا الهاوية، أن تُعرض عن صوت مثلك الأعلى لتجد نفسك في الهاوية. وتستفيق من بعدها - ولكنك لا تستطيع أن تستردّ ما فات. وتروح تعزّي نفسك بقولك: «ما أنا بالأول ولا بالأخير» - وبئس العزاء!..

«ما أكثر ما يذوي الشباب، وتختنق آماله الخيّرة، وتنهدر قواه الفتية في هذا العصر الفاسق الذي نعيش فيه! وإنّه ليعتريك الهول إذا تأمّلت ما يجري في أوساط هذا الجيل - جيلنا. وكلّه بسبب هذه الشهوة الجنسية اللعينة التي ليس في مستطاع أيّ كان قهرها في نفسه... يتنبّه هذا الوحش في داخلي من حين إلى حين ويثور. ولقد كنت أقوى منه حتى اليوم. إلاّ أنّه قد تأتي ساعة ينتصر فيها عليّ فأغدو عبده. وهل لي أن أبتّ الآن بما سيأتيني به المستقبل؟»

* * *

«أريد أن يكون لي في النثر أسلوب مرن، رشيق. وفي الشعر عذوبة وسلاسة وإيقاع موسيقي. وأريد أن أنشر هنا وهناك ولكن قبل أن أهيئ لعقلي الفتيّ المؤونة الضرورية له من الخبرة والمعرفة.

Twitter: @ketab_n

مهما تكن طبيعة الانسان غنيّة فلا بدّ لها، لتصبح شاملة، من الاستعانة بتجارب الغير... والذي يغيظني هو أنّ عقبات كثيرة تعترض طريقي. فتعطّشي إلى المطالعة لا يعرف الحدود. ولكن عينيّ تحتجّان وأحياناً تضربان. وهما مهدّدتان بالعمى إذا رحت أطالع وأطالع وأطالع...»

* * *

«لَكَم يلذّ لي، في الأمسيات الحالمات، أن أجلس وحدي في البستان تحت شجرات الحور، وأن أراني محمولاً على بساط الذكريات إلى وطني البعيد، الحبيب! وألذّ من ذلك أن يتدفّق الشعر من قلمي في موضوع يمسّ روحي في الصميم... اليوم أحسّني موقّعاً ألطف التوقيع لنظم الشعر. ويبدو لي أن في استطاعتي أن أنظم وأنظم بغير نهاية... إلى هذا الحدّ قد بلغ ولعي بالشعر ونظمه. أمّا النتائج التي سيتمخّض عنها هذا الولع فالله وحده يدري ماذا تكون».

* * *

«خجلت من نفسي أعود وأليوشا عند الفجر من سهرة في المدينة فنلتقي جماعات من الفلاحين والفلاحات في طريقهم إلى الحقل. إنّه موسم الحصاد - موسم المناجل والسنابل والبيادر. لقد

Twitter: @ketab_n

كنّا نمشي بأرجل فكّك التعب مفاصلها، وأجفان تكاد تلتصق بعضها ببعض من فرط ما بها من نعاس. كنّا نمشي في جنازة ليل قتلناه رقصاً وثرثرة ومجوناً. وسنقتل النهار المولود منه نوماً وتراخياً وتكاسلاً. وكانوا يمشون وفي مشيتهم عزم الأرض، وفي عيونهم أمل النهار الجديد، وفي أيديهم المفاتيح لبركات الحياة وخيراتها. وكانوا يحيّوننا كما لو كنّا نحن ذوي الحق في بركات الحياة وخيراتها وكانوا هم المتطفّلين. يا له من نظام أعوج!»

«في الجرائد أخذٌ وردّ عنيفان لمناسبة بلوغ تولستوي الثمانين من عمره. فاليسارية منها تطالب الحكومة بالاحتفاء احتفاءً رسميّاً بيوبيل الكاتب العظيم. واليمينية تأبَى على الحكومة والبلاد أن تلقي أيّ بال إلى يوبيل رجل تفسد تعاليمه العقول. وعلى رأس المعارضين الكنيسة التي رشقت بحرمها سيّد «ياسنايا بوليانا»، والتي حملت وزارة المعارف على إصدار تعميم لجميع المدارس تحذّر فيه الطلاّب من الاحتفاء في أيّ شكل باليوبيل. يا للعار أن يكون في روسيا مَن يحاول إطفاء هذا المشعل الذي يتألّق نوره اليوم في جميع أقطار الأرض!..»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فارْيا

عادت فاريا من المستشفى في الثامن والعشرين من آب (١٩٠٨) وقد سلبها المرض الكثير من نضارتها وغير القليل من لحمها. ولكنها أخذت تستردّ عافيتها ونشاطها يوماً بعد يوم. وإلى القارئ مقتطفات من بعض ما دونته في يومياتي بعد عودتها:

«لم يخطر قط لي ببال أن عطلتي في غيرا سيموفكا ستنتهي إلى مشاهد غراميّة. يبدو أن فاريا تهيم بي من زمان، وأنها كانت تحاول بشتى الحركات والالتفاتات والإشارات أن تنبّهني إلى ذلك فلا أنتبه. أمّا اليوم (الثامن من أيلول) فقد اختارت أن تستعيض عن التلميح بالتصريح. وكان تصريحها مؤثراً للغاية. وقد هيّأت لذلك الجوّ المناسب عندما أصرّت على أن تأخذ لي صورة شمسية بيدها، وأن أقوم وإيّاها وحدنا بتظهيرها في غرفة التحميض الصغيرة الكائنة في القبو. وهناك، على ضوء المصباح الأحمر الضئيل، راحت تقصّ لي كيف دخل حبّي قلبها فأصبح السيد المطلق فيه. قالت:

Twitter: @ketab_n

«من قبل أن أعرفك كنت قد كوّنت لك صورة في ذهني ممّا سمعته عنك من أليوشا. وكنت دائماً أحاول أن أجعلها صورة مثالية. وعندما جاءني أليوشا ذات يوم برسمك لا أدري ماذا حلّ بي. فقد كان في ذلك الرسم شيء خفي - شيء لا أفهمه - يردّ بصري إليه كلما حاولت أن أسلخه عنه. وعبثاً حاولت أن أنساه...

«كنت أخشى مجيئك إلينا. أخشاه لأن قلبي راح ينبئني بأن علاقة ستقوم بيني وبينك. وقلبي لم يخدعني. فما إن دخلت بيتنا حتى سلبتني راحتي. فغدوت لا أفكّر إلا فيك ولا أطلب وجهاً غير وجهك. ولقد حاولت، بشتى الوسائل والحيل، أن أخفي عنك ما بي. ولا أدري إذا كنت قد شعرت بذلك وتغاضيت عنه. أو أنّك لم تشعر به على الإطلاق.

«ثمّ مرضت واشتدّ بي المرض. فخيّل إليّ أنّ ولهي بك قد يكون فيه شيء من الإثم، وأنّ ذلك الإثم قد سبّب لي المرض. فرحت أحاول بكلّ قواي أن أقتلعك من قلبي - ولكن بدون جدوى. حتى في أشدّ الوجع لم يكن في استطاعتي أن أصرف فكري عنك. ولكم خشيت أن يبوح هذياني بسرّي. أمّا أنت فكنت قاسي القلب - أو بدون قلب. فلم يخطر لك أن تعودني

Twitter: @ketab_n

إلاّ من بعد أن نقل إليك أليوشا رغبتي في أن أراك. فجئت، وفي الحال خفّت أوجاعي. وأنا لا زلت أذكر ذلك المساء الذي فيه جلست قبالتي لا تنطق بكلمة إلاّ جواباً على أسئلة أتوجّه بها إليك. في ذلك المساء شعرت براحة في جسدي وروحي. ولكنك كنت بخيلاً عليّ بمثل تلك الدقائق. لقد كنت مشغولاً عنّي بأشياء لا أدري ما هي. ولعلّك لم تكن تفكّر بي أبداً. بل كنت، على العكس، تتهرّب منّي. وقد لحظت ذلك. فزاد في أوجاعي الجسدانية أوجاعاً قلبية. وها أنا أروي لك حكايتي شاعرة أنّك تسمعها ببرودة تامّة. لا بأس. دعني أمضي في روايتي حتى النهاية. لعلّها تحرّك في قلبك بعض الشعور نحوي.

«سافرت إلى خاركوف. وهناك في المستشفى لم يكن يؤلمني شيء على قدر ما كان يؤلمني الخوف من أن يطول مرضي فلا أتمكّن من أن أراك قبل عودتك إلى بولتافا. لذلك كتبت غير مرّة إلى أليوشا وفي كلّ مرة كنت أرجوه أن يلحّ عليك بالبقاء ريثما أعود. أمّا أنت فلم تتنازل أن تكتب إليّ كلمة إلاّ من بعد أن كتبت إليك رسالة... عندها - وبدافع اللياقة من غير شك - تلطّفت وكتبت لي بضع كلمات لم يكن لي فيها كبير عزاء. ولكنني، مع ذلك، رحت أقرأها الكرّة بعد الكرّة. ولا أزال

Twitter: @ketab_n

أحتفظ بها ذكرى لما عانيته من الآلام بسببك...

«تركت المستشفى قبل الأوان طمعاً بأن أجد عندك الدواء الذي لن أجده في أيّ مستشفى. وماذا لقيت؟ لقد استقبلتني بمثل البرودة التي كنت تستقبلني بها من قبل. مهما حاولت أن أقرأ ما في عينيك نحوي أعود بنتيجة واحدة. وهي أنّك لا تبالي بي. في حين أن نظراتك لا تزال تمعن في قلبي تجريحاً وتمزيقاً... لعلّك برِم بملاحقتي لك. إنّ هدوءك يغيظني - يغيظني من نفسي. ولكن غيظي أبداً ينهزم من وجه حبّي - ذلك الحبّ الذي كتمته حتى الآن فأبَى أن يبقى مكتوماً. إنّه يتفجّر من عينيّ ومن قلبي قبل أن يتدفّق من لساني وشفتي. إن سرّي ليس سرّاً عندك بعد اليوم. ولماذا التكتّم؟ إذا لاقى اعترافي هذا بعض العطف منك كنت سعيدة جدّاً. وإلاّ أطعم أحزاني من قلبي صامتة، صابرة إلى أن ينفد القلب، وينفد الصمت والصبر...»

* * *

«يا اللّه! أيّ ورطة هي هذه الورطة! ماذا اعمل بقلب لا يرى له حياة إلا في قلبي؟ بل ماذا أصنع بقلبي ترتمي عليه القلوب وهو لم يجد بعد قلباً يرتمي عليه؟ إنّه يريد أن يحبّ - أن يذوب في الحبّ. ولكنه لم يأتِ أو انه بعد - لم يجد ضالّته. وسيجدها يوماً ما...

Twitter: @ketab_n

«لقد عرفت فاريا كيف تختار الجوّ لبثّ لواعجها: غرفة ضيقة في قبو. يضيئها مصباح أحمر لاهث النور، خافته. لا تتسع لأكثر من اثنين، ولا تنفذ إليها أيّ عين، ولا تتسرّب الهمسات منها لأيّ أذن - حتى لأذن كوتيا المسكين الذي كان يقترب من الباب بين الفينة والفينة ليسأل بصوت خائف، متردّد عن الصورة ومتى ننتهي من تحميضها. وإذ تجيبه فاريا بأن «العملية» ستطول يمضي ليعود بعد حين ويطرح عين السؤال ليلقى عين الجواب. أجل. لقد كانت «عملية» ضاقت بها حيلتي واضطرب لها وجداني حتى أعمق أعماقه. فالوحش في داخلي استفاق وراح يزمجر. ولكنّ زمجرته لم تزعجني على قدر ما أزعجتني بلبلة الأفكار والعواطف المصطرعة في رأسي وفي قلبي.

«هذه المرأة التي بين يديّ - ما ذنبها إذا هي تعلّقت بي تعلّق الغارق بحبل النجاة؟ ما ذنب العاشق إذا عشق؟ ما ذنبها، والرجل الذي هو في عرف القانون زوجها، رجل غير مكتمل الرجولة، وغير مكتمل العقل، وهو إلى ذلك، دميم الصورة، منعدم الشخصيّة، اتكاليّ في كل شيء - إلاّ في الأكل والشرب والهضم؟ أمّا هي فنزوات الشباب تضجّ في لحمها ودمها، وقلبها يتفتّت جوعاً إلى كسرة من السعادة وقطرة من الحبّ يجود بهما

Twitter: @ketab_n

عليه قلب محبّ. ما ذنب كوتيا - ذلك الطفل في الثلاثين - تربطه الأقدار والشرائع البشرية بفتاة لا تجانس بينه وبينها على الإطلاق؟ ثمّ ما ذنبي أنا تحملني الأقدار من سفح صنين إلى قرية صغيرة في أوكرايينا لتقحمني هناك بين زوج وزوجته؟ إذا أنا تساهلت مع الزوجة أسأت إلى الزوج. وإذا أنا راعيت شعور الزوج جنيت على الزوجة في أعزّ ما تملك، وهو حقّها في أن تحبّ وأن تحيا بحبّها ولو لفترة من العمر.

«والحياة التي مشيئتها فوق كلّ مشيئة - ما قصدها من الزجّ بي في مثل هذا المأزق؟ ألعلّها تمتحنني في رجولتي - في شهامتي - في صلابة عقيدتي؟ أم لعلّها تفتح لي أبواباً لا بدّ من ولوجها لمن كان مثلي لا ينفكّ يتمسّك بالمثل الأعلى في تفكيره وسلوكه وليست له الخبرة الكافية في شؤون الحياة البشرية ومزالقها؟ أم لعلّها أرسلتني لأنقذ نفسي وفاريا وكوتيا من ورطة أسوأ بكثير من هذه الورطة؟

«إنّ قلبي لينفطر شفقةً على كوتيا. لقد حرمته الحياة من كل شيء إلاّ من سذاجة الطفل واستسلامه الأعمى لمن يستأنس فيه أقلّ عطف عليه. وقد اطمأنّ إلى مثل ذلك العطف من قِبَلي. وهو، من فرط احترامه لزوجته - أو خوفه منها - لا يرضيه شيء

Twitter: @ketab_n

مثلما يرضيه أن يراها جذلة، فرحة، وفي عافية طيبة - وعلى الأخصّ من بعد مرضها. أتُراه يؤذيه في شعوره نحوي ونحوها إذا هو عرف عن هيامها بي؟ أم تراه يتقبّل ذلك ببرودة ولا مبالاة؟ أما أنا فكلما فكّرت فيه، من بعد أن سمعت من فاريا ما سمعت، شعرت بوخز في ضميري.

«أحسست خدراً في رأسي ومفاصلي من كثرة الأفكار والمشاعر المتضاربة. وإذا بفاريا تنهض عن كرسيتها وبلمح الطرف تطوّقني بذراعيها، وتنكبّ على فمي بشفتيها مردّدة عند كلّ قبلة: خذها، خذها تذكاراً من فاريا! - بذلك المشهد انتهت «عملية» التحميض...»

مساء ذلك اليوم كنت في طريقي إلى بولتافا...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سنتي الثالثة في السمنار

في بداية سنتي الثالثة في السمنار طغت عليّ موجة كاسحة من الزهد والتقشّف. فالموسى لا تلامس ذقني إلا مرّة في الأسبوع أو الاسبوعين. ودرجات المسرح لا تسمع وطء قدميّ. وغابة الدير وغيرها من المتنزهات لا تبصر لي ظلاًّ. وحفلات الرقص لا يختلج لي فيها قلب ولا يجري نفَس. وحانوت «ناحوم» لا حصة لها في جيبي، ولا حصة لمعدتي في كازوزها وحلواها. وثرثرات رفاقي لا نصيب لها من لساني. والدروس فروض جافة أتمّمها دونما حرارة أو حماسة لأنّها لا مناص في تتميمها، ولأن كرامتي تأبَى عليّ الانزلاق من المرتبة الأولى في الصف إلى ما دونها بكثير. لقد عاودني الحنين إلى الصمت وما فيه من عزلة، وما في العزلة من سوانح للتقرّب من النفس وتفقّد ما في زواياها من بذور صالحة وطالحة، ومحاسبتها على ما كان منها وما تريد أن يكون.

إني أفتش عن شيء كبير - شيء بعيد - شيء مبهم. وكلّ ما عداه يبدو تافهاً في نظري، وطعمه في فمي طعم الرماد. إلاّ

Twitter: @ketab_n

الكتاب. فهو نديمي وسميري ودليلي إلى الذي أفتش عنه - أو هكذا يخيّل إليّ. وإلاّ القلم تستأنس بصريره روحي إذ هي تفضي إليه بأحاسيسها وخواطرها وهواجسها فيملأ صفحات فوق صفحات من «اليوميات»؛ أو يشرد في دنيا الأوزان والقوافي ليعود منها بقصيدة طويلة أو قصيرة يزهو بها إلى حين، ولكنّه لا يلبث أن يزهد فيها ويمضي يفكّر في غيرها.

إذا مشيت في شوارع المدينة أزعجتني مناظر كثيرة، وبعضها كان كالخناجر تطعنني في الصميم. فهذا الضابط الكبير في الجيش - لماذا يتبختر في مشيته كأن له دَيناً في ذمّة اللّه؟ ألعلّه يعتزّ بالسيف على جنبه أم برنّة مهمازيه؟ وأية خدمة تراه يسديها إلى العالم؟ إنّه يتعلّم ويعلّم فنّ تقتيل الناس وتدمير العامر من مساكنهم ومزارعهم. إنّه لا ينتج أيّ خير. فبأيّ حقّ يتجبّر ويتكبّر؟ وتلك السيدة الملتفّة بالأطالس، المتوّجة ببرنيطة مثقلة بريش النعام، والجالسة بمنتهى الأبّهة والاعتزاز في مركبة تجرّها ثلاثة جياد مطهّمة - من أين اطالسها وريش النعام في برنيطتها؟ ومن أين جيادها؟ وكيف لا تخجل من أن تعرضها على أولئك الذين أبدانهم في الأسمال، ووجوههم لا تعرف الصابون؟ وهذه المخازن الفخمة تشعّ في واجهاتها المجوهرات - أيّ نفع منها

Twitter: @ketab_n

للجياع والعطاش والمهانين والمقهورين وجميع الذين لا قدرة لهم على التمتّع بشيء من محتوياتها؟ إنّ عقداً واحداً فيها، أو سواراً، أو قرطاً، أو خاتماً قد يطعم ألف جائع، أو يكسو ألف عريان، أو يبتاع الدواء لألف مريض. فكيف لعنق سيّدة واحدة، أو لمعصمها، أو لشحمة أذنها، أو لخنصرها أن تستأثر بمثل تلك الثروة، وأن يكون لها من الشأن ما ليس لآلاف الآدميين؟

حقّاً إنّه لَعَالَمٌ رأسه إلى أسفل، ورجلاه إلى فوق. عالم قلبه في جيبه، وفكره في بطنه، أمّا ضميره ففي بيت الخلاء. وأبشع ما فيه ادّعاؤه الإيمان بإله كلّه نور، كله عدل، كلّه جمال، كلّه محبة. فلو أنّه كان يعمل بوحي من إيمانه لما ركبته الأوجاع والآفات؛ ولما صبر على نظام يجعل منه طبقات فوق طبقات. منها الشريف ومنها الخسيس. منها المتخم ومنها المعدم. منها المالك والحاكم ومنها المملوك والمحكوم. ولو أنّه كا يعمل بوحي من إيمانه لكان على هدى من أمره. ولكنّه يترنّح ذات اليمين وذات اليسار ولا يدري لماذا يترنّح وإلى أين يقصد. إنّه، على رحابته، لَعالَم ضيّق - عالم يختنق بما تثيره آثامه من غبار ودخان. وغباره يؤذيني، ودخانه يعميني. وإنّي فيه لغريب، غريب.

Twitter: @ketab_n

لقد كان من ذلك كلّه أنّني بنيت لنفسي عالماً من نفسي وفي نفسي. بنيته ملجأ لي من غبار العالم ودخانه. فما لبثت أن وجدته أرحب من العالم بكثير أجول وأجول فيه فلا أنتهي إلى حدّ. وأعود من كلّ جولة وبي دهشة مما ألاقيه فيه من مدى، ومن كنوز، ومن مجاهل يتيه فيها فكري ولكنه لا يرتدّ عنها قانطاً. بل على العكس. يرتدّ وفيه عناد وإصرار على العودة إليها الكرّة بعد الكرّة، وشوق لافح إلى اكتشاف ما فيها من غوامض وأسرار.

ولأن رفاقي ما كان لهم أن يدخلوا ذلك العالم - عالمي - فقد حاروا في أمري، ولم يفهموا من انكفائي الغريب على نفسي إلاّ أنّني رجل يحاول أن يُصلح ما في العالم من فساد. وإذا بي، ذات مساء، ألتفت إلى اللوحة التي كانت تعلّق عليها البيانات من الإدارة فأبصر رسماً كاريكاتوريّاً يمثّلني واقفاً وأمامي مومس مشهورة أرشدها إلى التوبة والعفّة. وإذا بي أقرأ في أسفل الصورة هذه العبارة: «أضعنا رفيقاً ولكنّنا وجدنا نبيّاً». فأضحك في قلبي، وانتزع الصورة عن اللوحة لأحتفظ بها ذكرى لعهد من عهود شبابي. ويمضي الشباب، ويمضي معه الكثير من ذكرياته المحسوسة، ولا يبقى غير هذا القلم ليحدّث عنه وعنها.

كانت سنتي الدراسية الثالثة سنة فوران فكري وعاطفي

Twitter: @ketab_n

وروحي. وقد واظبت فيها على تدوين يوميّاتي باللغة الروسية. فملأت ٣٧٧ صفحة في شتى الأحداث والانطباعات والتأمّلات التي نبتت لي ما بين منتصف أيلول ١٩٠٨ وحتى الواحد والعشرين من أيار سنة ١٩٠٩ . ولأن تلخيص تلك الصفحات يفقدها الكثير من رونق العفوية فقد رأيت أن أقدم إلى القارئ نتفاً مختارة منها على نحو ما فعلت في فصل سابق. ولن أتقيّد في ما أختاره بتسلسله في الزمان. بل بأهميته من حيث تأثيره في حياتي ودلالته على تطوّر تلك الحياة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حصيلة السنة الثالثة

«... قلّما أخرج في هذه الأيام من بناية المدرسة - وحتى من غرفة الدرس. إنّني منشغل عن العالم بنفسي، أحاسبها على كلّ خطوة، ولا أهتمّ إلاّ بما يدفعها في السبيل إلى الهدف الذي أقمته لها. وكلّ ما عدا ذلك يبدو تافهاً في نظري... ونفسي خضمّ هائل لا تنفكّ تثيره عواصف الشكّ حيناً، وحيناً لواعج الشوق إلى ما يبدو لي غير قابل للتحقيق. في البحر مدّ يليه جزر. أمّا نفسي ففي مدّ أبديّ...»

* * *

«... نعتزّ - نحن النّاس - بأنّنا، جيلاً بعد جيل، نتحرّر من ربقة الأرض. ونحاول أن نعرف إذا كان القمر والمرّيخ وغيرهما أجراماً مأهولة، وما هو نوع أهلها، وكيف يعيشون. وما نفعنا من ذلك ما دامت الأرض آهلة بالشرور ونحن لا نعمل شيئاً في سبيل التغلّب عليها واستئصالها؟ أليس الفقر والظلم والجهل آفات مقيمة في الأرض؟ أليس أنّنا نبيد بعضنا بعضاً بالحروب وغير الحروب؟

Twitter: @ketab_n

إنّها الجريمة فظيعة أن تريق دم إنسان بالسيف أو بالخنجر أو بالمسدس أو بأية وسيلة أخرى. أمّا الجريمة الأفظع فهي أن تقتل الإنسان من غير أن تريق قطرة واحدة من دمه. كأن تسلبه اللقمة، أو أن تسدّ عليه سبل العيش. وهذه الآفات، وهذه الجرائم هي آفاتنا وجرائمنا. ولن ينجينا منها غير جهدنا...»

* * *

«... مثلي الأعلى هو أن أخدم الغير بقلمي خدمة شريفة، نزيهة. وهدفي هو أن يكون لي قلم يستطيع تأدية تلك الخدمة بقوّة واندفاع.»

* * *

«... وصلني كتابان من الشقيقين في أميركا. في أحدهما يصف لي أديب ما عاناه من التيفوئيد، وكيف أنّه أشرف على الموت. ويختتم الكتاب بقوله: «لقد كان أخوك ميتاً فقام» - ما أوسع رحمتك يا ربّي!»

* * *

«... الهواء في غرف النوم لا يُطاق - وعلى الأخصّ في الشتاء. إنّه مثقل بالحموضة والروائح المزعجة. وما همّ الإدارة

Twitter: @ketab_n

بالهواء الذي يتنفّسه الطلاّب؟ فجهاز لتنظيف الهواء يكلّفها فلوساً. والفلوس أعزّ لديها من صحّة الطلاّب. أمّا الطلاب المساكين فلا لوم عليهم إذا هم أحكموا غلق الشبابيك هرباً من البرد. والتدفئة تكاد تكون معدومة. فأن يغفو أحدهم دافئاً، مهما يكن الهواء الذي يتنفّسه، لأهون عليه بكثير من أن يسهر الليل وهو يقرع سنّاً بسنّ. لذلك يملأ طلاّبنا شوارع المدينة بعد ظهر كلّ يوم طلباً للهواء الطلق والرياضة. ولذلك يدعونهم في المدينة «مشاة المسيح».

* * *

«... بدأت اليوم أكتب تمثيلية عربيّة. وللحال شعرت بأنّ تغيّبي سنتين عن بلادي قد جعل اللغة الروسية أطوع لقلمي من العربيّة. ومن ثمّ فهناك عقبات كثيرة تقوم في وجه التمثيلية العربيّة. منها ازدواج اللغة بين الفصحى والعامية. ومنها فقدان الممثلين - والممثلات بالأخص. ومنها المستوى الثقافي في البلاد. إنّه لا يزال منخفضاً جدّاً. ومنها اختلاف الطوائف والعادات واللهجات حتى لتكاد كلّ قرية تستقلّ بأشياء غير مألوفة في قرية مجاورة. أما الفنّانون الذين يتولّون ترتيب المسرح وتصوير المشاهد فلا وجود لهم. المثل الروسي يقول: لا تستطيع أن تطارد أرنبين

Twitter: @ketab_n

في وقت واحد. وأنا أحاول أن أكتب بالروسيّة وبالعربيّة. وأخشى أن أنتهي لا هنا ولا هناك...»

* * *

«تمثّلت اليوم في صفّنا مأساة وحشية إلاّ أنها - ويا للأسف - لم تكن غريبة عن حياتنا. لقد طرد الطلاّب من الصف أستاذ اللغة اللاتينية. وهو رجل طاعن في السنّ، وقد مضى عليه أستاذاً في السمنار ٢٩ سنة!.. رفاقي يريدون من المعلّم أن يعاملهم معاملة الندّ للندّ. فلا يؤنّب أحداً، ولا يعطي أيّاً منهم علامة رسوب، ولا ينزل القصاص بأحد، ويغضّ الطرف عن جميع شيطناتهم. وعندهم لكلّ معلم كنية خاصّة تتناقلها أجيال الطلاّب عاماً بعد عام. ومعلّم اللاتينية يكنّى «الدجاجة». ففي مشيته ما يشبه مشية الدجاجة. أما تقاسيم وجهه فتدل على أنّه، في شبابه، كان رجلاً وسيماً.

«لقد أصيب المسكين منذ عام بالفالج. فسرت الإشاعة في المدرسة أنّه فقد عقله. لكنه برئ من الفالج وعاد إلى عمله. والمعروف عنه أنّه يحب القدح. دخل الصف اليوم وبدلاً من أن يدعو تلميذاً بعينه سأل إذا كان هنالك من راغب في قراءة المثالة المفروضة. فلم يلق جواباً من أحد. وأعاد السؤال ثانية وثالثة. وإذا

Twitter: @ketab_n

بالصف يهدر: «ليس بيننا من راغبين». وعلا الهدير. فامتعض المسكين أشدّ الامتعاض وراح يصيح بأعلى صوته مهدّداً بالخروج من الصّف. فكان جواب التلاميذ: «تفضّل واخرج!» وإذ لم يخرج من تلقائه أخرجوه بالقوة وهم يصرخون في أثره: «دجاجة! دجاجة!» عندها انفجر العجوز بالشتائم: «خنازير! أوباش! أنذال! مجانين!» وكان في انفجاره ما يثير الضحك والبكاء في آن... إنّ ما يجرح في تصرّف رفاقي اليوم هو استئسادهم مع الضعفاء من معلميهم، وجبنهم تجاه الأقوياء...»

* * *

«بعد ظهر اليوم (١٢ تشرين الأول) جاءني أليوشا، والبشر يطفح على وجهه، والانفعال بادٍ في صوته، ليعلن: «فاريا وكوتيا في بولتافا. فلنذهب إليهما في الحال!» ولم أستطع أن أفهم منه متى كان قدومهما، ولماذا، وفي أيّ فندق نزلا. فقد كان يردد بإلحاح: عجّل. عجّل!

«لم يفرحني الخبر. لأنّ وجود فاريا في المدينة سيقطع عليّ مطالعاتي، وسيخرجني من عزلتي التي ألفتها وأحببتها، والأهمّ أنه سيُكرهني على أن ألبس وجهاً غير وجهي، فأتظاهر بما ليس فيّ. وذلك يؤلمني. إني أعلم أنها ما جاءت إلاّ بدافع شوقها إليّ. لقد

Twitter: @ketab_n

عطشت عيناها إلى نظرة من وجهي - كما قالت لي فيما بعد... تحسّنت صحة فاريا كثيراً. ولم يبق من آثار المرض في وجهها إلا القليل... كان من دهائها، وهي تريد خلوة معي، أن أرسلت أليوشا وكوتيا إلى التياتر في المساء. وهكذا بقيت وإيّاها وحدنا في الغرفة. جلستُ على المقعد الكبير، وبقِيَتْ واقفة قبالتي. ورحتُ أستعدّ لصدّ هجماتها. وطال السكوت. أخيراً تحركت شفتاها لتقول بصوت مضطرب:

- لا شكّ أن مجيئي إلى بولتافا أزعجك.

- على العكس. فقد كنت أتوقعه. ولكنه، مع ذلك، كان مفاجأة لي...

- حتى لتتمنّى لو يأخذني الشيطان عنك. ولماذا كنت واثقاً من مجيئي؟

- آ... بذلك أنبأني شعوري.

- إيه ميشا! لأنّك تعرف عظيم تعلّقي بك أيقنت أني آتية إليك لا محالة. لم يكن في مستطاعي أن أفعل غير ذلك. يجب أن تكون في جِلدي، أن يكون لك قلبي، لتعرف ما كابدته في هذه الفترة القصيرة من بعد ذهابك. أتصدّق أن النوم هرب من أجفاني؟ أتصدّق أنّني جلست لأكتب إليك ذات ليلة،

Twitter: @ketab_n

ولا أدري لماذا كنت أرتجف كالورقة، وإذا بي أبصرك أمامي كما أنت بالتمام. أبصر هاتين العينين (ولمست بإصبعها عينيّ). فأبسط لك يدي المرتجفة. ولكنك تختفي في الحال؟ لا. لن تفهم شيئاً من ذلك. هذه أمور تبدو لك خرافات. ولكن إليك الرسالة التي كتبتها وكنت مزمعة أن أبعثها بالبريد. فآثرت أن أحملها إليك بيدي. لقد خانني جلدي. وفيمَ الكلام وهو لا يحرّك فيك ساكناً؟

- ألعلّك تحسبينني حجراً؟

- أتعني أنّ بإمكاني أن أترجّى؟..

- ما أغربك تعودين دائماً إلى النغمة عينها.

- ألعلّك بَرِم بي؟ - طرحت السؤال واقتربت مني لتأخذ يدي بيدها.

- بل يلذّ لي أن أسمع شخصاً يحبّني يعبّر عن حبّه بمثل هذه الكلمات.

عندها نهضت وطوّقتني بذراعيها وانكبّت على فمي في قبلة طويلة، ملتهبة. إلا أن تلك القبلة ما أثارت الحبّ في قلبي وأثارت الشهوة في جسدي. فغضبت من نفسي وصممت أن أكون صريحاً من غير أن أجرح القلب الذي بجانبي جرحاً بالغاً.

Twitter: @ketab_n

فقلت متصنّعاً الأسف:

- جمعينا الأقدار يا فاريا بعد فوات الأوان.

- أجل. بعد فوات الأوان. ولكن... هل فات الأوان حقّاً؟

- ألعلّك لا ترين أن اتّحادنا متعذّر؟

- ولماذا؟ يكفي أن لا تعارض أنت.

أذهلني هذا الجواب. فما كنت أقدّر أنها تتعامى إلى ذلك الحدّ عن الفوارق العظيمة بيننا. فلو تجاهلتُ فارق السنّ لما استطعت أن أتجاهل أنّني طالب، ولا أزال بعيداً عن نهاية دراستي. ولو تساهلت في ذلك فكيف أتساهل في أمر زواجها؟ وهل يخطر في بالها أنّني، من أجلها، سأقضي على حياة كوتيا - ذلك الطفل البريء الذي لا قدرة له ولا معين؟ لم أصدّق أنها تتعامى عن العقبات التي ذكرت. لذلك جئتها بعقبة جديدة - عقبة الغربة عن أوطانها والاندماج في بيئة غير بيئتها. فقلت:

- وهل تذهبين معي إلى سوريا؟ - فجاء جوابها:

- إلى آخر العالم. حسبي أن أكون حيث جوابها:

للّه ما أعند الحب! إنّه يأبَى الاندحار ما دام له ولو خيط عنكبوت يتمسك به. وإذا انقطع الخيط وصله بدموعه. وكثيراً ما يفعل الدمع حيث لا يفعل السيف أو الكلمة.

Twitter: @ketab_n

- ما ذنبي - أجل - ما ذنبي إذا أنا وقعت في حبك يا ميشا؟ ليس لي أيّ سلطان على شعوري. ولو كان لي سلطان لاقتلعت حبّك من فؤادي فأرحته واسترحت. أفلا أذنت لي أن أحبّك؟ إن ذلك يكفيني.

ربّي! كيف لي أن أحطّم قلباً يخاطبني بمثل ذلك الخطاب!؟

بعد يومين كانت لي سهرة ثانية مع فاريا على انفراد. وكانت أعنف من الأولى بما تخلّلها من أحاديث ومطارحات، وبما أثارته من صراع مع الشهوات التي تمكّنتُ من التغلّب عليها ومن صيانة عفّتي. ولكن بمشقة بالغة. لقد حاولت غير مرّة، بالتصريح وبالتلميح، أن أقطع أملها. قلت لها: «انزعيني من فكرك ومن قلبك. دعيني أمضي في سبيلي، ولا تذكريني بسوء». ولكنها لم تقطع الأمل. ولو أنها لمست أقلّ تساهل من قِبَلي لبقيت الشتاء كله في بولتافا. ولكنّ تحفّظي جعلها تغادر المدينة في صباح اليوم التالي. ودّعتها نحو نصف الليل وأنا أحسبني أودّعها وداعاً لا لقاء بعده. فما كان أقصر بصري!»

* * *

«... في السمنار وشوشات وغمغمات. من السمنارات

Twitter: @ketab_n

الأخرى تأتينا نشرات تهيب بالطلاب أن يكونوا يداً واحدة في الدفاع عن حقوقهم التي سلبهم إياها المجمع المقدّس: «بالكفاح تنال حقّك!» - تلك هي كلمة السرّ اليوم. المسموع أن جميع الجامعات مقفلة. ومن الأكيد أنّ السمنار لن تتخلّف عن الركب...: طلابنا القدماء يتذكرون بالكثير من الحرقة والغضب الحريات الواسعة التي نالوها بعد ثورة ١٩٠٥ . والتي باتت اليوم ذكرى لا أكثر... في جملة القيود الجديدة أنّه بات محظوراً علينا زيارة المكتبة العموميّة والانتفاع بما فيها من مؤلفات...»

* * *

«أطالع في الأيام الأخيرة بعض الكتّاب الشباب أمثال غوركي وأورنبورغسكي وزولوتاريف. تعجبني نزعتهم إلى التجديد. فالأسلوب عندهم يتدفّق حياة ولوناً. والإله الذي باسمه يسبّحون هو «الشعب العظيم». ذلك ما يجاهر به غوركي في كتابه «الاعتراف». فهو يقول إنّه فتّش طويلاً عن الإله المسيحي فلم يجده في الكنائس، ولا في الأديار، ولا في مغاور المتعبدين والمتنسكين. هذا الكاتب الموهوب يستطيع بقلمه أن يجعل من الصحراء القاحلة خميلة غنّاء. لقد أحببت فيه الفنّان على قدر ما أحببت فيه عميق تفهمه للمصائب البشرية. ولا عجب، فهو

Twitter: @ketab_n

نفسه قد مرّ «من خلال النار والماء» - على حدّ التعبير الروسي...»

* * *

«... يجري الآن في صفّنا جدل عنيف بين ما يمكن أن ندعوه «اليسار» و «اليمين». يقول أحد اليساريين: «من العار علينا نحن طلاّب السمنار أن ننشد، أو أن نجعل جدراننا تسمع النشيد الامبراطوري. فالمعروف عنّا أنّنا نميل إلى حزب الشعب». فيجيبه اليميني: «هذه نغمة سمعناها من زمان ولن يكون لها أيّ شأن في حياتنا. إضرب على غير هذا الوتر...»

* * *

«جاءنا مربّ جديد اسمه «افرامنكو». وقد تحدّث إلينا اليوم في واجبات المربّي فقال إنها أوسع بكثير وأهمّ مما يراها ويمارسها جمهور المعلمين. فلا بدّ للمربّي من الاتصال الدائم بتلاميذه - في الصف وخارج الصف. فيؤلف لهم الحلقات للمطالعة والمناقشة في شتى الأمور التي من شأنها أن تعمل على تفتّحهم وتوسيع مداركهم. ولكن إدارة المدرسة - ويا للأسف - لا تسمح بتشكيل مثل تلك الحلقات. بل هي تحذّر الأساتذة من الاختلاط بالطلاّب في أيّ حلقات. ولأنّه لا يستطيع أن يقاوم

Twitter: @ketab_n

الإدارة فهو سيعمل كلّ ما في طاقته ليكون عوناً لنا في توسيع ثقافتنا العامّة. ولن يبخل على أيّ منّا بما يملك من كتب في الأدب والاجتماع لمطالعتها. لقد استمالني افرامنكو بحديثه وبما في وجهه من معان إنسانية...»

* * *

«... وصلني اليوم من نسيب عريضة عدد من جريدة عربية تصدر في نيويورك، وفيه أن لبنان رفض أن يرسل ممثّلاً عنه إلى مجلس «المبعوثان»، وآثر أن يبقى مستقلاً عن الدولة العثمانية. اللهمّ آمين!.. بلادي تجتاز اليوم مرحلة من أدقّ مراحل حياتها، وهي في أمسّ الحاجة إلى رجال مثقفين يوجهون خطاها، ويكشحون الظلمة عن عينيها. وأنا أريد أن أكون واحداً من أولئك الرجال. أريد أن أنشر في بلادي روحاً تتحسّس القيم الإنسانية العالية وتنهج نهجاً اشتراكيّاً في حياتها. ولا أريد لبلادي أن تغرق في رغوة المدنية الغربية. بل عليها أن تغوص على الصالح والجميل في أعماق تلك المدنية...»

* * *

«... أمري غريب مع ما أكتب. فأنا لا أعود عليه بالتنقيح كما يفعل الكتّاب. إذا مسحت قلمي من قصيدة أو مقالة شقّ

Twitter: @ketab_n

عليّ أن أبدّل فيها عبارة أو كلمة. هكذا وُلِدَتْ. وهكذا يجب أن تبقى. انتهيت اليوم من قصيدة طويلة عنوانها «المتوحّدة». وعندما تلوتها على أليوشا أعجب بها جدّاً. إلاّ أنّني أحبّ أن أستأنس برأي رجل خبير. ويبدو لي أن «أفرامنكو» هو ذلك الرجل...»

* * *

«ذكّرتني رسالة جاءتني من الخال بما كان من الإثم عليّ أن أنساه. ذكّرتني بالوالد الذي تركه أبناؤه الكبار يعمل وحده في الشخروب فاضطرّ إلى الاستعانة بأخيهم الصغير نجيب. وهكذا أُخرج ذلك الأخ الحبيب من المدرسة وهو في الثامنة من عمره. إنها الجريمة. وهي جريمتي لا جريمة الوالد المغلوب على أمره. فبأيّ حقّ أدرس لأحرم أخاً أصغر منّي من المدرسة؟ وبأيّ حقّ أبني مستقبلي على حساب مستقبل أخي؟ لست من القائلين: من بعدي الطوفان. لذلك كتبت إلى البيت وقلت لهم بمنتهى الجدّ والإخلاص إنهم إن لم يعيدوا الحبيب نجيب إلى المدرسة فأنا مستعدّ أن أقوم مقامه. وسيبقى ضميري يبكّتني إلى أن أعرف أنّ أخي رجع إلى المدرسة...»

* * *

Twitter: @ketab_n

«... لكأنني اليوم في السماء السابعة... كنت، منذ أيام، قد عرضت على أفرامنكو قصيدتي «المتوحّدة». فدعاني اليوم إليه ليقول إنها لم تدهشه وحده بل أدهشت الكثير ممن تلاها عليهم، وفي جملتهم أستاذ المنطق، وهو رجل معروف باتزانه ورصانته. ومما زاد في دهشتهم أنّني، وأنا الغريب عن اللغة الروسيّة، أتصرّف بها تصرّف الواقف على أدقّ قواعدها وقوالبها وخفاياها، وأن شعري يتميّز بالرشاقة وعذوبة النغم. والكلّ يعتزّ بأن يكون في السمنار طالب مثلي، وينصح لي بالمضيّ قدماً في السبيل الذي اخترته... وبلغ الخبر رفاقي فراح الواحد يقول: «إلى الأمام! إلى قمة الأولمب!» والآخر يتنبّأ لي بشهرة واسعة، والثالث يحسدني على موهبتي... إي، جميل ولذيذ أن يتفرّد الإنسان وأن يسمو فوق الجماهير. أما الأجمل والألذّ فهو أن ينسى الإنسان نفسه...»

* * *

«... كنت أطالع «محاولة فلسفة الأدب الروسي للكاتب أندرييفتش». فلم يكن في استطاعتي إلاّ أن أقارن بين أدبنا والأدب الروسي. للّه ما أكبر الهوّة التي تفصلنا عن الغرب! ما أحلك الظلمة التي نعيش فيها، وما أشدّ تعلّقنا بقشور الحياة دون

Twitter: @ketab_n

لبابها!.. ما أفقرك يا بلادي! حتى المشاعل العالميّة من طراز تولستوي لم تخترق سواد ليلك بعد...

«جاءني من أخويّ في أميركا أنّ أشغالهما في تقدّم وتوسّع. بوركتما أيها الحبيبان وبورك تقدّمكما! إلاّ أن أخاكما في روسيا أبعد ما يكون عن أن يجعل من كسب المال، ومن التمتّع بالرفاهية وملذات الدنيا هدفاً لحياته... بدأت أشعر أنّني، بالتدريج، أبتعد عن العائلة في تفكيري ونهج حياتي... وكيف لأمي أن تفهمني وهي التي غير مرة، وعلى مرأى ومسمع مني، كانت تهاجم والدي لأنّه لا يعرف مورداً لرزقه إلاّ الأرض، ولا حيلة إلا المحراث؟ وهذه الأمّ التي أكنّ لها اصفى المحبّة وأحرّها تتوقع منّي أن أغمرها وأغمر العائلة في المستقبل بالمال والترف. ولكم غمّها أن تسمعني أجاهر بأنّني لن أكون رجل كسب - رجل مال.»

* * *

«... كلمة ضجر لا وجود لها في قاموسي. إنّني أتتبّع نموّي الروحي بدقّة متناهية، ولا أجعل دقيقة من وقتي تذهب سدى... حتى نومي يتحوّل إلى شبه يقظة ما دام فكري يحوم حول أشياء تستهويه. فتزدحم في رأسي أغرب الخيالات والصور والأشباح، وتتراقص فيه الكلمات والقوافي. وهكذا لا يستريح

Twitter: @ketab_n

دماغي حتى في السرير. لذلك أنام وتحت وسادتي دفتر وقلم رصاص... لأذهبْ إلى النوم وإن كنت لم ألتفت إلى أيّ من دروسي في الغد.»

* * *

«... سأموت يا بلادي وأنا على يقين من أنك ستحطمين أصفادك. إيه أيتها الحرية! ما أضيق الإطار الذي يضعك الناس فيه! إن شعبنا المسكين يتوهّم أنّه بات حرّاً بمجرد حصوله على «دستور» من مستعبديه. وهو لا يعرف أن كلّ سلطة هي استعباد، وكلّ تبعية هي عبودية...»

* * *

«... نظرت اليوم إلى وجهي في المرآة فذعرت من اصفراره، ومن شحوبه. إنّه وجه رجل في الستّين. أو رجل مصاب بداء الصدر. عليّ أن أستريح، أن أهجر الكتابة إلى حين.»

* * *

«أمضيت سهرتي البارحة في بيت أستاذ الأدب بدعوة من ابنته «ليدا». وقد حسب رفاقي ذلك نصراً مبيناً لي، لأنهم يعرفون حرص الوالد على ابنته الوحيدة. فهو لا يسمح لها بمعاشرة طلاب

Twitter: @ketab_n

السمنار. لأنهم، في نظره، قوم فاسدون. وهو لا يرضى لها إلا «بالنخبة»... ليدا فتاة لطيفة. ناعمة، جميلة. ولكن تربيتها البيتيّة جعلت منها عصفورة في قفص... بعد جدال عنيف في أمور تتعلق بالكنيسة التفتت إليّ وقالت، بين الجدّ والمزح: «أرجو أن أردّك إلى الصراط المستقيم في أحاديثنا القادمة - أن أجدّدك». لا. لن يتاح لك ذلك يا عزيزتي. بل الأصحّ أني سأردّك إلى الصواب وأخلقك خلقاً جديداً...»

* * *

«... أمس قرأوا لنا العلامات عن الربع الأول من السنة. ولشدّ ما أذهلني وأذهل رفاقي أن تكون جميع علاماتي «٥». فرفاقي يعرفون، وأنا أعرف، أنّني كنت قليل الاهتمام بدروسي... أينما حلّ أفرامنكو يحدّث عنّي، أو يلقي شيئاً من شعري. كم أنا ممتنّ لهذا الإنسان على ما يبديه من عطف عليّ واهتمام بجهودي الشعريّة. إنّه يعاملني معاملة الصديق. وأبداً لن أنساه... لعلّ ليدا سمعته يتحدّث عنّي. ولذلك طلبت إليّ عندما تلاقينا أمس أن أزورها مساء الأحد المقبل ومعي مجموعة قصائدي...»

* * *

Twitter: @ketab_n

«يبدو أن صداقتي مع ليدا قد تسبّبت لي بتمضية حصّة من عطلة الميلاد عند عمّها وعائلته. وعمّها كاهن في قرية بعيدة عن بولتافا، وأحد أبنائه رفيق لي في الصف. وهو الذي دعاني بالحاح إلى زيارتهم فقبلت الدّعوة لأنّه يشوقني أن أدرس القرية الروسية عن كثب.

«الخوري والخورية، وابنان أحدهما أكبر مني والثاني في مثل سني، وكلاهما طالب في السمنار. ثم ابنة في الخامسة عشرة تدرس في «مدرسة الأبرشية» التي بقرب السمنار واسمها «ماروشيا» - تلك هي العائلة التي نزلت في ضيافتها. وهي عائلة طيبة من جميع الوجوه... تخشعت عندما حضرت صلاة ليلة الميلاد في كنيسة القرية. فقد كانت الكنيسة بالمصلّين كالرّمّانة بالحبّ. وأكثرهم من الفلاّحين. إنّ خشوع أولئك الناس البسطاء هو الذي أدخل الخشوع إلى قلبي. عجيب هو الفلاّح الرّوسيّ بإيمانه، واستسلامه للكنيسة، وبصبره على المشقّة والحرمان، وبمحبته لأرضه وتفانيه في الدفاع عنها...

«في أثناء إقامتي القصيرة عندهم انشغفت بي «ماروسيا» أيّما انشغاف. وكنت أبادلها الحبّ لولا أنّها لا تزال طفلة بمداركها. إنها تقطر عذوبةً وطهارة وجمالاً. وقد طلبت إليّ أن

Twitter: @ketab_n

أدوّن لها في «الألبوم» أبياتاً للذكرى ففعلت».

* * *

«ربّي! ما هذا الذي يجتاحني اليوم؟ (٢٨ كانون الثاني ١٩٠٩). أمشي كالمصروع، وكلّ عمل أقدم عليه ينهار من يدي. لكأنني غريب عن نفسي. بل كأن نفسي شيء زريّ. شيء محتقر في عينيّ. تساورني شتى الأسئلة المحيّرة. لقد ساورتني من قبل. ولكنّها تقوم اليوم بهجوم صاعق عليّ: مَن أنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ ولماذا أعيش؟ ولمن أنا ضروري؟ الخ الخ... تلاحقني هذه الأسئلة دون شفقة وتلحف في طلب الجواب. وكان بإمكاني تجاهلها لولا أنّني أتطلّب الكثير - لولا أنّني لم أشيّد لنفسي الأبراج الشاهقة، ولم أحلّق بأفكاري في أجواء بعيدة، بعيدة... إنّني أريد أن أكون من بُناة عالم أفضل. أريد أن أنتصر للمظلوم. أريد أن أفعل ذلك بقلمي. ولأنّني أخشى أن لا يكون لي ما أريد تجتاحني في بعض الأحيان سورة من الغضب الوحشي على نفسي حتى ليهون عليّ معها أن أمزّق نفسي بالخناجر، أن أمرّغها في الوحل، أن أبصق عليها... بيني وبين الأدب عهد كالذي بين حبيب وحبيبته...

Twitter: @ketab_n

«درجة الصقيع اليوم ٢٠ تحت الصفر. لذلك تحنّنت الإدارة فأضرمت ناراً في الموقد. واغتنم بعض رفاقي في الصف هذه الفرصة فراحوا يشوون على النار شحم الخنزير. وهم يأتون به من بيوتهم. ولا تسل عن الدخان الذي انعقد في جوانب الغرفة وعن الروائح التي انتشرت فيها. وزاد في الطين بلّة أنّ بعضهم راح يدخّن السجاير وهو أمر محظور في الصف. وما من حيلة في مثل هذه الحالة مع العابثين بالنظام إلا أن تخاطبهم باسم الجماعة فتقول: «الرفاق يرجون كيت وكيت.» فيمتنع المخالفون عن مخالفاتهم...»

* * *

«لأفرامنكو شقيق يدرس في جامعة خاركوف. وقد كلفه اليوم أن يحمل معه طائفة من قصائدي ليعرضها على أستاذ الأدب في الجامعة. ويقال إنه رجل لرأيه وزن وقيمة...»

* * *

«كنّا سبعة من الرفاق في حانوت ناحوم. وكنّا في هرج ومرج إلى أن جرّنا الحديث إلى المدنية الحاضرة. فرحت أهاجمها بعنف وأبيّن كلّ ما فيها من خداع وزيف وفساد في النظم والأخلاق بالمقارنة مع حياة الفطرة التي لا تزال تتجلّى في القرية

Twitter: @ketab_n

وأبنائها القريبين من الأرض... كنت، من حيث لا أدري، أدافع عن نظرة روسو وتولستوي لأنها تتّفق ونظرتي. واحتدم الجدال وأنا وحدي ضدّ ستة. ولكنني، في النهاية، خرجت ظافراً... إلا أنّني أعود فأسأل نفسي: لماذا ولعي بالشعر؟ وجوابي هو أنّني لا أعترف بالشعر فنّاً لأجل الفنّ. وأؤمن به فنّاً يلتصق مباشرة بالحياة ويخدم أغراضها. فهو فنّ جميل ونافع إذا ما اهتمّ بتصوير آلام الناس وأحزانهم ومشكلاتهم ليوقظ الغافل من ضمائرهم، ويخلق فيهم الشوق إلى حياة لا تكون غريبة فيها كلمات من نوع حرية - مساواة - إخاء...»

* * *

«... كلما ازداد اختلاطي بالعالم، ازداد كرهي له. سيأتي يوم أقطع فيه صلاتي بالعالم وأعود «إلى قوقعتي» - على حدّ تعبير نادسن. أمّا الآن فلا بدّ من البقاء في العالم...»

* * *

«... رافقت اليوم «ماروسْيا» إلى محطة القطار. إنها في طريقها إلى البيت لتمضية عطلة المرافع... وقد توسّلت إليّ بمنتهى الحرارة أن ألحق بها بعد يوم أو يومين. لكم راقني أن أسمعها تبوح لي بحبّها. هذه الوردة الحبيّة، الزكيّة، الجميلة، الطاهرة تتفتّح

Twitter: @ketab_n

الآن باسمي ولأجلي. وهي كالعجينة بين يديّ، أستطيع أن أخلق منها ما أشاء. إذا قلت لها اقرئي هذا الكتاب أو ذاك، وقولي أو لا تقولي، وافعلي أو لا تفعلي كيت وكيت أجابت: أعاهدك بأنني لن أفعل غير ما تريد... ولكنك تهزأ بي... أمّا إذا كنت تبادلني ذرّة من حبّي فأنا، لا شكّ، أسعد مخلوقات اللّه.

«لا أستطيع حتى الآن أن أحدّد شعوري تجاهها. إنّه ليس الحبّ الذي ترافقه العواصف النفسانيّة، وخفقان القلب، والسهاد، والرغبة في أن تكون أبداً بجانب المحبوب. ولا هو الحبّ الذي يبني أبراجاً في السماء. إنّه أقرب إلى محبّة الأخ لأخته الأصغر منه - يقبّلها بلهفة ولذّة، يضمّها إلى صدره، يحملها على ذراعيه ويحاول بشتى السبل أن يُدخل الفرح والغبطة إلى قلبها... بلى. سأكون لها أخلص من أخيها، وأرفق من أختها، وأحنّ من أمّها... «ترأف بي!» - ذلك آخر ما سمعته منها عند الوداع...»

* * *

قرأت «حياة يسوع» لرينان... يبدو لي أن المؤلف الذي حاول أن ينزع صفة الألوهة عن المسيح عاد فألّهه عندما وضعه في مرتبة من الكمال البشري لم يرقَ إليها - ويتعذّر أن يرقى إليها

Twitter: @ketab_n

- أيّ إنسان. أمّا سكوته عن الكثير من «عجائبه» فدليل على أنّه لم يفهمها، أو لم يستطع تفسيرها... لقد كان الإنجيل - ولا يزال - عزائي الأوحد. وسيبقى كذلك.

«وأنا في خضمّ هذه الأفكار والاضطرابات النفسانيّة إذا بكتاب يأتيني من ماروسيا فينثلج له قلبي. تقول ماروسيا:

«أنت تعرف عظيم حبّي لك وشوقي إليك. لذلك أرجوك ألاّ تعذّبني. بادر إلينا في الحال. يستحيل عليّ أن أصف ما يدور في نفسي الآن. فأكتفي بالقول إنّني أحبّك فوق محبّتي لأيّ إنسان أو أيّ شيء في العالم. في كلّ يوم أتسلّل خلسة - ومرات عديدة - إلى المكتبة حيث رسمك فأشبعه تقبيلاً. آمل أن أراك عندنا قريباً». ثم هذه الحاشية: «مزّق هذا الكتاب. إني أعلم أنّك ستهزأ به. ولكن يجب أن تعلم أنّه أول كتاب (من نوعه) أكتبه في حياتي».

«... قد يكون من الخير أن ألبّي نداء ماروسيا. فالبقاء في السمنار - وعلى الأخص في أوّل الصوم الكبير - يعني الذهاب إلى الكنيسة يوميّاً، ثمّ الاعتراف والمناولة...»

* * *

Twitter: @ketab_n

«... أهل ماروسيا وبعض الضيوف يلعبون بالورق في غرفة المائدة. وأنا وحدي في الصالون أنظم حلماً غريباً أبصرته الليلة الماضية وبخاطري أن أقدّمه تذكاراً منّي لماروسيا على أنّها الفتاة التي ظهرت لي على قمة الجبل[١]. ماروسيا تطلّ عليّ الفينة بعد الفينة لتبرّد قلبها بنظرة، أو بكلمة، أو بحركة. وكان في آخر إطلالة أن تعانقنا وتبادلنا القبل. فكانت القبلة التي أعطيتها أطيب قبلة، والتي أخذتها - أطهر قبلة. وفرّت المسكينة كالخشفة المذعورة مخافة أن يباغتنا أحد. ليته كان لي أن أبصر وجهها في تلك اللحظة. فقد كنّا في شبه عتمة...»

* * *

«... تسري في السمنار إشاعات منعشة. يُقال إنّنا سنُعفى من الامتحانات في آخر السنة، وإن عطلة الصيف ستبدأ قبل موعدها بشهرين تقريباً. والسبب هو أن الدولة تستعدّ لأن تحتفل احتفالاً كبيراً بمرور مئتي عام على موقعة بولتافا (٨ تموز ١٧٠٩). فلا بدّ للمدينة من أن تلبس لباس العيد، ولبناية السمنار من أن تجري فيها بعض الترميمات، لأن الامبراطور سيحضر الاحتفال،

(١) هو عين الحلم الذي رويته بعد سنين بلسان «مرداد». انظر الطبعة العربية الثانية من «كتاب مرداد» صفحة ٢٤٧ .

Twitter: @ketab_n

وبمناسبة حضوره سيجري عرض عسكري كبير... اشتاقت نفسي إلى الأهل - إلى إخوتي الصغار - إلى الشخروب وأشجاره وصخوره وأعشاش السنونو والخطاف تحت أطناف صخوره. اشتاقت إلى صنين - إلى لبنان. جميل أنت يا لبنان في عريك وبساطتك. ولكن النير التركي شيء قبيح...»

* * *

«... أحسّني مرهقاً جدّاً. لقد أكرهت في اليومين الأخيرين أن أكتب أربع مسابقات في موضوع واحد. إحداها لي. والثلاث الباقية لثلاثة من رفاقي. أمّا الموضوع فتحليل بعض الشخصيّات في أربع من تمثيليات «أوستروفسكي». وإنّه لأمر من المشقّة بمكان أن تغير وتبدّل في التحليل بحيث لا يلحظ الأستاذ أن كاتب المقالات الأربع واحد لا أربعة...»

* * *

«أنهيت قراءة المجلد الثالث والأخير للكاتب «كوستوماروف» عن «بوغدان خمِلْنيتسكي» - بطل أوكرايينا... يا للحرية كم أريقت في سبيلها دماء، وزهقت أرواح! كلّ شعوب الأرض جاهدت من أجلها - الأوكرايينيون، الروس، الفرنسيون، الانكليز، الأميركان، اليونان، البولونيون...

Twitter: @ketab_n

ولكنها، مع ذلك، لا تزال حلماً بعيد المنال. إنها السراب تدنو منه فيبتعد عنك.

«عما قريب تحيي البلاد ذكرى اليوبيل المئوي لولادة غوغول. ومدرستنا ستحتفل باليوبيل. فغوغول من أبناء أوكرايينا، وولاية بولتافا بالأخص. وقد نظمت قصيدة لهذه المناسبة. إني لأتخشّع أمام هذا العبقريّ، وقلمي أعجز من أن يفيه حقّه. قرأت القصيدة لأليوشا فقال: «هنا يتكلّم شاعر بلغ أشدّه»...

* * *

«عدت فالتقيت ماروسيا الليلة عند أخيها الأكبر في المدينة. وقد أسرّت إليّ أنّها حفرت اسمي على الصليب الذي تحمله في عنقها، وعلى المشط في شعرها، وأنّها تردّده أبداً في خلواتها. وكانت معها رفيقة فقالت لرفيقتها: «تأمّليه جيّداً. هل رأيت في حياتك شابّاً يماثله؟» إنّني، في نظرها، الكمال بعينه. حقّاً إنّ عين الحبّ عمياء... رافقتها بعد السهرة إلى مدرستها. وعندما بلغنا البوابة ودّعتها بضمّة إلى صدري وبقبلة حارّة على شفتيها. وها أنا أكتب عمّا كان ووهج قبلتها الطاهرة لا يزال على شفتيّ...»

* * *

Twitter: @ketab_n

«أدهشني أمس في غرفة النوم مشهد رفيق يصلّي. ركع وظلّ راكعاً نحو عشر دقائق، وعيناه تحدّقان إلى الايقونة، ويده اليمنى لا تنفكّ ترسم علامة الصليب، وجبهته تنطح الأرض من حين إلى حين. وعندما فرغ من صلاته توجّه بشارة الصليب إلى الجهات الأربع. وانتهى بأن رسمها على وسادته كذلك. ونام مطمئناً. طوبَى له ولأمثاله. إني لأحسدهم».

* * *

«... بدأت مشروعاً شعريّاً كبيراً. إنّه قصّة بعنوان «صيادو السمك». بخاطري أن أصوّر فيها حياة المعذّبين في الأرض بالنسبة لأهل الترف والبطر، وأن أظهر مفاسد المدنيّة الحاضرة... عرفت من أفرامنكو أن القصيدة التي نظمتها في غوغول، والتي أعجبته كثيراً وأعجبت الأساتذة الذين أطلعهم عليها، هي الآن في حوزة اللجنة المكلفة بتنظيم الاحتفال باليوبيل في السمنار. وكلهم من الأساتذة. لقد عرضها أفرامنكو على اللجنة بدون علمي على أمل أن تدعوني اللجنة لإلقائها في اليوبيل.»

* * *

«... اليوم، ولأول مرة في حياتي، أبصرت مومساً وجهاً لوجه. كانت في حانوت ناحوم عندما ذهبت إلى هناك لأشرب

Twitter: @ketab_n

كأساً من الحليب... تأمّلتها وتأمّلت الرجل الجالس بجانبها - ولعلّه الذي اشتراها لتكون الليلة من نصيبه - فاقشعرّ بدني. وما صدقت أن كرعت الحليب حتى خرجت لا ألوي على شيء. إن القحة التي في عينيها وصوتها وحركاتها لكافية وحدها أن تبعث القشعريرة في بدني... ها هي الحياة - حياتنا. ما أكثر ما يدبّ في ظلماتها من البشاعات والموبقات! ها هو العالم - عالمنا. إن جسمه ينخره السوس، وهو يعبث ويلهو! ها هم الناس - الآنية الحاوية بذار الألوهة. إنهم يتسابقون إلى الهاوية وفي سباقهم يتحطمون!..»

* * *

«... تعدّت «شهرتي» جدران السمنار، فقد جاءني طلب لكتابة مسابقتين. إحداهما لطالبة من الصف الثامن في «الجمناز». والأخرى لطالب في الصف السادس. وأنا لا أعرف الاثنين... تقرّر نهائيّاً أن تبدأ الامتحانات غداً (٢٢ نيسان) وستنتهي في صفّنا في أواسط أيار.»

* * *

«جاءنا في هذا الصباح مدرّس الكتاب المقدّس وأعلن بدون تمهيد موضوع الامتحان. وكان الموضوع من سفر «الجامعة»

Twitter: @ketab_n

لسليمان: «الحزن خير من الضحك. لأنّه بكآبة الوجه يُصلح القلب». صُعق الرفاق وراحوا يتبادلون النظرات الحائرة ويتهامسون. فيقول الواحد: هذه نهايتي. والآخر - رسبتُ لا محالة. وراح القريبون منّي يتوسّلون إليّ: لا تدعنا نهلك في مستهلّ شبابنا! نجّنا يا ميشا! الخ. فكانت النتيجة أن كتبت فوق مسابقتي مسابقتين...»

* * *

«تكتنفني اليوم كآبة لم أعرف لها مثيلاً من قبل... كأنّ أفعواناً ينهش قلبي. في التاسعة عشرة وكأنّني في التسعين. لا شيء يغريني. لا شيء يدفعني على الحركة. في العينين وفي الدماغ ضباب، وفي الصدر ضيق من العالم وحنق عليه لأن رأسي المرهق لا يجد له متّكأ فيه... كنت أودّ أن أضحك، ولكن شفتيّ تبدوان كما لو كانتا مشدودتين بخيوط أو بسلاسل... أما السبب فقد يكون في القرار الذي اتخذته لجنة يوبيل غوغول بعدم تمكيني من إلقاء قصيدتي في الحفلة التي جرت عندنا أمس. وعذرهم في ذلك أن القصيدة وصلتهم من بعد أن كان برنامج الحفلة قد سُلّم للطبع. ذلك ما قاله لي أفرامنكو. وقد أكّد لي أن الأساتذة الذين اطّلعوا على القصيدة أعجبوا بها جدّاً... لا بأس.

Twitter: @ketab_n

إذا لم تخنّي قواي فسأشقّ طريقي بنفسي...»

* * *

«٢١ أيّار ١٩٠٩ - وأخيراً آن لي أن أتنفّس بملء صدري. انتهت الامتحانات وقريباً أعود إلى لبنان الحبيب - إلى أهلي - إلى الشخروب وصنّين... وأنا إذ أودّع هذه السنة الدراسيّة أحاول أن أُحاسب نفسي عنها محاسبة نزيهة، دقيقة. لقد كانت سنة خصبة من جميع الوجوه. فأنا أحسّ أن قامتي الفكرية والروحيّة قد زادت ذراعاً وأكثر بالنسبة إلى السنة الماضية. ولا أرى ما يستوجب التأنيب من الناحية الخلقية. أتلفّت إلى الوراء فلا أذكر ساعة هدرتها هدراً... سأذكر هذه السنة بالخير لأنها كانت حجر الزاوية في بناء مستقبلي...

«قال لي أفرامنكو إنّه تسلّم من أخيه الطالب في جامعة خاركوف رسالة ينقل فيها رأي أستاذ الأدب هناك في ما عرضه عليه من شعري. ورأي الأستاذ أن هذه البدايات تبشّر بمستقبل باهر...

«من زمان طلب إليّ أفرامنكو أن أهدي إليه مجموعة قصائدي. وأمس كانت لي معه وقفة مؤثرة للغاية. فقد نسخت له طائفة مختارة من قصائدي وكتبت عليها هذه التقدمة: إلى

Twitter: @ketab_n

أستاذي الأعزّ والأغلى من تلميذه القادر فضله - فما إن وقع بصره على التقدمة حتى اندفع نحوي، وطوّقني بذراعيه، وأخذ يقبّلني كما لو كنت حبيباً يلقاه بعد غياب طويل. وراح يخاطبني بصوت متلجلج من شدّة الانفعال: شكراً يا عزيزي. شكراً! ماذا فعلت لأستحقّ محبّتك وتقديرك؟ لم يكن في طاقتي أن أفعل أكثر. أتمنّى لك النجاح. سلّم على والديك، وإن كنت لا أعرفهما، وهنئهما عنّي بمثل هذا الابن. أتمنّى لك اطّراد النجاح. أتمنّى لك سفراً ميموناً. وإلى اللّقاء في الخريف الآتي!

«جرى كلّ ذلك على مرأى من نفر من الرفاق. فأذهلهم ما جرى لأنهم كانوا يجهلون أسباب المودّة التي بيني وبين أفرامنكو...

«وداعاً يا بولتافا! وداعاً أيها السمنار! إن بلادي تدعوني...»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سفرة سندبادية

قبل مغادرتي بولتافا وصلني من أخويّ في أميركا مبلغ من المال يوازي ٣٠٠ روبل. إنّه لأضخم ثروة احتواها جيبي حتى ذلك الحين. وقد عرف بالأمر رفيقي ميخائيل اسكندر الذي كان - هو الآخر - مزمعاً على السفر إلى الوطن. فتهلّل مثلما تهلّلت ورحنا نمنّي نفسينا بسفرة موفورة الراحة والبهجة.

بلغنا المحطة قبل موعد القطار بعشر دقائق. وكانت المحطّة تستعدّ لاستقبال قطارين. أحدهما من الغرب. والآخر من الشرق - وهو الذي سنركبه إلى أوديسا لنبحر منها إلى بيروت. وكان الركّاب كثرة وقد انتظموا في صفين طويلين لابتياع تذاكر السفر. فاقترح رفيقي أن يهتمّ هو بشحن الحقائب وأن آخذ أنا مكاني في الصف المناسب فابتاع تذكرتين لي وله. وقفت في الصف وأمامي من الركاب نحو العشرين. آخرهم فتاة قروية يتفجّر جسدها ووجهها عافية وحسناً وإغراء، فأنستني المهمّة التي أنا في سبيلها. وبعد قليل جاء رفيقي يطلب نقوداً صغيرة ليدفعها

Twitter: @ketab_n

للحمّالين. فأخرجت حافظة نقودي من الجيب الخلفي في بنطلوني وقد أودعتها كلّ ثروتي. وبعد أن ناولته ما طلب أعدت الحافظة إلى الجيب الذي كانت فيه، ومن خلفي ركاب يزحمونني ولا أعرف عددهم.

وجاء دوري. فطلبت تذكرتين إلى أوديسا. وناولني البائع التذكرتين وحدّد لي الثمن. وعندما مددت يدي إلى جيبي ولم أقع فيها على حافظة نقودي رحت أفتش جميع جيوبي. وطال تفتيشي. فتضايق بائع التذاكر وطلب إليّ أن أتنحّى جانباً فلا أؤخّر الذين من خلفي. فتنحّيت ووقفت كالمصعوق دقيقة أو دقيقتين وأنا لا أدري ماذا أفعل. حقائبنا، لا شك، باتت في القطار. فكيف نعود إلى السمنار؟ وبيننا وبين القطار دقيقة لا أكثر. أين أنت يا ميخائيل اسكندر؟

وجاء رفيقي فأخبرته بما كان. وسألته إذا كان يملك من المال ما يكفينا للوصول إلى بيروت. لم يكن لدينا الوقت للتفتيس عن الحافظة المفقودة. وأين تفتّش ومَن تفتّش والمحطّة تعجّ بالحركة، والقطار المسافر إلى الشرق كان قد غادر المحطّة، وقطارنا يوشك أن يغادرها؟ ولكم سُرّي عنّي عندما عاد رفيقي وفي يده التذكرتان وقال ملهوفاً: هيّا بنا!

Twitter: @ketab_n

قفزنا إلى القطار وكانت عجلاته قد أخذت تتحرّك. وتحدّثنا طويلاً في الكارثة التي نزلت بنا. فقال رفيقي إنّني وقعت ضحية نشّال. ولم أكن من قبل قد سمعت عن النشّالين. فكان ذلك أول عهدي بطغمة من الطغمات الكثيرة التي «لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في أهراء» ولكنها تعيش مما يزرعه ويحصده ويخزنه غيرها. ومنها من يتمتّع بإجلال الناس وإكبارهم في كلّ مكان وزمان. ولقد سألت نفسي: أيتعب أخواي في أميركا؟ ألعلّ قدرة أجهلها شاءت أن تقتصّ مني لذنب اقترفته فاتخذت من ذلك السارق أداة لقصاصي؟ أجل. أجل. أما قال المسيح: «إن كلّ من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه»؟ ألم أنظر مثل تلك النظرة إلى الفتاة القروية التي كانت واقفة في الصف أمامي؟ سبحان من لا يفوته علم شيء، والذي يجري العدل في كلّ شيء!..

بلغنا أوديسا في المساء ولم يكن مع رفيقي ما يمكّننا من الأكل في مطعم أو النوم في فندق. فماذا نعمل؟ وكان رفيقي أوسع حيلة، وأكثر جرأة منّي. فقال: هيّا بنا نفتّش عن دير. - واهتدينا في أول الليل إلى دير في المدينة. فاستقبلنا الراهب الحارس بمنتهى البرودة. ومن بعد أن شرحنا له ما نحن فيه

Twitter: @ketab_n

وأفهمناه أنّنا طلاّب مدرسة لاهوتيّة استشار في أمرنا الرئيس. فتعطّف الأخير وأذن لنا بالمبيت في زاوية مهجورة من الدير، وعلى فراش من القشّ. وتعطّف مدير المطبخ فأمر لنا بالقليل من الخبز الأسود والفاصوليا المسلوقة منذ الأمس.

في اليوم التالي ذهبنا إلى القنصلية التركيّة للتأشير على جواز السفر. وكان الموظف الذي قام بالمهمّة يقف وراء حاجز من الحديد المشبّك فيه نافذة صغيرة يتناول منها الجوازات ومنها يردّها إلى أصحابها. وعندما أنهى المعاملة وضع الجوازين أمامه في النافذة وقال ببرودة متناهية: ريال مجيدي عن كلّ جواز. - فانعقل لسان رفيقي ولساني. وبهتنا لا ندري ماذا نفعل أو ماذا نقول. وكان رفيقي يعرف شيئاً من اللغة التركية. فانبرى، بعد أن استجمع قواه، يستعطف ذلك الموظف بقوله: إنّنا من التبعية العثمانية الشريفة. وإنّنا طلاّب. وللطلاب تخفيض كبير في أجور السكك الحديد، وفي البواخر. فهل يليق أن تعاملنا روسيّا خيراً من أمّنا الحنون تركيا؟ ولكنّ بلاغته ذهبت أدراج الرياح. فالموظف بقي مصرّاً على قبض التعريفة دونما أقلّ تخفيض. عندها، وقد نفدت حيلته واتّقدت عيناه غضباً، مدّ رفيقي يده إلى النافذة وبلمح الطرف اختطف الجوازين وصاح بي: الحقني!

Twitter: @ketab_n

وخرجنا من القنصليّة نعدو ونتلفّت وراءنا إلى أن ضعنا بين الجماهير في الشارع وأيقنّا أنّنا في أمان. بعد ساعة كنّا على ظهر الباخرة...

قطعنا البحر الأسود دون أن نذوق طعاماً إلاّ بعض الفضلات التي كان رفيقي يحصل عليها من المطبخ حيناً بعد حين. وعندما بلغنا اسطمبول ورست الباخرة في البوسفور أقدم الباعة الأتراك والأرمن واليونان في قواربهم، وأحاطوا بالباخرة إحاطة السوار بالمعصم. ولم يكن يسمح لأيّ منهم أن يصعد إلى الباخرة. بل كانت الطريقة المتبعة بينهم وبين الركاب في البيع والشراء أن يرفعوا إلى الشاري البضاعة التي يشتريها في سلّة مربوطة برأس عصاً طويلة. فيأخذ الشاري البضاعة ويضع ثمنها في السلّة. وأطللنا أنا ورفيقي من فوق الدرابزون على أسطول القوارب التي في أسفل. وإذا في أحدها تركيّ أمامه مرجل كبير تملأه رؤوس الغنم وتتصاعد منه أبخرة شهيّة. وكان الجوع قد اشتدّ بنا إلى درجة لا تُطاق. فقال رفيقي للرجل بعض كلمات بالتركية لم أفهم منها شيئاً. وإذا بسلّة ترتفع إلينا وفيها رأس خروف كبير. فانحنى رفيقي وتناول الرأس من السلّة وصاح بي، كما صاح في القنصلية: الحقني! فاختفينا في الحال عن نظر

Twitter: @ketab_n

التركي المسكين وبقي صوته يلعلع في آذاننا مطالباً بالثمن ومنهالاً علينا بالشتائم واللعنات. وهكذا بات في مستطاعنا القول إننا استردينا من الأتراك بعض ما كان لنا في ذمتهم!..

انفرجت الحال عندما بلغنا بيروت. فقد كان لنا فيها معارف. وعنّ لي، بدلاً من الصعود إلى بسكنتا، أن أعرّج على نسيبنا في معلقة زحلة. وكنت أحمل إليه هديّة ظننت أنها ستبهجه مثلما أبهجتني. وهي موسى أميركية لا تجرح عند الحلاقة (Safety razor) ابتعتها من بولتافا. ولكنه، من بعد أن جرّبها مرّة أو مرّتين، ألقاها جانباً. وما كنت أدري أنها في حاجة إلى شفرات جديدة تُبدّل باستمرار. بل كنت أحسب الشفرة التي فيها تخدم مدى العمر. أليس أن الأميركان يصنعون العجائب؟..

يمرّ الطريق من زحلة إلى بسكنتا بالشخروب. وعندما أطللت على تلك البقعة الحبيبة إلى قلبي غمرتني غبطة لا توصف. وشعرت كأنّ صخور الشخروب وأشجاره وأشواكه وشحاريره وحساسينه تناديني باسمي. وبها من الشوق إليّ مثل ما بي اليها. لم أجد من الأهل هناك غير الوالد وحده. وكان يسقي بعض مزروعات صيفية. وكان قد رآني قادماً من بعيد. فما هشّ ولا بشّ. لأنّه لم يعرفني في زيّي الروسي إلاّ بعد أن أصبحت على

Twitter: @ketab_n

بضع خطوات منه. فألقى في الحال بالمجرفة التي في يده أرضاً، وأقبل عليّ وفي عينيه دموع، وضمّني بذراعيه القويّتين، وراح يخاطبني وفي صوته رجفة من شدّة الفرح:

- يا ابني. يا ابني. أهكذا تفعل بنا؟

قلت متعجّباً:

- وماذا فعلت؟

- إنّ أخبارك انقطعت عنّا منذ شهرين وأمّك طريحة الفراش من فرط قلقها عليك. لا تصدّق أنّك حي.

- أحببت أن آتيكم بغتة.

- ومما زاد في قلقنا جميعاً رسالة جاءتنا من أخيك أديب وفيها أنّه أرسل إليك ساعة فعادت إليه بعد حين. فجنّ جنونه وكتب يسألنا إذا كانت لدينا أخبار حديثة منك. وهكذا تجمّعت ظروف كثيرة كدنا نبتّ معها بأنّك، لا سمح اللّه...

- بأنّني انتقلت من هذه الفانية. ولكنني. كما ترى، ما أزال فانياً بين الفانين.

- أسرع. أسرع يا ابني إلى والدتك وأنعش قلبها.

في الواقع، كانت الوالدة ملازمة فراشها عندما بلغت البيت. إلا أنها ما إن سمعت صوتي قبل أن دخلت البيت حتى

Twitter: @ketab_n

هبّت من فراشها واندفعت نحوي تقبّلني وتبلّل وجهي بدموعها، ولا تجد ما تقوله أكثر من: «نشكرِ اللّه! نشكرك يا ربّي ونحمدك!» ثم تنحني إلى الأرض فتقبّلها كذلك مكررة شكرها وحمدها للّذي ردّ ولدها إليها من بعد أن حسبته في عداد الهالكين.

أمّا الساعة الذهبية - أو المذهبة - بسلسلتها الطويلة، الجميلة - فقد قامت هي الأخرى بسياحة سندبادية من والا والا، إلى بولتافا، إلى والا والا وأخيراً إلى بسكنتا!

* * *

من ذكريات ذلك الصيف لا تزال ماثلة في ذهني ذكرى حالة نفسية غريبة مررت بها وأنا جالس عصر ذات يوم تحت أطناف الصخور الشاهقة في الشخروب حيث أعشاش الخطاف والسنونو وحيث قناة نبع صنّين تكركر فيها مياهه البلوريّة، الباردة. ظلال ناعمة تكتنفني. وعلى مسافات متباينة منّي حقول فيها الحصّادون، وفيها أغنام وأبقار ترعى مطمئنة. ومن خلف الجميع قد انتصبت قامة صنّين، وراحت أشعّة الشمس تتزحلق على نواتئها فتتوهّج بألوان كلها سحر وفتنة.

ويمشي فكري الهوينا مع الظلال والأنوار، ومع قطرات الماء

Twitter: @ketab_n

في القناة، ومع الأغنام والأبقار والرعاة والحصّادين في الحقل. ويسبح خيالي في الفضاء مع السنونو والخطاف. وما هي إلاّ دقائق حتى يغيب عنّي كلّ شيء. وأراني كالماشي في نفق مظلم تحت الأرض. ففي داخلي أصوات لا تنفكّ تسألني من أين كلّ ذلك؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ مِن اللّه وإلى اللّه؟ ومَن، أو ما، هو اللّه؟ ولماذا هذا التنويع الهائل في الأشياء حتى لا تجد عشبتين أو زهرتين أو ثمرتين أو إنسانين يتشابهان في كلّ شيء؟ وما الحكمة في أن تصدر هذه الأشياء عن اللّه لتعود إليه؟ ثمّ ما الحكمة في أنها بين صدورها وعودتها تمرّ في أطوار عجيبة من النموّ والانحلال مع ما يرافق ذلك من لذّة وألم؟ وإن لم يكن هنالك حكمة، وغاية من وراء الحكمة، فما معنى الوجود؟ ولماذا تعلّقنا به؟

الظلمة تزداد سواداً، والنفق يضيق، وجوابٌ واحد لا يأتيني من أيّ جانب. حتى لأشعر بأنّ أنفاسي تهرب من صدري. فأكاد أستغيث.

وبغتة ألمح بصيصاً من النور، إنه ضئيل، ضئيل. وبعيد، بعيد. ولكنني أشعر في الحال بانفراج في صدري، وفي النفق، وفي الظلمة. ويزداد الانفراج فيغدو شبه غبطة. وأحسّ كأنّ أبواباً كثيرة مغلقة في داخلي أخذت تنفتح. ويبدو لي أن اللّه الذي

Twitter: @ketab_n

أفتّش عنه سيطلّ عليّ من كلّ واحد منها، وأن النفق الذي أسير فيه أخذت جدرانه وسقفه تتقلّص رويداً، رويداً. إنني، في مثل لمحة الطرف، سأبصر اللّه، سأعرفه، سأكلّمه. ولكنّ تلك «اللمحة» كانت أعزّ من أن أقتنصها. فقد أفلتت مني. وإذا بي أعود إلى حيث كنت - إلى أطناف الصخور من فوقي، وأسراب الخطاف والسنونو تروح وتأتي إلى أعشاشها، وإلى الحصادين في حقولهم والأغنام والأبقار في مراعيها، وإلى مياه صنّين تغنّي في قناتها فتترنّح لغنائها الأعشاب من حواليها. أعود وكأنّني عائد من رحلة استغرقت أبديات. وأحسّني كالهابط إلى الأرض من علوّ شاهق. ولكنني، في الوقت عينه، أحسني أوسع وأكبر مما كنت بكثير. لقد امتزجت الأشياء بي وامتزجت بها. فلا هي غريبة عنّي، ولا أنا عنها غريب، بل إنّني وإياها جسد واحد وروح واحد. وهذان الروح والجسد يمتدّان إلى اللاّنهاية.

لقد كانت لمحة أضاءت لي سبيلي فيما بعد.

Twitter: @ketab_n

قرط من الموز

وأنا في بيروت، وقبيل أن أركب الباخرة الروسية إلى أوديسا عائداً إلى بولتافا، وقعت عيني في أحد الحوانيت على قرط كبير من الموز غير المخمّر. ولم أكُ قبل ذلك قد رأيت الموز في حياتي أو تذوقت طعمه. إلاّ أنّني كنت أسمع أنّه فاكهة شهيّة، فاخرة. وكنت أعرف أنه نادر الوجود في روسيّا. فخطر لي أن هدية من الموز أحملها معي إلى «ليدا» ووالديها سيكون لها عندهم وقع كبير.

وهكذا اشتريت ذلك القرط، ووضعته في سلّة، ووضعت السلة مع باقي حوائجي على ظهر الباخرة. و «الظهر» كان «الدرجة» الوحيدة التي تخولنا جيوبنا السفر فيها. ولأنّنا كنّا في ميعة الشباب فقد كانت لنا طاقة عجيبة على تحمّل الشظف والحرمان. فَلَكَم شوَتنا الشمس، وبعثرت شعورنا وحوائجنا الرياح، ولكم قذفنا البحر بموجه ورذاذه فتبلّلنا وتبلّلت من تحتنا الأخشاب التي ننام عليها! ولكم جار علينا البحر فسلبنا طعاماً لم

Twitter: @ketab_n

يكد يستقرّ في مِعَدنا! ولكَم رشّتنا المداخن بسخامها فلبست وجوهنا وثيابنا الحداد!

بعد أيام من السفر، ونحن نجتاز الدردنيل، كنت واقفاً وحدي عند مقدّمة الباخرة أرقبها تشقّ الموج فيرغي ويزبد، وأرقب الشطآن عن الجانبين فتنهض في ذاكرتي أشياء درستها عن ذلك الممرّ البحريّ الساحر، وعمّا كان له من عظيم الشأن في تاريخ القارتين اللتين يفصل - أو يجمع - بينهما. وإذا بي أسمع قضقضة وأصواتاً غريبة خلفي. التفتت وإذا هنالك قردان يتراشقان بالموز...

هرولت إلى حيث سلّتي وإذا بالموز يقابلني عند كلّ خطوة، وإذا بالقرط في السلّة قد تهشّم أفظع التهشيم فلم يسلم منه غير نصفه. لقد كانت كارثتي بهديّتي أشدّ هولاً من كارثة الفرس بأسطولهم في «الهلّلسبونت» (الدردنيل). وما حيلتي وخصمي قرد؟ ثمّ ما نفعي من أن أتبيّن فيما بعد أن واحداً من بحارة الباخرة قد جلب ذينك القردين من بعض الموانئ التي رست فيها الباخرة في البحر الأحمر، وأنهما، في غفلة منه، قد أفلتا من قفصهما؟ ما تمّ تمّ. ومَن يدري؟ فقد لا تكون ليدا ووالداها أحقّ بموزي من قردين سلختهما قسوة الإنسان عن ديارهما وذويهما

Twitter: @ketab_n

في افريقيا لتقذف بهما إلى ديار غريبة، قاصية، باردة.

في مساء اليوم الذي وصلت فيه بولتافا حملت قرط الموز. أو ما تبقّى منه - إلى ليدا ووالديها فاستقبلوني واستقبلوه بحرارة وبهجة وامتنان. وعلقوه على الحائط في الصالون. ولأنّهم - مثلي - كانوا قد سمعوا، أو قرأوا، عن الموز دون أن يبصروه ويتذوّقوه فقد سألوني إذا كان القرط الذي جئتهم به صالحاً للأكل. فأجبت بثقة الخبير أنّه يجدر بهم تركه بعض الوقت. في حين أن قشوره كان قد غلب عليها الاصفرار.

وطال غيابي عنهم. وعندما زرتهم ثانية وجدت القرط لا يزال معلّقاً على الحائط، وقد اسودّت قشور ثمراته وتضاءل حجمها. وسئلت هل هو بات صالحاً للأكل فتجاهلت السؤال لأخفي ما بي من ارتباك. فأنا، في الواقع، ما كنت أدري إذا كان صالحاً أو غير صالح. ولكنني، وقد أزعجني منظره، رحت أعتقد أنّه قد دبّ فيه الفساد. وخرجت من البيت دون أن أقول لهم «كلوا» أو «لا تأكلوا». وزرتهم بعد ذلك مراراً، وإذا بقرط الموز قد غاب عن الحائط. فلا هم أتوا على ذكره ولا أنا أتيت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ميشا الثائر

بدأتُ السنة الدراسيّة الرابعة بمثل ما أنهيتُ التي قبلها من شغف بالمطالعة والكتابة، ومحاسبة النفس عن كل شاردة وواردة. ولكنّ الربع الأوّل منها لم يكد ينقضي حتى هبّت على المدرسة عاصفة جرفتني في جملة مَن جرفت. لقد أضرب طلاّب الصفوف الأربعة الأولى عن الدرس. وأقفلوا الأبواب في وجه أساتذتهم، وراحوا يطالبون بحرّياتهم، ويندّدون بالإدارة التي سلبتهم تلك الحريات. ولم يكن لي أيّ علم سابق بالإضراب. ولا كنت من الداعين إليه[1]. إلاّ أنّني حُملت حملاً على إلقاء كلمة فيه.

انتهى الإضراب بإقفال المدرسة وصرف جميع الطلاّب إلى بيوتهم ما عدا طلاّب الصفين الأخيرين المخصّصين للدروس اللاّهوتية. فهؤلاء لم يشتركوا في الإضراب. وبعد قليل جاءت

(١) هذا الاضراب موصوف بشيء من الإسهاب في كتابي «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، الطبعة الأولى ص ٨٠ .

Twitter: @ketab_n

الأوامر من المجمع المقدّس بفتح جميع الصّفوف إلاّ الرابع - صفّي - لأنّه هو الذي تزعم الإضراب. وقد أبيح لطلاّب هذا الصف أن يعودوا إلى دروسهم بعد سنة. أمّا «المحرّضون» - وقد اعتُبرت في عدادهم - فلم يسمح لهم بالعودة إلى المدرسة بتاتاً. وسمح لهم بتقديم امتحان عن صفّهم في صيف ١٩١١ . فكان قصاصهم أشدّ قصاص. إذ أنهم، بالإضافة إلى خسارة سنة دراسية، كان عليهم أن يحصّلوا بأنفسهم دروس السنة الرابعة وأن يقدّموا فيها امتحاناً.

سافرت إلى بطرسبرج (لينغراد اليوم) لعلّ الأمين العام للجمعية الامبراطورية الفلسطينية ينجدني في محنتي فينقلني إلى سمنار غير سمنار بولتافا. ولكنني كنت «كالمستجير من الرمضاء بالنار». فقد استقبلني الأمين العام بالتأنيب والتقريع وأمرني أن أعود إلى موسكو وأنتظر هناك تعليماته.

وانتظرت بضعة أيام في موسكو، ولكن بدون جدوى، فعدت أدراجي إلى بولتافا وفي قلبي حقد عارم على العاصمتين الروسيتين لفرط ما كابدته فيهما من صقيع في النفس والجسد. عدت وليس لديّ أيّة خطّة. فما أدري ماذا أعمل وأنى أتَوَجّه. وإذا بي أجد في بولتافا كتاباً من أليوشا وآخر من فاريا. وإذا

Twitter: @ketab_n

بالاثنين يلحّان عليّ منتهى الإلحاح بالسفر إليهما. وكانا في الشتاء قد انتقلا من القرية إلى المدينة. ووجدت في الكتايين باب فرج. فسافرت إلى «رومني» حيث استُقبلت بحفاوة بالغة. ولم تكن حفاوة كوتيا بي أقلّ حرارة من حفاوة فاريا.

فكّرت طويلاً في ما آل إليه أمري وأمر الشباب الروسيّ الواعي، نعم. إنّني في روسيّا ضيف. إنّني رجل غريب. ولكنني، وقد امتزجت حياتي بحياة البلاد إلى حدّ بعيد، أصبحت أحسّني واحداً من أبنائها، وأحسّ الضغط الهائل الذي يتعرّض له شعبها «من فوق» - من الامبراطور وحاشيته الفاسدة؛ ومن طبقة الأشراف المتمسكة بحقوقها والمغفلة واجباتها نحو الشعب؛ ومن مجلس «الدوما» المحشوّ بالمحافظين، المتهالكين على النفوذ وكرسيّ الحكم؛ ومن الكنيسة المتحالفة أوثق التحالف مع السلطة القائمة، والرامية بثقلها الساحق في جانب تلك السلطة مخافة أن تفقد هي كذلك شيئاً من سلطانها.

لقد كان من ذلك الكبت العنيف، المستمرّ، أن الشباب الذي لم يكن بعد مهيّأ للانفجار راح يتردّى في هُوَى من التشاؤم والتهتك والاستهتار. فالأغاني الأحبّ إلى قلبه هي تلك التي لا تقيم وزناً لأيّ مُثلٍ عُليا. وأنا لا أزال أذكر منها أغنية تقول في ما تقول:

Twitter: @ketab_n

أيّامنا كالموج تعدو سراعاً،
وفي كلّ ساعة ندنو من اللحد أقرب فأقرب.
ألا فاملإ الكأس يا صاحبي،
ولنشرب!
فمن يدري ماذا يحلّ بنا في الغد؟

وهذه اللاأدرية المتهتكة شاعت في أدب تلك الفترة شيوعاً كبيراً. فكانت رواية «سانين» للكاتب ارتسيباشيف نقطة انطلاقها. وكان الإقبال عليها عظيماً.

إلاّ أنّني، وإن غلب التشاؤم على طبعي في ذلك الزمان، لم أكن ميّالاً يوماً من الأيام إلى التهتّك في الأخلاق، وإلى الاستهتار بالقيم الإنسانية العالية. لذلك بقيت في مطالعاتي وفي تفكيري بمنجى من تلك الموجة الطاغية، أرقبها عن كثب دون أن يصيبني شيء من رغوتها ورذاذها. أمّا شعوري بما يعانيه الشعب من كبت وضغط وحرمان فكان أقوى من أن أتجاهله. وكيف أتجاهله ونفسي، منذ الصغر، لا يؤلمها شيء على قدر ما يؤلمها أن ترى الفقر في الأرض يملأ مركبة البَطِر بالخيرات تجنيها يداه، ثمّ يجرّها صاغراً وسياط البطر تلهب لحمه وعظمه. فلا يباح له أن يتلفّظ بأيّ شكوى، أو أن يقول أكثر من: شكراً يا سيدي؟!

Twitter: @ketab_n

النهر المتجمّد

أصبحنا في «رومني» عائلة واحدة تحت سقف واحد - فاريا وكوتيا وأليوشا وأنا. وأصبح من المتعذّر عليّ صدّ هجمات فاريا العنيفة، وقد استعرت نيران حبّها أشد من ذي قبل، وتجدّد أملها في أن تحتلّ قلبي دون منازع. وشعرتُ أنّني لا بدّ مستسلم في النهاية للثورة الصاخبة في دمي. فقد أرهقته شكيمة التبتّل التي استطعت أن أكبح بها جماحه حتى ذلك الحين. وبات لا يبالي بما يهدر في الضمير من تهديد ووعيد. أو أنّه راح يبرّر استسلامه بأكثر من سبب، وأكثر من عذر:

ألعلّ النّاس، عندما سنوا قوانين الزواج، كانوا أوفر حكمة، وأبعد نظراً من الطبيعة؟ فلو أنّ الطبيعة شاءت لزوجين أن لا يعرف أحدهما غير رفيقه لاقتلعت الميل من قلبيهما إلى أيّ رجل آخر أو امرأة أخرى. وها هي فاريا تميل إليّ بكلّ جوارحها. حتى إنّها لو حاولت أن تقتلع ذلك الميل من قلبها لاقتلعت معه الحياة من جسدها. ومن ثمّ فما ذنبها إذا كانت التقادير العمياء قد

Twitter: @ketab_n

جعلتها زوجة لرجل يشبه الرجال ولكنه ليس برجل؟ إنّه كالحمل الوديع في يدها ينقاد إليها في كلّ شيء. وهي حريصة على أن يبقى حمَلاً وديعاً. ولكنه لا يثيرها، ولا هي تثيره. إنّه لا يملأ شيئاً من الفراغ الهائل في حياتها. وهو، إلى ذلك، ينظر إلى علاقتها بي نظرة كلها تساهل. لا ألم فيها ولا امتعاض. فكأنّه يقول في قرارة نفسه: هكذا يجب أن يكون. والذي يرضي فاريا يجب أن يرضيني. لأنّني أريدها أن تكون راضية، وأن تكون سعيدة. أليس أنني بدونها «دولاب خامس» في مركبة الحياة؟

أمّا أليوشا فقد كان يدري بما بيني وبين فاريا ويتظاهر كما لو كان لا يدري. وكنت أعلم أنّه يباركه في قلبه. - وهكذا استسلمت. أو قل هكذا خَدّرْتُ ضميري الحيّ لأهوّن عليه الاستسلام للبهيمة في داخلي. والغريب أن تنبت لي بعد سنين - في أميركا - حالتان مماثلتان فأخرج منهما بعين النتيجة.

* * *

لم يطل أن عاودني الحنين إلى العزلة وإلى العمل. وبرغم أن الفصل كان شتاء، والبرد كان قارساً، فقد استطعت أن أحمل أليوشا على الذهاب معي إلى «غيرا سيموفكا» القريبة لنقيم وحدنا في البيت الكبير ولو أسبوعاً، - أو عدّة أسابيع إذا أمكن. وكان

Twitter: @ketab_n

يخيّل إليّ أنّني في تلك العزلة المباركة سأستردّ ما فقدته من طمأنينة، وسأفتح في نفسي مناجم غنيّة بالشعر وبالتأمّل الهادئ، العميق في شؤوني الخاصة وشؤون الحياة على الإجمال. وقد فاتني أنّني في الشتاء، وفي روسيا القيصرية.

كان همنا الأكبر من بعد أن دخلنا البيت المهجور، أن نطارد الصقيع المعسكر في أرضه وسقفه وجدرانه وجميع زواياه. فقد كان أزعج من أن يُطاق. والقفازات في أيدينا، والأكسية السميكة على أبداننا، والأحذية المبطّنة باللّبد في أرجلنا لم تكن لتردّ عنّا لسعاته. فالتجأنا إلى النار أضرمناها في الموقد. والنار كذلك لم تسعفنا إلا إلى حدّ. ولكنها مكّنتني من أن أنظم في الليلة الأولى قصيدة «النهر المتجمّد». نظمتها بالروسيّة، وبسهولة متناهية. حتى كأنها كانت تُملى عليّ. وكان الذي أوحاها إليّ منظر نهر «صولا» وقد مشينا على وجهه المتجمّد بطريقنا من المدينة.

اختتمت القصيدة بخطاب أوجهه إلى روسيا فأسألها، وقد كبّلها الجليد مثلما كبّل «صولا» - متى يأتي ربيعها ويفكّها من عقال الجليد؟ وهل يأتي زمان يتذوّق فيه العامل والفلاّح شيئاً من الفرج والسعادة؟ ولم يكن يدور في خَلَدي أن سؤالي سيلقى جوابه

Twitter: @ketab_n

بعد سبع سنوات، وأن الحكم في روسيا سينتقل من أيدي القيصر والأشراف والإقطاعيين ورجال الدين إلى أيدي العمال والفلاّحين.

عندما نقلت القصيدة بعد سنين إلى العربية جعلت خاتمتها خطاباً أوجّهه إلى قلبي بدلاً من روسيا. فقد كنت أشعر أنّني، في الواقع، أعيش في دنيا تقلّصت فيها الجمالات الإنسانية. فلا رأفة، ولا محبّة، ولا إخلاص، ولا عدل، ولا حرية. بل إن هذه جميعها قد باتت صفائح من جليد تنساب من تحتها الأحقاد والضغائن والمطامع والمظالم وما تجرّه على الناس من الأوجاع والمآسي.

في الليلة الثانية من وجودنا في غيرا سيموفكا طُرِق بابنا. وإذا بشرطيّ على جنبه سيف يسألنا من نحن وماذا نعمل وحدنا في بيت هجره أهله في الشتاء إلى المدينة. وأفهمنا الرجل، بلغته الخاصّة، أن وجودنا هناك، وفي تلك الظروف، يثير شكوك السلطة. فمن الخير لنا أن نعود من حيث أتينا.

لم يكن من الصعب علينا أن نفهم غاية الشرطيّ. فكلماته كانت إنذاراً لنا من قِبَل السلطة. والسلطة لم يكن يخيفها شيء على قدر ما كان يخيفها تلاقح الأفكار في غفلة عنها. لذلك أذعنّا إلى الإنذار صاغرين، فعدنا في اليوم التالي إلى رومني، وفي القلب حسرة على عزلة حُرمناها زوراً وظلماً وبهتاناً.

Twitter: @ketab_n

الفارس العربي

انقضى الشتاء فانتقلنا إلى غيرا سيموفكا. واتفق أن جاءت القرية في ذلك الصيف (١٩١٠) فصيلةٌ من الخيّالة القوزاق فعسكرت في جوارها. وتعرّف أليوشا إلى اثنين من ضبّاطها. فجاءني ذات يوم يقول إنّني وإياه مدعوّان من قِبَل ذينك الضابطين إلى نزهة على ظهور الخيل، وإنّه لا مناص من قبول الدعوة. فرضخت على مضض لأنّني، حتى ذلك اليوم، لم أكن قد علوت ظهر جواد في حياتي، ولا أمسكت بلجام، ولا وضعت رجلي في ركاب. فكيف أركب حصاناً قوزاقيّاً، والمعروف عن خيل القوزاق أنّها مدرّبة تدريباً خاصّاً لا يعرفه غير أصحابها؟ إنّا للّه وإنّا إليه راجعون...

وجاء العصر - موعد النزهة - وجيء لنا بأربعة جياد، وقيل لي أن أختار واحداً منها. ولم أشأ أن أعترف أمام الآخرين أن لا عهد لي بركوب الخيل وأنا، في اعتقادهم، رجل عربي صميم. والعرب، إذا اشتهروا بشيء، فبالخيل والفروسية. إذاً أنا قد وُلدت

Twitter: @ketab_n

بين الخيل وربيت مع الخيل. وإذاً أنا فارس من أبرع الفرسان، ومن حظّهم أن يشهدوا ضروب فروسيّتي. لذلك جرضت بريقي واخترت من الجياد الأربعة واحداً ظننته أسلسها مراساً، وألطفها طبعاً. ولحظت أحد الضابطين يبتسم ويغمز الآخر غمزة ذات مغزى. فتجاهلت البسمة والغمزة، وتظاهرت كما لو كنت سيّد نفسي وسيّد الموقف، في حين أن قلبي كان قد تغيّر ميزان دقّاته.

سرنا الهوينا في طريق من التراب يمتدّ بين حقول شاسعة من الحنطة التي أوشكت أن تنضج للحصاد. وكان حديثنا عن الخيل وأجناسها وما تتميّز به من صفات. وبغتة، وبدون أن تبدر منّي أيّ حركة أو إشارة، وثب حصاني وثبة جنونيّة إلى الأمام كادت تخلعني من السرج. فكأنّ أفعى لسعته، أو كأنّ جِنّيّاً تقمّصه. وراح يعدو بكلّ ما في قوائمه من عزم وما في صدره من نَفَس. ولولا أنّني كنت أسمع وقع حوافره على الأرض لقلت إنّه كان يطير. فقد كانت الحقول عن الجانبين تبدو لعينيّ وتغيب بسرعة تخطف البصر. فلجأت إلى اللجام أشدّه حيناً بكلّ قوّتي، وحيناً أرخيه. فلم ينفعني اللّجام. عندئذ ألقيته على عاتق الحصان واستعضت عنه بخصلة من عُرفه تمسّكت بها بكلتا يديّ وأسلمت أمري للّه.

Twitter: @ketab_n

تخلّف رفاقي بعيداً عنّي - بعيداً جدّاً. ولم يكن أيّ منهم يعرف المأزق الذي أنا فيه. ومن الأكيد أنهم اعتبروا الجنون الذي مسّ حصاني ضرباً من الفروسية يبهرهم به فارس عربي. فلم يسرعوا لنجدتي. بل إنّني، في البداية، كنت أسمع هتافاتهم: «برافو! يحيا ميشا! يحيا الفارس العربي!» ولكن هتافاتهم لم تلبث أن انقطعت. فبتّ لا أسمع غير وجيب قلبي، ولا أبصر غير الكارثة تترصّدني مع كلّ خطوة يخطوها جوادي. إني سأتحطّم من غير شكّ. ولكن كيف أتحطّم؟ أيدركني رفاقي وليس بي رمق من حياة؟ أم يدركونني وبي حياة قُضي عليها أن تعيش في جسم مهشّم أفظع التهشيم؟

أيقنت أنّني هالك عندما أخذ الطريق في الانحدار. ولو أن الأمر جاء على العكس لانتعش أملي بالنجاة. ففي الطريق الصاعد ما يُتعب الحصان ويريحني. أمّا في الطريق النّازل فكيف لي أن أثبت في السرج، ورجلاي قد أفلتتا من الركاب، وقواي قد خارت، وباتت سرعة الحصان في ازدياد؟ إنّا للّه...

وكانت العجيبة! ففي مثل لمحة الطرف، وبدون أيّ تدبير أو قصد منّي، وجدتني أقفز من السرج إلى عنق الحصان، ثم وجدتني أطوّق ذلك العنق بذراعيّ وقد تدلّت رجلاي المرفوعتان

Twitter: @ketab_n

قليلاً عن الأرض على صدر الحصان وبين قائمتيه، وأصبح وجهي نحو مؤخّرته. وإذا به يجمد بغتة مكانه كأنّه سُمّر بالأرض. وإذا بي ألمس الأرض برجليّ، وأرفع عن عنق الحصان ذراعيّ، ثمّ أروح أربّت كتفه وأمسح العرق عن وجهه؛ وأنتهي بأن أقبّله بين عينيه...

عندما أدركني رفاقي بعد فترة طويلة من الانتظار أقبلوا عليّ يهنّئونني ويبدون إعجابهم الفائق بفروسيّتي. فلم أشأ أن أخبرهم بما كان. ورضيت أن أتقبّل تهانئهم كما لو كنت في الواقع جديراً بها. وكان عليّ أن أقول لهم ما قاله ذلك الأعرابي: مكره أخاك لا بطل!

ما دمت في ذكر «وقائعي» مع الخيل فلا بأس لو أنا ذكرت ههنا حادثة مماثلة وقعت لي بعد ذلك بسنين - بعد عودتي من المهجر إلى لبنان:

في يوم من أيام الربيع كنت وأخي نجيب في الشخروب. وقبيل الغروب تركنا الشخروب لنعود مشياً على الأقدام إلى الضيعة، والمسافة بين الاثنين لا تتجاوز الخمسة الكيلومترات، وكنت، في الغالب، أوثر أن أقطعها مشياً. وما إن بلغنا الطريق العام حتى أدركنا أحد الجيران. وكان يمتطي فرساً، وفي طريقه

Twitter: @ketab_n

إلى الضيعة كذلك. فترجّل في الحال وراح يرجوني بمنتهى الإلحاح أن أركب فرسه. إذ من «العيب» أن يركب هو وأمشي أنا. وأكّد لي أن فرسه «عاقلة للغاية»، حتى لتكاد تكون كالنعجة. لذلك فهو يركبها بغير لجام. ويكتفي بالرسن. ولم أجد مفرّاً من إلحاحه. فأذعنت وركبت.

إلاّ أنني ما إن وضعت رجليّ في الركاب حتى هبّت الفرس كالمذعورة وطفقت تعدو كالمجنونة. فكأنّ ألف شيطان راحوا يهمزونها بألف مهماز.

كان الطريق غير معبّد، تكثر فيه الحفر والحصى والحجارة. وكنت أسمع وقع الحوافر على الحجارة فلا أدري على أيّ منها ستتحطّم جمجمتي ويتبعثر دماغي. ومع قرع الحوافر كانت تبلغ مسامعي هتافات من خلفي: يا اللّه! يا مار جرجس! يا ستّ السيدة!

لم يكن في يدي غير الرسن. ولم يكن لي متسع من الوقت للتفكير. فمن تحتي حيوان في ثورة من الجنون. وأمامي طريق حجارته أكثر من ترابه. عن يساره الوادي وعن يمينه الجبل. وإذا أنا تمكّنت - بأعجوبة - أن أثبت في السرج، فمن يكفل أن الفرس لن تزلق فتتحطّم وتحطّمني معها؟ يا للأقدار! أيكون أنّ منيّتي قد تخلّت عنّي كل هذه السنين لتعود فتصرعني بحجر من

Twitter: @ketab_n

حجارة الشخروب جزاء محبّتي له؟ وهل كان محتوماً علينا وعلى صاحب الفرس أن نتلاقى ساعة تلاقينا وحيث تلاقينا فأركب فرسه إلى حتفي؟

بلغت منعطفاً في الطريق. عن يميني جدار من الحجر بعلوّ متر ونصف المتر. وهذا الجدار يحضن منبسطاً من الأرض بعرض عشرة أمتار. وبمثل لمح الطرف لويت رأس الفرس نحو الجدار. ولكنها، من شدّة زخمها، لم تستطع أن تتوقف. فحاوَلَتْ قفز الجدار. وارتطم صدرها بحجر كبير في أعلاه فزحزحته من مكانه؛ وهو لا يزال ماثلاً للعيان حتى اليوم. وهوت الفرس أرضاً. وقذفت بي مسافة ثلاثة أمتار إلى الأرض فوق الجدار. فظنّ أخي وصاحب الفرس، وكانا يعدوان من بعيد، أنّني قُتلت لا محالة. ولشدّ ما أذهلهما وأذهلني أن أنهض في أقلّ من دقيقة وإذا بي كأنّني ناهض من قيلولة. فلا جرح، ولا رضّة، ولا خدش، حتى ولا ذرّة من التراب على ثيابي. والمضحك - إذا كان هنالك مجال للضحك - أنّني عندما نهضت وخطوت أوّل خطوة شعرت بثقل تحت ركبتي اليمنى. التفتّ وإذا بعلبة سردين فارغة وصدئة قد علقت ببنطلوني فعضّته عضّاً. ولو أنّي شئت أن أعلّقها على تلك الصورة بيدي لما استطعت!

Twitter: @ketab_n

بقي أن أطمئن القارئ عن الفرس كذلك. فقد نهضت من كبوتها برضوض بسيطة للغاية. وكان ثوابها أن قطعت ما تبقى من الطريق وليس على ظهرها غير سرجها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مشروع زواج يجهض

في خريف تلك السنة (١٩١٠) لم يكن بدّ من العودة إلى بولتافا حيث كان عليّ أن أستعدّ لتقديم الامتحانات النهائيّة في الصيف المقبل. ولأنّني كنت من المغضوب عليهم كان محظوراً عليّ أن أدخل بناية السمنار وأن أتابع بعض الدروس فيها. لذلك اكتريت لنفسي غرفة متواضعة في بيت متواضع.

ولم تطق فاريا أن تبقى بعيدة عنّي. فانتقلت هي وكوتيا كذلك إلى بولتافا واكتريا لهما بيتاً. أما أليوشا فقد عاد إلى المدرسة لأنّه لم يكن، في نظر الإدارة، من «الخطرين» مثلي. وفي بيت فاريا وكوتيا كنّا نلتقي - نحن الأربعة - مرّات في النهار، وكثيراً ما كنّا نأكل ونسهر معاً.

كنت لا أزال في «غيرا سيموفكا» عندما جاءني ذات يوم رفيقي ميخائيل إسكندر ليودّعني. فقد قرّ رأيه أن يسافر إلى باريس ليلتحق هناك بكلية الحقوق في «السوربون». وعزّ علي فراقه. ولكنني أكبرت إقدامه. فهو لم يكن على شيء يذكر حتى من مبادئ

Twitter: @ketab_n

الفرنسية. وليس ما يتّكل عليه في أموره الماديّة غير وعودٍ من أخوين له في نيويورك. وهذه الجرأة من قِبله فتحت لي باب أمل لم يكن يخطر لي في بال. فلماذا لا ألتحق به في السنة القادمة من بعد أن أحصل على شهادتي وعندي، مثلما عنده، أخوان في أميركا ما أظنهما يخذلانني إذا أنا طلبت معونتهما؟ أما الفرنسيّة فسأحصّل منها ما أستطيع تحصيله بنفسي في خلال الصيف. وسأملكها في النهاية. وهكذا رحت أستعدّ للامتحانات وكأنّ خريطة مستقبلي باتت واضحة كل الوضوح في ذهني. إلاّ أنّ علاقتي بفاريا أخذت تتوثّق - وتتعقّد - إلى حَدّ أنّه بات من المتعذّر عليّ توجيهها أو حصرها ضمن نطاق الممكن والمعقول. تلك العلاقة ابتدأت من جانبي شفقة، ثمّ تحوّلت بالتدريج ألفة فعطفاً. ولكنّها لم تكن في أي يوم من الأيّام ذلك الحبّ الذي لا يهنأ له عيش إلاّ بجانب المحبوب. وبالتالي فوجود كوتيا شخصاً ثالثاً فيها كان يعذّبني أفظع التعذيب. وكانت فاريا تعرف المتاعب الفكرية والنفسانيّة التي تسبّبها لي علاقتي معها. لذلك صبّت كلّ ذكائها الفطري على التخفيف من تلك المتاعب كيما تسهل عليّ العيش معها ومع ضميري في سلام. من ذلك أنّها أصرّت على تعلّم اللغة العربيّة. فما إن أتقنت تصوير الحروف حتى راحت تكتب اسمها هكذا: «فاريا نعيمه»، وتكتبه

Twitter: @ketab_n

جليّاً وجميلاً. وعندما سألتها في ذلك كان جوابها:

- هكذا يجب أن يكون. وهكذا سيكون.

- وكوتيا؟

- إنني لم أُخلق لكوتيا، ولا هو خُلق لي. بل خُلقت لك، وأنت لي.

- وكوتيا لمن خُلق؟

- للدير. إنّه راهب بعقله وقلبه وروحه.

- أواثقة أنت من أنّه لن يؤلمه استبدال حياته الحاضرة بحياة الرهابين؟

- كلّ الوثوق.

- وأنا؟ من أين لك الثقة بأن حياتك معي لن تكون حياة شقاء وعذاب؟

- الشقاء معك خير من الهناء مع غيرك. عذّبني مهما شئت. ولكن دعني أبقى قريبة منك.

وراحت فاريا تعدّ العدّة لإرسال كوتيا إلى دير من الأديار الروسية في جبل آثوس[1]، وهو لا يبدي أقلّ اعتراض. إلاّ أنّني

---

(١) جبل في جنوب مكدونيا - على بحر إيجه - تقوم عليه وتستقل به منذ أكثر من ألف عام أديار كثيرة للروم الأرثوذكس، ويحرم على الاناث - حتى من الحيوان - دخوله.

Twitter: @ketab_n

لحظت انكماشاً في وجهه وحركاته، وحزناً في عينيه. فأيقنت أنّه إذا أقدم على السفر فبدافع الخوف من زوجته، لا بدافع رغبته في التعبّد. وخيّل إليّ أنّ فاريا ترتكب جريمة بحقّه، وأنّني الشريك الأكبر في تلك الجريمة. وشقّ عليّ الأمر. فأنذرت فاريا بقطع علاقتي معها إذا هي مضت في تنفيذ خطّتها.

وإذا بي، وأنا قابع في غرفتي، أفاجأ ذات ليلة بكوتيا وقد عقد الذعر لسانه:

- فا - فا - فاريا... إن - إن - انتحرت.

هرولت لا ألوي على شيء. فوجدت فاريا ممدّدة على سريرها ولا وعي فيها. وبجانبها، على الأرض، قنّينة فيها بقيّة من الكحول. وفهمت من كوتيا أن زوجته جرعت كميّة منها ولم يستطع المسكين أن يمنعها من ذلك. تقدّمت منها فإذا بها تتنفّس، ولكن بجهد. إنّ فيها حياة. فكيف السبيل إلى الحفاظ على تلك الحياة؟ هل ندعو شرطيّاً؟ هل ندعو طبيباً؟ يا للفضيحة! وماذا نقول للشرطي أو للطبيب؟ وإذا - لا سمح اللّه - حصلت الوفاة وابتدأ التحقيق؟.. بصري يغيم. وأفكاري تتبعثر. وإرادتي تنشلّ. فلا أفعل شيئاً. وأبقى مسمّراً مكاني مستسلماً لمشيئة اللّه.

وكانت مشيئة اللّه أن تنقذ العليلة من الموت من بعد أن

Twitter: @ketab_n

راحت أمعاؤها تقذف بما فيها إلى فوق - إلى الفم، ومن الفم إلى الخارج.

بعد ساعة خلتها دهراً توقفت العليلة عن القيء، وأخذ نبضها يستردّ اتّزانه. وبات من الأكيد أنّ الخطر قد زال عنها، وأنها غرقت في سبات عميق. إلا أنّني وكوتيا آثرنا أن نسهر عليها الليل كلّه. وقد أقسم كوتيا في تلك الليلة أنّه يؤثر الموت الف مرّة على أن يشهد ما شهد، وعلى أن يكون السبب في أقلّ أذىً يلحق بفاريا. وأنّه سيسافر إلى آثوس بملء إرادته وطيبة خاطره. وهناك سيصلي أبداً من أجل فاريا وأجلي.

لم يعد في إمكاني من بعد أن استردّت فاريا عافيتها وسافر كوتيا إلى آثوس إلا أن أتنازل أنا كذلك عن شيء من أنانيتي في سبيل تلك المخلوقة التي أحبّتني حتى الموت. فوعدتها، إذا استقرّ كوتيا في الدير، أن أربط حياتي بحياتها. وأيّ بأس في أنّها أسنّ منّي ببضع سنوات؟ أم أيّ بأس في أنها لا تنجب أولاداً؟ حسبها أن تتفانى إلى ذلك الحدّ في حبّي. أليس الحبّ أقدس ما في الحياة؟ أليس أنّه الكفارة عن جميع الذنوب؟ هكذا صمّمت. وهكذا كتبت إلى أهلي أنّني قد آتيهم في الصيف ومعي رفيقة لحياتي.

Twitter: @ketab_n

إلاّ أن الأقدار كانت تهزأ بتصميمي. فلم ينقضِ الشهر حتى عاد إلينا كوتيا ليقول إنّ ما من دير رضي قبوله لأنّه بعل امرأة لا تزال على قيد الحياة. وكأنّي به كان فرحاً جدّاً بالنتيجة التي توصّل إليها بل إنّني، أنا كذلك، وجدت في تلك النتيجة مخرجاً من المأزق الذي زججت نفسي - أو زجّتني الأقدار - فيه. فلم يبق في إمكان فاريا أن تحسبني أقسو عليها إذا أنا رفضت أن أتزوّجها. وكيف أتزوّجها وهي ذات بعل؟ ولم يبق عليّ أن أتحمّل وخز ضميري كلما فكّرت بكوتيا الذي استأنس بي إلى حدّ أن راح يدعوني «يا صديق أفكاري». لقد انحلّت العقدة - عقدتي وعقدة كوتيا. ولكن مَن يحلّ عقدة فاريا؟ وكيف؟ بلى. بلى. سيحلّها الزمان ولو بأثمان باهظة من الوجع والحرمان.

Twitter: @ketab_n

مرحلة تنتهي

لم تصرفني علاقتي مع فاريا، ولا الظروف القاسية التي جرّها الإضراب، عن المطالعة والكتابة. بل إنّ رغبتي فيهما كانت في ازدياد مستمرّ. فالكتاب والقلم باتا من زمان ضرورتين في حياتي لا أستطيع العيش بدونهما. إذ أنّني منهما وبهما كنت أطلّ على عالم أرحب بكثير من ذلك الذي كنت أدور فيه بجسدي. ولولاهما لاختنقت. أمّا الدروس والاستعداد للامتحانات النهائيّة فلم تكن تشغل من وقتي وفكري غير جانب يسير جدّاً. وأمّا صلاتي بماروسيا وليدا فقد قطعتها بنفسي مخافة أن أسبّب لهما ولأهلهما المحافظين شيئاً من الانزعاج من بعد أن أصبحت في نظر الإدارة «ثائراً خطراً». وبالتالي فوجداني لم يكن يبيح لي تغذية تلك الصلات من بعد أن تطوّرت علاقتي بفاريا إلى الحدّ الذي ذكرت.

في تلك الفترة العصيبة كانت يد أفرامنكو أبداً تشدّ يدي. فكأنّنا رفيقان في الطريق. وكان باب بيته - كباب قلبه -

Twitter: @ketab_n

مفتوحاً لي على مصراعيه. فكم من سهرة أمضيتها عنده في جوّ مشبع بالصّداقة والصراحة من جانبه، وباللطف والدعة من جانب زوجته. لقد كان لا يترك سانحة إلاّ اقتنصها لإبداء عظيم إعجابه بي ووطيد إيمانه بمستقبلي الأدبي. وكان، إذا جرى الحديث عن روسيا، يسترسل في الشكوى ممّا تعانيه من ضغط واستبداد وسوء إدارة لينتهي في كلّ مرة إلى القول بأن ذلك لن يطول. وإن طال فلن يدوم. فالشعب الروسي شعب صبور. ولكنه، إذا عيل صبره، يعرف كيف يثور. إنّه شعب غنيّ بأرضه غنيّ بروحه. وهو يحمل رسالة عظيمة. ورسالته تتعدّى حدود بلاده. إنّها تتناول الإنسانيّة بأسرها. وهو سيؤديها حتماً - وعلى أكمل وجه.

إلى جانب أفرامنكو كان لي صديق آخر، وكانت يده القويّة تسندني من حيث أدري ولا يدري. فقد كان لا يعرف شيئاً عنّي، وأعرف عنه الشيء الكثير. وكنت أتتبّع بلهفة فائقة صراعه العنيف مع نفسه ومع العالم. فإذا ربح معركة شعرت كأنّني ربحتها. وإذا خسر معركة شعرت كأنّني أنا الذي خسرها. ذلك الصديق لم يكن غير نمرود «ياسْنايا بولْيانا» - ليف نيكولايفتش تولستوي.

لقد استهواني تولستوي المفتّش عن حقيقة نفسه وحقيقة

Twitter: @ketab_n

العالم من حواليه أكثر مما استهواني مؤلف «الحرب والسلم» و «آنّا كارنينا». فأنا كذلك كنت قد بدأت أفتش بمنتهى الجدّ عن حقيقة نفسي وحقيقة العالم الذي أعيش فيه. والمصباح الوحيد الذي كنت أهتدي بنوره هو المصباح الذي سار على نوره تولستوي. وأعني الإنجيل. فقد ضايقه - مثلما ضايقني - أن تحجب الكنيسة نور ذلك المصباح عن المؤمنين بغيوم كثيفة من الطقوس والتقاليد. وأن تخلق مسيحية لا مسيح فيها، ولا فرق بينها وبين الوثنيّة إلاّ في التسمية.

ألم يكن المسيح حرباً على المرائين، والمنافقين، والمتاجرين بالدين، والمتهالكين على أمجاد الأرض وخيراتها وملذّاتها، والمنساقين بالأحقاد والضغائن في معاملتهم بعضهم لبعض؟ ألم يجعل الناس سواسية من حيث بنوّتهم للأب الواحد؟ ألم يفتح أبواب الملكوت للذين عمرت قلوبهم بالمحبة وفرغت جيوبهم من المال، ويوصدها في وجه الذين عمرت جيوبهم بالمال وفرغت قلوبهم من الخير والرأفة والصلاح؟

ألم يقل المسيح: «ماذا ينفع الإنسان إذا هو ربح العالم وخسر نفسه»؟ ألم يقل: «لا تقاوموا الشرّير... أحبوا أعداءكم، وأحسنوا إلى مَن يبغضكم... إذا صنعت صدقة فلا تعلَمْ شمالك

Twitter: @ketab_n

ما تصنع يمينك... وإذا صلّيتم فلا تكونوا كالمرائين. فإنّهم يحبّون القيام في المجامع، وفي زوايا الشوارع يصلّون ليظهروا للناس... أمّا أنت فإذا صلّيت فادخل مخدعك وأغلق بابك وصلّ إلى أبيك في الخفية. وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك. وإذا صلّيتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين. فإنّهم يظنّون أنّه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم... ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك؟.. كلّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم... ليس كل من يقول لي يا رب يا ربّ يدخل ملكوت السماوات. لكن الذي يعمل إرادة أبي الذي في السّماوات هو يدخل ملكوت السماوات... لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون. ولكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يُفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون. لأنّه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك...»

أجل، ألم يقل المسيح كلّ ذلك، وأكثر من ذلك بكثير؟ وها هي الكنيسة ورجال الكنيسة يباركون الحروب، ويتحالفون مع المال والسلطان، ويقيمون للحقد والبغض عروشاً في قلوبهم، ومنابر في معابدهم. إنهم يخدمون العالم بقلوبهم وأرواحهم إذ

Twitter: @ketab_n

هم يخدمون اللّه بألسنتهم وشفاههم لا غير.

ولأن تولستوي لم يهتد إلى نهجٍ يسيّر عليه حياته أفضل من النهج الذي رسمه المسيح لتلاميذه وللعالم؛ ولأنّه رأى الكنيسة قد ابتعدت كثيراً عن ذلك النهج، لذلك ثار على الكنيسة أولاً. ثمّ ثار على نفسه ليصرفها عن كلّ نهج الإنجيل. فابتدأ بأن حاول توزيع ممتلكاته الواسعة على الفلاّحين. ولكنه اصطدم بمقاومة عنيفة من قِبَل عائلته والدولة. فاكتفى بأن نقل الملكية من اسمه إلى اسم زوجته. وحاول أن يعيش عيشة زهد وتقشف. ولكنه، مع ذلك، لم يهجر بيته الكبير حيث كان محاطاً بكلّ أسباب الراحة والرفاهية. وهكذا بقي صراعه مع نفسه قائماً. وكنت أعرف شيئاً عن ذلك الصراع، وأتمنّى من أعماق قلبي أن يخرج تولستوي منه ظافراً. فقد كان لي في ظفر إنسان واحد شبه وثيقة بأنّني، إذا أنا حاولت، فباستطاعتي أن أظفر.

لذلك هزّني خبر اختفاء تولستوي من بيته ذات يوم من تشرين الثاني سنة ١٩١٠ . إذ أنّني قرأت فيه خبر الانتصار الذي كنت أتمنّى لو يحرزه والرجل في حربه مع نفسه. أليس أنّه أنكر في النهاية العالم وأمجاده وجميع مغرياته؟ أليس أنّه خسر العالم ليربح نفسه بدلاً من أن يخسر نفسه ليربح العالم كما هو دأب

Twitter: @ketab_n

الناس في كلّ مكان؟ ذلك، لعمري، هو الانتصار. تلك، لعمري، هي العظمة.

بعد ظهر العشرين من تشرين الثاني كنت أمشي وحدي في شارع المدينة الرئيسي. وإذا ببائع جرائد يعدو، وفي يده رزمة من الورق، وهو يصيح بأعلى صوته: «اكسترا! اكسترا! وفاة تولستوي!» اختطفت ورقة من يد الولد وإذا بي أقرأ فيها أن تولستوي قضى نحبه في محطة صغيرة للسكة الحديد من بعد أن نهكه داء ذات الرئة. وكان - حسبما قيل وقتئذ - في طريقه إلى دير شاء أن يعتزل فيه العالم حتى آخر حياته.

لم تدمع عيني. ولا انكمش قلبي. ولكنني أكبرت من الكاتب العجوز تلك القفزة يقفزها في آخر أيامه، وإن هي جاءت متأخّرة ولم تبلغ هدفها. وعدت أدراجي لأختلي بنفسي وأفكّر في صراعي أنا مع نفسي ومع العالم، وكيف يتطوّر، وإلى أين عساه ينتهي بي.

شقّ عليّ، وقد خسرت سنة دراسية، أن أنتظر موعد الامتحانات السنوية قبل أن يتاح لي الحصول على شهادتي والعودة إلى وطني. لذلك عنّ لي أن أتقدّم من الإدارة بطلب خطّي لعلّها تمكّنني من تقديم امتحاناتي في أوائل آذار. وشجّعني

Twitter: @ketab_n

أفرامنكو في ذلك. فحبَّرتُ عريضة طويلة لا تزال مسوّدتها محفوظة بين أوراقي. والتاريخ الذي عليها هو التاسع عشر من شباط سنة ١٩١١ .

في تلك العريضة شكوى مريرة مما عانيته بسبب إبعادي عن المدرسة «دونما مبرّر شرعي». فإذا كان قصد الإدارة أن تعاقبني على جرم اقترفته فالذي عانيته حتى الآن يكفي للتكفير عن جميع ذنوبي الماضية والآتية. ومن ثمّ فإذا كانت الإدارة لا تشفق عليّ من أجل نفسي، فلتشفق عليّ من أجل والديّ، ومن أجل بلادي. أليس أنها أبعدتني لاعتقادها أنّني عضو فاسد في جسم سليم؟ أليس أنّني، في نظرها، كبش أسود في قطيع أبيض؟ وها أنا، رغبة منّي في المحافظة على طهارة القطيع الذي ترعاه، وسلامة الجسم الذي تسهر على صحته، أودّ أن أقتلع نفسي من ذينك القطيع والجسد، وأن أذهب بعيداً جدّاً عنهما بحيث لا تتسرّب أيّ عدوى منّي إليهما.

خرجت العريضة من يدي ومضت في سبيلها، وفي سطورها وبين سطورها من المرارة والتهكّم الشيء الكثير. وقد أخبرني أفرامنكو فيما بعد عن الجلسة التي عقدها الأساتذة للبتّ في أمرها، وعن الجدل العنيف الذي دار حولها. وكان رئيس

Twitter: @ketab_n

المدرسة يتزعّم المعارضة. ولكنّ أكثرية الأساتذة كانت بجانبي. فقُبل طلبي، وقدّمت امتحاناتي في النصف الأول من آذار، ونلت شهادتي. وبعد أيام كنت في طريقي إلى لبنان.

Twitter: @ketab_n

عبر المحيط

فيْ ظلّ شواهق الشخروب، حيث السنونو والخطاف في غفلة عن كلّ شيء إلا عن أوكارها العجيبة المعلقة بأطناف تلك الشواهق، جلستُ أحاسب نفسي عن الفترة القصيرة من عمري التي أمضيتها في روسيّا.

لقد كانت فترة جنًى أدبي وفير، ووفترة غليان فكريّ، وفوران عاطفيّ، وامتداد روحي. وكان منها أن فتحت عينيّ على الضحاضيح التي كانت تعيش فيها بلادي - بل جميع البلاد العربية - بل الشرق كلّه، وبخاصّة في دنيا الفكر والفنّ والأدب. فالكتّاب والشعراء عندنا كانوا لا يزالون يتبارون في ستر عقمهم الفكري والروحي بالعبارات المنمقة، والقوافي الطنّانة. وكان أبرعهم في التنميق والتدجيل والنقاق أعلاهم مقاماً وأوفرهم كرامة في نظر القارئ الذي ربي، هو الآخر، ولا ذوق له في الأدب إلاّ الذي يفرضه عليه الدجّالون والمنافقون من ذوي الأفكار والقرائح المعقّمة. فكأنّ بينهم وبين الصدق عداوة كالتي بين الهرّ

Twitter: @ketab_n

والفأر. وكأنّ بين أقلامهم والحياة التي يحويها مثلما بين الأرض والمرّيخ.

كذلك كان من تلك الفترة أنها سلبتني طهارة الشباب لتعوضني عنها خبرة كنت في أمسّ الحاجة إليها. لقد عرفت المرأة بلحمها ودمها. وولجت قلبها. والرجل الذي لا يعرف قلب المرأة لا يعرف قلبه. والرجل الذي لا يحاسب نفسه أدقّ الحساب عن علاقاته بالمرأة تحاسبه الحياة أقسى الحساب عن استهتاره بمقدّساتها، وتدنيسه الإناء الطاهر الذي اختارته مستودعاً ومِرخماً لبذارها.

ثم كان من تلك الفترة أنها ساقتني بسرعة ولجاجة إلى شفا الهاوية التي لا مفرّ لكلّ روح نشيط من اجتيازها - ساقتني إلى شفاها ولم تساعدني على اجتيازها. إنها الهاوية التي ندركها وقد انقطع صوت الحادي الذي كنّا نسير على حدائه؛ واختفت اليد التي كانت تمسك بيدنا؛ وخبا النور الذي كان ينير لنا الطريق. فبتنا لا نملك القدرة على التقهقر أو على التقدّم. ورحنا ندور وندور وكأنّنا ندور في حلقة مفرغة.

لقد كنت، قبل أن سافرت إلى روسيا، أعجز من أن أواجه مشكلات الوجود بقواي الخاصّة، وأعجز من أن أشكّ في صواب

Twitter: @ketab_n

أيّ تفسير من التفاسير التي لقّنتني إيّاها الكنيسة لتلك المشكلات. فاللّه هو الذي خلق العالم في ستّة أيام، وخلقه من لا شيء، ثم استراح في اليوم السابع. وآدم هو الإنسان الأول الذي خلقه اللّه واختتم به الخليقة. ولكنه لم يلبث أن أشفق عليه يعيش وحده ولا معين له. فاستلّ ضلعاً من أضلاعه ومنها خلق حوّاء. فبات الإنسان ذكراً وأنثى. وكان قبل ذلك لا ذكراً ولا أنثى. واللّه هو الذي وضع آدم وحوّاء في جنّة يعزّ جمالها على الوصف، وأباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا ثمار شجرة فيها هي «شجرة معرفة الخير والشرّ» وأنذرهما أنّهما يوم يأكلان منها «يموتان موتاً».

وأغرت الحيّة حوّاء فأكلت من الشجرة المحرّمة. وأعطت زوجها فأكل. فغضب اللّه عليهما وطردهما من الجنّة قبل أن يفطنا إلى «شجرة الحياة» التي كانت هي الأخرى في وسط الجنة، والتي لو أكلا منها لباتا خالدين كاللّه. وكان الموت عقابهما لأنهما خالفا مشيئة اللّه. ومخالفتهما تلك هي التي تدعوها الكنيسة «الخطيئة الجَدّيّة». وهذه الخطيئة انتقلت إلى ذرّية الأبوين الأوّلين. ومعها انتقل العقاب الذي يلازمها وهو الموت.

وتكاثر الناس على الأرض وباتوا شعوباً متعدّدة الألسن

Twitter: @ketab_n

والمواطن. إلاّ أنّ اللّه لم يختر من تلك الشعوب إلا واحداً جعله مؤتمن سرّه. وذلك الشعب هم اليهود. فهؤلاء كان اللّه يحدب عليهم حدباً خاصّاً، يهتمّ بكل كبيرة وصغيرة من شؤونهم. ولا يفتأ يكلّمهم بألسنة أنبياء ينتقيهم له من بينهم. فيقودهم في الحروب، ويعلّمهم كيف يبطشون بأعدائهم، وينصرهم عليهم إذا هم أطاعوه. ويخذلهم كلما خرجوا على طاعته.

وبعد آلاف السنين، وقد استشرى العصيان بين اليهود، ولم تردّهم إلى صوابهم عقوبات التشريد والمذلّة التي نزلت بهم، تذكّر اللّه وعده لهم بأن يرسل لهم مخلصاً من سبط داود. فأرسل ابنه الوحيد ليفتديهم بدمه ويفتدي من الخطيئة الجَدّيّة كلّ مَن آمن به وعمل بوصاياه. ذلك الفادي هو يسوع بن مريم الذي عاش بينهم ثلاثاً وثلاثين سنة وعلّمهم الحقّ بالكلمة والمثال. فما كان منهم إلا أن أنكروه واضطهدوه، وانتهوا بأن صلبوه. ولكنه قام في اليوم الثالث لصلبه وموته ودفنه. وبعد أربعين يوماً صعد إلى السماء حيث جلس عن يمين الآب - ولا يزال.

ذلك، بالاختصار، هو الثوب الذي فصّلته الكنيسة لروحي، فلبثت مزهوّاً به طيلة أيام صباي وأول شبابي. ولكنني من بعد أن عدت من روسيا وفي ظل شواهق الشخروب، أخذت أشعر أن

Twitter: @ketab_n

ذلك الثوب يضيق بي، وأنّ جوانب منه تتفتّق وتتمزّق باستمرار، ولا حيلة لي في رتقها. ومن غير أن أتعرّض بفكري للّه رحت أطرح على نفسي طائفة من الأسئلة. وها أنا أورد بعضها على سبيل المثال:

لماذا عنّ للّه أن يخلق عندما خلق وليس قبل ذلك أو بعده؟ وماذا كان يفعل اللّه قبل أن خلق؟

ما معنى قول التوراة «إن اللّه استراح في اليوم السابع» من جميع أعماله؟ ألعلّه لا يزال «مستريحاً»؟ وما هو عمله من بعد أن خلق الكون وأطلقه يجري على سننه؟ ألعلّ عمله الأكبر هو أن يحصي على الناس جميع أفكارهم وأعمالهم ونياتهم وشهواتهم - حتى أنفاسهم - ليعود فيكافئهم أو يعاقبهم عليها؟ وما معنى قول التوراة إنّ اللّه خلق الإنسان «على صورته كمثاله»؟ والإنسان تنمو مداركه بالخبرة والتجربة. ألعلّ اللّه خلق العالم فيختبر نفسه؟ ألعلّه «ينمو» كما ينمو الإنسان؟

ولماذا لم يخلق اللّه حوّاء ساعة خلق آدم، بل جاء خلق حواء وكأنّه تصحيح لسهو بدر من اللّه؟

ساعة أنذر اللّه آدم وحواء بالموت إذا هما أكلا من ثمار شجرة معرفة الخير والشرّ ألم يكن يعرف أنهما سيأكلان؟ فكيف

Twitter: @ketab_n

طاوعته محبّته الأبوية أن ينصب فخّاً لمخلوقين سُرّ بخلقهما وهو يعلم أنهما سيقعان فيه؟ وأيّ والد أرضيّ ينصب لابنه فخّاً وهو يعلم أنّه واقع فيه لا محالة؟

لماذا لم يخطر في بال حوّاء أن تأكل من شجرة الحياة من بعد أن أكلت من شجرة معرفة الخير والشرّ؟ فهي وزوجها لو فعلا ذلك لما نال الموت منهما منالاً.

لئن «أخطأ» الأبوان الأوّلان فاستحقّا الموت، فما هي خطيئة الدبّابات والزّحافات والحشرات والمجنّحات والأسماك، أو خطيئة الأشجار وشتى الأعشاب والنباتات والأزاهير حتى تعاقَب، هي الأخرى، بالموت؟

ثمّ لئن أخطأ الأبوان، فما هو ذنب ذرّيتهما؟ وأيّ العدل هو العدل الذي يجعل الأولاد يضرسون بحصرم أكله آباؤهم؟

ولماذا لم يصفح اللّه عن «خطيئة» آدم وحوّاء، وها هو المسيح - «ابنه الوحيد» - يعلّمنا أن نصفح عن زلّة قريبنا لا مرة واحدة، بل سبعين مرّة سبع مرّات؟ أيكون «الابن» أكرم قلباً، وأوسع صدراً من أبيه؟

ولو أنّ اللّه صفح لآدم وحواء، أما كان بذلك قد وفّر دم ابنه الذي أراقه بعد آلاف السنين كفّارة عن ذنب آدم وحوّاء؟

Twitter: @ketab_n

وما معنى «الفداء»؟ كيف لدم غير دمي أن يغسل عنّي «خطيئة» متأصّلة في دمي لأن دمي هو الذي ارتكبها؟ وما قيمة الخلاص يأتيني بجهد غير جهدي؟

وكيف يكون المسيح ابن اللّه «الوحيد» ولا أكون أنا كذلك ابن اللّه وقد دعاني المسيح أخاه، وعلمني أن أدعو أباه أبي؟

وكيف يكون أبي وأبو المسيح ذات الإله الذي تحدّثني عنه كتب موسى وغيرها من أسفار العهد القديم؟ إنّ «يهوه» موسى هو «ربّ الجنود» - إله حربٍ وبطشٍ ومكرٍ وتشفٍّ - إله غضب وثورة ونقمة - إله شعب واحد من كلّ شعوب الأرض - شعب جشع، أناني، مخاتل، يستبيح كلّ محرّم في سبيل ما يحسبه أبٌ كلّه شفقة ورأفة ورحمة ومحبة. فهو يشرق شمسه على الأشرار والأبرار بالسواء. ويفرح بنعجة واحدة تضلّ عن القطيع ثم تعود إليه فرحه بالقطيع كلّه. وهو، إلى ذلك، أبٌ لجميع الناس بدون استثناء. وليس له شعبٌ «مختار» يغدق عليه كلّ عنايته دون باقي الشعوب. فكيف أوفّق بين الإلهين كما تريدني الكنيسة أن أفعل؟ لقد بات ذلك فوق ما أستطيع هضمه!

وبالتالي، فقد بتّ أعتقد أن الكنيسة جنت على الإنجيل إذ جعلته بعضاً من مجموعة كتب كثيرة دعتها «الكتاب المقدس».

Twitter: @ketab_n

فالإنجيل عالم شاسع في ذاته، وجوهرة نادرة لا يشرّفها - بل يحطّ من قيمتها - أن تُعْرَض مع ما هو أقلّ قيمة منها بكثير. سواء في ذلك أسفار «العهد القديم» أو ما يلي الإنجيل من أسفار «العهد الجديد». وأيّ مبرّر أن يتساوى في «القداسة» سفر «تثنية الاشتراع» أو «يشوع بن نون» أو «القضاة» أو «أعمال الرسل» مع الموعظة على الجبل في إنجيل متى.

لا. لم يبق لي من كلّ ما زوّدتني به الكنيسة إلاّ ذلك الألق الربّاني الذي كان يبهرني في شخصيّة الناصري. وإلاّ ذلك السموّ الروحاني الذي كنت أستشفّه من خلال تعاليمه فأتمنّى لو تكون لي المقدرة على السير بمقتضاها. بلى. لقد كان من تلك التعاليم أشياء أبهم عليّ فهمها. أو هو أغلق عليّ. منها يوم الدين الذي فيه يفصل الدّيّان «الخراف» عن «الجداء» فيقول للأوّلين: «تعالوا إليّ يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ إنشاء العالم». ويقول للآخرين: «اذهبوا عنّي يا ملاعين إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكته». فكيف يدعو المسيح بعض الناس «ملاعين» وهو القائل: باركوا ولا تلعنوا؟ بل كيف يزجّ بعض الناس في «النار الأبديّة» وهو الآمر بالصفح، وبغير حدود أو نهاية؟ وما هي النار الأبدية، وأين هي؟ وكيف يرضى اللّه أن يزج

Twitter: @ketab_n

قسماً من خليقته فيها وليس بالصعب عليه أن يصلحهم بكلمة إذا هو شاء؟

والأهمّ من ذلك أن المسيح لم يحلّ لي مشكلة الشرّ، ومن أين جاء. ولا مشكلة الموت وما يعقب الموت. فقوله بقيامة لا يعرفُ غير اللّه لها موعداً، ثمّ بحياة أبديّة للصالحين ونار أبدية للطالحين لم يكن يتّفق والمفهوم السامي الذي أعطانيه عن محبّة أبيه وعدله. أما كان أقرب إلى العدل لو ترك اللّه الأموات في موتهم؟ لقد أخذ المساكين قسطهم من حلاوة الحياة ومرارتها. وجاءهم الموت فباتوا ولا وعي لهم ولا حسّ ولا إدراك. ولا نفع منهم ولا ضير لأيّ مخلوق من المخلوقات. إنهم لا وجود لهم. ففيمَ إقامتهم وردّ الوعي والحسّ والإدراك إليهم ما دام لا أمل بإصلاح الفاسدين منهم، ولا مجال لجعل الصالحين أكثر صلاحاً؟ أليست الدينونة اعترافاً من اللّه بأنّه قد أخطأ عندما خلق ما خلق ثمّ نظر إليه فرآه «حسناً جدّاً»؟ وها هو ليس من الحسن حيث ظنّه. فلماذا لا يصحّح خطأه بخلق عالم أفضل من الأوّل، بدلاً من أن يقيم ذلك العالم من الموت ويحاسبه عمّا كان منه قبل أن يموت وقبل القيامة بآلاف آلاف السنين؟

حسبي أنْ أذكر ما ذكرت ليعرف القارئ أيّ وحدة روحيّة

Twitter: @ketab_n

كنت أعيش فيها بين أهلي وسكّان بلدتي وبلادي. ولو أنّها كانت وحدة روحية لا أكثر لهان الأمر بعض الشيء. ولكنها كانت كذلك وحدة في الفكر والذوق. فمن أين كان لي في ذلك الزمان مَن أتحدّث إليه في المجاري الأدبيّة والفنية الواسعة التي قرّبتني منها تلك الفترة القصيرة التي صرفتها في روسيّا؟ من أين كان لي أن أجد في لبنان وجارات لبنان أناساً إذا ذكرت لهم أعلام الغرب في دنيا الأدب والمسرح والرسم والنحت والموسيقى شعرت أنّ أولئك الأعلام باتوا بعضاً من حياتهم؟ لئن كان في البلاد العربيّة كلها مَن سمع باسم إبسن ونيتشه ودوستويفسكي وتشيخوف وشيلّر وبوتيتشلي وميكالانجلو وشوبرت وفاغنر وتشيكوفسكي وغيرهم وغيرهم فمن الأكيد أنّهم ما كانوا يعدّون حتى بالعشرات.

في تلك الوحدة التي لم يكن يؤنسها غير حبّ أهلي لي وحبي لأهلي؛ ثم هيامي الدائم بالطبيعة الهادئة، الساحرة التي حوالي، رحت أعدّ العدّة للسفر إلى باريس في أوائل أيلول. فأدرس من الفرنسية ما استطعت بنفسي. وكتبت إلى البطريرك غوريغوريوس حداد - بطريرك الروم الأرثوذكس في دمشق - لعلّه يسعى لي لدى قنصل فرنسا بإعفائي من رواتب الدرس في

Twitter: @ketab_n

السوربون. فسعى ونجح. وكنت كلّما فكّرت في درس الحقوق واتخاذ المحاماة مهنة شعرت بانكماش في نفسي. إذ أنّني لم يكن يجذبني إليها أيّ جاذب سوى أنّها قد تؤمّن لي دخلاً يساعدني على تعليم إخوتي الأصغر منّي وتحسين حالة أهلي المادية. وكنت، كلما فكّرت بالمحاماة، حاولت أن أجد فيها مبرّراً لإقدامي عليها غير الكسب؛ وحاولت كذلك أن أربط بينها وبين نزعتي إلى الأدب. فأنا سأضفي على مرافعاتي مسحة أدبية. وسأكون نصير المظلوم والمقهور. وسأدافع عن الفقراء بالمجان. وسأتخصّص للأمور الجزائيّة. فهي تتصل مباشرة بالنفس البشريّة. وبالنظم الجائرة التي تحمل الضعفاء من الناس على اقتراف الجرائم. أجل. سأكون، في الواقع، محامياً عن الحقّ والعدل. ونعم المهمّة.

في ذلك الصيف جاءتني رسالة من رفيقي ميخائيل إسكندر. ومن أين؟ من نيويورك! لقد هجر المسكين باريس لأن أخويه في أميركا لم يمدّاه بالمال الضروري كما كان يأمل. فعضّه الجوع. ولم يجد مناصاً من الهرب فهرب - وكان كالهارب من الدبّ إلى الجبّ. وأزعجني جدّاً أن يغادر رفيقي باريس قبل أن أبلغها. فقد كنت ألقي عليه كلّ آمالي في تمهيد طريقي إلى السوربون وإلى الحياة في العاصمة الفرنسية الصاخبة. يا اللّه!

Twitter: @ketab_n

كيف أسافر إلى باريس، ولا رفيق لي فيها ولا صديق، وأنا لا أزال أجهل اللغة؟

بعد أيام طلبت إليّ أمّي أن أنزل إلى الضيعة لعلني أجد «مكتوباً» من الأخوين في أميركا. وكان قد طال سكوتهما. ولكنني وجدت أكثر من «مكتوب». وجدت مكارياً قادماً من بيروت، ورأيته يتوقّف أمام مخزن خالي، وسمعته يقول لخالي إنّه التقى أخي أديب في بيروت، وإن أخي قادم خلفه مع أحد المكارين وسيبلغ الضيعة بعد دقائق...

لم أصدّق الخبر ولم يصدّقه خالي. ولكنّ المكاري أقسم أنه لم يقل غير الصّدق، ولم يكن مخدوعاً في الشخص الذي لقيه في بيروت وقال عن نفسه إنه «ديب بن يوسف نعيمه». لم يبق عندي شكّ في رواية المكاري فاندفعت أجري في الطريق وكأن الطريق تحت قدميّ بساط من الريح. لقد مضى أحد عشر عاماً على هجرة أخي أديب. وأنا أحبّه كثيراً كثيراً. أتراني أعرفه عندما أراه؟ أتراه يعرفني؟ أيعرفه الوالد؟ أتعرفه الوالدة والجدّة؟ وأيّ البهجة ستكون بهجتهم عندما يلتقونه؟ وأيّ الشعور سيكون شعوره عندما يلتقيهم، ويلتقي إخوته الصغار الذين لا يعرفهم ولا يعرفونه؟ إنّها لمفاجأة لم تكن تخطر لأيّ منّا حتى في الأحلام. ما

Twitter: @ketab_n

أكرم الحياة! ما أجمل الأخوّة والبنوّة والأمومة والأبوّة! ما أروع المحبة تسكن القلوب فتحوّلها عروشاً للّه!

لقد صحّ ما قاله المكاري. إنّه أخي بلحمه ودمه - ذلك الشاب الوسيم المحيّا، القادم نحوي على ظهر تلك البغلة. ها هو يترجّل. لقد عرفني. لقد فضحني له زيّي الروسي. رويدك يا قلب. على مهلك. فهذه الدقيقة النادرة لن تهرب منك. إنّها خير ما في العمر. إنّها العمر. إنّها الدقيقة التي فيها تُغفر جميع مساوئ العالم، وتمحى كلّ مشكلاته. فالسماء والأرض وكلّ ما فيهما فردوس حافل بالصفاء والغبطة والجمال.

وتمتدّ تلك الدقيقة ساعات. ونبلغ الشخروب، فنلتقي أول ما نلتقي الوالد الذي يسألني إذا كان هنالك «مكتوب» من أميركا. فأجيبه بخبث أن لا «مكتوب». ويسألني عن الشاب الذي معي. فأقول إنّه من زحلة، وإنّه يدرس في باريس وسيكون رفيقي في السفر بعد أسبوعين. ويصدّق الوالد كذبتي. ولكن أخي لا يضبط أعصابه - وبالأحرى قلبه. فيندفع نحو أبيه، ويطوّقه بذراعيه، ويأخذ يقبّله والدمع ينهمر من عينيه. فيرتبك الوالد أيّما ارتباك إذ يرى ذلك الشاب الغريب يعامله تلك المعاملة الغريبة. ثم لا يلبث أن تخنق العبرات صوته عندما يعرف حقيقة الخبر.

Twitter: @ketab_n

وتنطلي الأكذوبة على الوالدة كذلك - ولكن إلى حين. إذ نلتقيها وقد خرجت عند العصر بخرافها الثلاثة لتبرّدها بالمياه الجارية في قناة نبع صنّين قبل أن تنصرف بها إلى المرعى، وألحظ أنّها تتأمّل الشابّ «الغريب» مليّاً إذ هو يسير والوالد في المقدمة، وأنا وإياها في المؤخّرة. وعندما أسألها في ذلك تجيبني وفي صوتها حرقة ولهفة: «سبحان اللّه يا ابني كم يشبه هذا الفتى أخاك ديب!» وما هي إلا خطوات حتى تهجم بغتة على الغريب وتطوّقه من الوراء بذراعيها وتأخذ تشهق وتصيح: «ولدي! ولدي! ديب! ديب!» لقد أبصرتْ في مؤخّرة عنقه شامة صغيرة. فأيقنت في الحال أنّها الشامة التي قبّلتها آلاف المرّات يوم كان بكرها الحبيب لا يزال طفلاً على صدرها. للّه قلوب الأمّهات!

لم تطل زيارة أخي لأهله وبلاده. ولكنها، على قصرها، كانت نقطة تحوّل عظيم في مجرى حياتي. فقد أقنعني أخي في خلال حديثي معه بشأن مستقبلي أنّه من الأفضل لي لو أنا سافرت معه إلى أميركا ودخلت هناك جامعة من جامعاتها الكثيرة. فهناك ثمان وأربعون ولاية. ولكلّ ولاية جامعتها. والتعليم فيها مجّاني أو شبه مجانيّ. وفي ولاية واشنطن، على شاطئ الباسيفيكي، جامعة لا بأس بها. وبالتالي، فباريس مدينة

Twitter: @ketab_n

صاخبة. وهو يخشى أن أنجرف بما فيها من صخب وتهتّك واستهتار بالقيم الأخلاقية. ثمّ إن وجودي قريباً من أخويّ يوفّر عليهما بعض المشقّة في تزويدي بما أحتاج إليه من المال.

وهكذا، بين ليلة وضحاها وبتدبير غير تدبيري، انصرفت أفكاري عن فرنسا إلى الولايات المتحدة، وعن السوربون إلى جامعة واشنطن، وعن العالم القديم إلى الجديد. وكنت، كلما فكّرت بذلك العالم، شعرت بأن بيني وبينه وهدة سحيقة. فهو لم يكن يغريني بما فيه من ثروات أسطورية، وسعة في العيش، وسوانح للكسب. فالدولار الذي كان يجذب إليه ملايين الناس من جميع أقطار الأرض لم يكن يجذبني. إذ أنّني كنت أفتّش عن أشياء لا يبتاعها الدولار، ولا هو يمكن أن يكون المفتاح إليها. بل على العكس. فالدولار قد يكون الحاجز الأكبر بيني وبين ما أفتّش عنه. ومن ثم فأنا لا أعرف كلمة واحدة من الإنكليزية. والجامعات في أميركا تبدو لي في مستواها دون مستوى الجامعات في أوروبا بكثير.

إلاّ أنّني كنت أعود فأقول في نفسي: هكذا شاء أخي. وهكذا فليكن. ولا بدّ أنّني سأجد في العالم الجديد خبرة لن أجدها في غيره. أمّا اللغة فلن تخيفني. ولست أشكّ في أنّني

Twitter: @ketab_n

سأملك ناصيتها كما ملكت ناصية الروسية. فإلى أميركا!

في أوائل تشرين الثاني من تلك السنة - ١٩١١ - كنت وأخي وعروسه التي انتقاها من بنات بسكنتا، في طريقنا الطويل، الطويل من سفح صنّين إلى شواطئ المحيط الهادئ.

Twitter: @ketab_n

سبعون...

المرحلة الأولى

	صفحة
باب الكتاب	٧
أب في السماء وأب في أميركا	١٩
من ذكريات الطفولة	٣٥
بو يوسف وأم يوسف	٤٣
بسكنتا والشخروب	٥٧
الألفباء.	٧٩
عودة المهاجر	٨٩
انقلب السحر على الساحر	١٠١
المدرسة الروسيّة	١٠٩
نحن والطبيعة	١٢٣
نكبة وهجرة	١٣٧
الغربة الأولى	١٤٩

Twitter: @ketab_n

صفحة

الناصرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦

بين عالمين ٢٣١

بولتافا ١٩٠٦ - ١٩١١

في السّمنار ٢٥٩
من يوميّاتي ٢٧١
غيرا سيموفكا ٢٩٩
كوتيا ٣٠٥
فاريا ٣٢١
سنتي الثالثة في السّمنار ٣٢٩
حصيلة السنة الثالثة ٣٣٥
سفرة سندبادية ٣٦٧
قرط من الموز ٣٧٧
ميشا الثائر ٣٨١
النهر المتجمّد ٣٨٥
الفارس العربي ٣٨٩
مشروع زواج يجهض ٣٩٧
مرحلة تنتهي ٤٠٣
عبر المحيط ٤١١

Twitter: @ketab_n

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهبِ الريح
دروب
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وامثال)

The Book of Mirdad

Kahlil Gibran

Memoirs of a Vagrant Soul

Till We Meet and Twelve Other Stories.

Twitter: @ketab_n

سبعون...

المرحلة الأولى

ليس أحب إلى قلوب القراء عامةً من مسيرة الأدباء والعظماء. وليس أحبّ إلى قلب القارىء العربي، خصوصاً من سيرة كتّابه المشهورين، وأدبائه النابهين، وأعلام تاريخه البارزين.

وأكثر ما تكون السيرة جذّابة خالدة، حين تروي حياة عظيمٍ من العظماء، وحينَ يسجّلها صاحبها نفسه بقلمه، وحين يكون هذا القلمُ قلمَ كاتبٍ فنّان، ومفكّرٍ فلسفيّ رائد، يختصر في تجاربه تاريخ عصرٍ، ومعاناة أمّةٍ، واتجاه حضارةٍ، ويختصر في أسلوبه أروع أشكال البثّ ومناهج التعبير. و**سبعون** ميخائيل نعيمه، في أجزائها الثلاثة، هي ما يطمح إلى مطالعته كل قارىء، فهي سجلّ حافل لحياة صاحبها المديدة، وتجاربه الإنسانية والكونية، فضلاً عن أنها بريشته ذات البهاء، والابداع، والإقتدار الفني المتميّز.

إنّه كتابُ كتبِ نعيمه، وكتابٌ من كتب السيرة الرائعة في الخزانة العربية.

ISBN 9953-26-023-0

9 789953 260235